التطورات السياسية
في روسيا القيصرية ٨٦٢ـ١٩١٧

دراسة تحليلية

في الأوضاع الداخلية والعلاقات الخارجية

الاستاذ الدكتور

علي هادي عباس المهداوي

استاذ تاريخ العلاقات الدولية

عنوان الكتاب : التطورات السياسية في روسيا القيصرية ٨٦٢-١٩١٧

تـأليـف : أ.د. علي هادي عباس المهداوي

القيـاس : ١٧,٥سم × ٢٥سم

عدد الصفحات : ٢٨١ صفحة

الإخـراج الفني : نهلة نشأت الشمري

سنـة الطـبع : ١٤٣٨هـ - ٢٠١٨ م

النـاشـر : مؤسسة ثائر العصامي

المطبعـة : جعفر العصامي للطبع والتجليد الفني





ISBN:978-9922-606-80-4

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٢٨٦٠ لسنة ٢٠١٨

١. المقدمة:

تعد دراسة التطورات السياسية التي شهدتها روسيا منذ بدايات تكوينها عام ٨٦٢م وحتى عام ١٩١٧ من المسائل الأساسية التي تهدف إلى الكشف عن ماهية المتغيرات التي اثرت في رسم ملامح السياسة الروسية وانعكاساتها على الصعيدين الداخلي والخارجي، وذلك في ظل نظام أُسري اوتوقراطي تحكّم في شؤون البلاد ومقدراتها على مدى زمني تجاوز العشرة قرون، فقد تناوبت أُسرتا روريك (٨٦٢-١٦١٣) ورومانوف (١٦١٣-١٩١٧) على حكم روسيا مما اوجد واقعا سياسياً اتسم بتذبذب الاستقرار الداخلي بسبب الصراع على السلطة من جهة، وتفاقم الصراع مع القوى المجاورة والإقليمية وهو الصراع الذي افرزه موقع روسيا الجغرافي فدفع بحكامها إلى اعتماد مبدأ القوة واللجوء إلى خيار الحرب لأجل تامين الاتصال بالعالم الخارجي عن طريق مد النفوذ الروسي إلى بحر البلطيق والوصول إلى البحر الاسود والمياه الدافئة من جهة أخرى.

ورغم ان المكتبة العربية لا تخلو من المؤلفات التي تناولت تاريخ روسيا الا اننا وجدنا بان ما كُتب ركّز على جوانب محددة وربما مجتزأة، الامر الذي يوجب الخوض في موضوع عام يهدف إلى رفد القارئ العربي بمعلومات موسوعية شاملة وفقا لتسلسل الاحداث الزمني عن ماهية التطورات التي طرأت على مؤسسة الحكم الروسي حتى نهاية العهد القيصري عام ١٩١٧. وسوف نحاول في دراستنا هذه الاجابة على عدد من التساؤلات التي تندرج في ضمن اطار فرضية البحث العلمي والمنهج التاريخي أهمها: ماهي بدايات تكوين الدولة الروسية ؟ كيف دخلت المسيحية إلى روسيا ؟ إلى أي مدى ساهم الموقع الجغرافي في تحفيز الروس على التوسع الخارجي ؟ ماهي الانعكاسات الناجمة عن احتلال المغول لروسيا ؟ وكيف واجه الروس الاحتلال المغولي لبلادهم ؟ كيف تصدى الروس لأطماع القوى المجاورة؟ لماذا اعتبر الروس القيصر ايفان الثالث رمزاً وطنياً ؟ كيف نجح القيصر ايفان الرابع في ادارة الصراع مع قوى التحالف الليفوني ؟ ماهي قصة ديمتري الكذاب؟ ماهي حقيقة مقتل الامير ديمتري بن ايفان الرابع ؟ كيف استغلت الاقطاب المتصارعة على العرش الروسي

حادثة مقتل الامير ديمتري فكانت بداية النهاية لحكم اسرة روريك ؟ لماذا قامت الانتفاضة الفلاحية في عهد القيصر ڤاسيلي شويسكي وكيف اخمدت ؟ كيف انتهى عهد آل روريك ؟ ماهو دور "**مجلس النبلاء السبعة**" في التصدي للغزو البولندي للأراضي الروسية ؟ كيف وصل ميخائيل رومانوف إلى عرش روسيا وما هي ابرز التحديات التي واجهها على الصعيدين الداخلي والخارجي ؟ لماذا اجمع المؤرخون على ان عهد القيصر بطرس الاكبر يعد نقطة تحول في تاريخ روسيا الحديث ؟ على ماذا ركزت السياسة الخارجية الروسية في عهد القيصرة كاترين الاولى ؟ وكيف تم التعاطي مع الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ؟ لماذا وقف القيصر الاسكندر الاول بالضد من المشاريع البريطانية والفرنسية في الشرق ابان حكم نابليون بونابرت ؟ لماذا انتهج الروس سياسة التدخل في الشؤون الداخلية للدول وقمع الثورات التي كانت تستهدف اصحاب العروش في اوربا لمرحلة ما بعد نابليون ؟ كيف واجه القيصر نيقولا الاول المشاكل القائمة بين بلاده والدولة العثمانية وبلاد فارس ؟ لماذا دخلت روسيا حرب القرم عام ١٨٥٣؟ وهل تحققت اهدافها ؟ ماهو موقف روسيا من الأحداث التي شهدتها منطقة البلقان ١٨٧٥-١٨٧٨ ؟ وماهي السياسة التي انتهجها الروس ازاء الأزمة البلغارية ١٨٨٥-١٨٨٦ ؟ ماهو رد فعل القيصر الاسكندر الثالث على قرار المانيا بعدم تجديد معاهدة اعادة الضمان عام ١٨٩٠ ؟ وكيف حصل التقارب مع فرنسا ؟ لماذا خسرت روسيا الحرب ضد اليابان ١٩٠٤- ١٩٠٥ ؟ وكيف واجهت الحكومة الثورة الروسية عام ١٩٠٥؟ ماهي الأهداف التي كانت تسعى اليها روسيا حينما توصلت إلى "**وفاق**" مع بريطانيا عام ١٩٠٧ ؟ كيف تعاطت الدبلوماسية الروسية مع الازمة البوسنية عام ١٩٠٨ ؟ ما هو رد الفعل الروسي على قيام العصبة البلقانية عام ١٩١٢ ؟ وماهو رد فعل روسيا من الحرب التي شهدت منطقة البلقان ١٩١٢-١٩١٣ ؟ إلى أي مدى ساهم التيار السلافي المتشدد في دفع روسيا لخوض غمار الحرب العالمية الأولى ؟ وأخيراً كيف ساهمت العوامل الدولية ومنها الخلاف مع النمسا بخصوص قضايا البلقان وازدياد النفوذ الالماني في الدولة العثمانية بزج روسيا في اتون الحرب العظمى عام ١٩١٤ ؟

استندت هذه الدراسة في تناول الأحداث ضمن المدة موضوعة البحث إلى المنهجية الآتية:

١- التتبع التاريخي لسنوات حكم الأمراء والقياصرة الذين تربعوا على العرش الروسي في الفترة الممتدة من عام ٨٦٢م إلى عام١٩١٧.

٢- التراجم الشخصية لأولئك الامراء والقياصرة حسبما ورد في الروايات المنقولة عن المصادر الروسية القديمة.

٣- الوقوف على ماهية التحولات السياسية الداخلية والانجازات التي شهدتها روسيا في عهد كل امير أو قيصر.

٤- توضيح العوامل التي اثرت في رسم مسارات السياسة الخارجية الروسية على صعيد العلاقات مع القوى المجاورة وبقية الدول الاوربية.

وختاماً نامل ان تكون هذه الدراسة متممة لما سبقها من بحوث ودراسات، ومساهمة متواضعة لرفد المكتبة العربية بمؤلف موسوعي شامل عن تاريخ روسيا في العهد القيصري خدمة للعلم وطلبته ... ومن الله التوفيق

الأستاذ الدكتور علي هادي عباس المهداوي

استاذ تاريخ العلاقات الدولية

كلية التربية للعلوم الانسانية – جامعة بابل

٢. بدايات تكوين الدولة الروسية

تزأس أحد أمراء الأراضي الاسكندنافية الواقعة شمال غرب أوربا المدعو (روريك) مع أخويه (سينوس) و(ترفورد) في العقد الرابع من القرن التاسع الميلادي حملة عسكرية كان الهدف منها محاولة الاستيلاء على الأراضي الروسية وإخضاع سكانها من العنصر السلافي لسيطرته المباشرة، بيد أن هذه الحملة لم تحقق أهدافها بسبب المقاومة العنيفة التي جابهها روريك وأتباعه من قبل السلاف القاطنين في تلك الأراضي لاعتقادهم أنه جاء لابتزازهم عن طريق فرض الضرائب والأتاوات، الأمر الذي اضطر الأمير روريك إلى العودة لقلعته في مقاطعة (لادوغا) التي لا تبعد عن مدينة نوفغورود الروسية سوى (٢٠٠) كم [١].

وبحلول النصف الثاني من ذلك القرن شهدت الأراضي الروسية موجة عنيفة من الاضطرابات القبلية بسبب النزاعات على الأراضي الزراعية وتوسيع مناطق النفوذ مما قاد إلى الفوضى العارمة وانعدام الأمن، وقد استمرت الغارات المتبادلة بين القبائل السلافية وما رافقها من قتل وأعمال عنف نحو (١٢) عاماً فتدهورت الأوضاع العامة لاسيما في الجانب الاقتصادي الذي أصيب بالشلل التام حيث برزت ظاهرة "**عصابات قطاع الطرق**" [٢].

وفي مطلع عام ٨٦٢ اجتمع زعماء تلك القبائل للتشاور في المسائل التي تمكنهم من تجاوز الخلافات ووضع نهاية للصراعات القائمة، فتوصلوا إلى قرار يقضي بملء الفراغ السياسي عن طريق منح تفويض حكم الأراضي الروسية وقتذاك إلى شخصية محايدة مؤهلة قادرة على تنظيم الحياة العامة للقبائل السلافية والحد من مظاهر الفوضى والاضطراب الأمني، وأجمع أولئك الزعماء على استدعاء الأمير روريك فبعثوا إليه رسالة ورد فيها :" **لعلك تعلم بان قبائلنا تقطن في مساحات شاسعة من الأراضي مما جعلها عرضة للخلافات وعدم الاستقرار إذ زهقت أرواح كثيرة بسبب الفوضى والفتن، اننا نرغب أن تكون أميراً علينا...** " [٣].

... روريك الذي ينتمي إلى اسرة سويدية تنحدر من قبائل الفايكنج لطلب زعماء القبائل ووصل عام ٨٦٢ إلى نوفغورود على رأس قوة من المقاتلين الاسكندنافيين فأصبح أميراً عليها، ولأجل فرض سيطرته على القبائل السلافية الشمالية قرر الاستعانة بأخويه (تروفورد) و(سينوس) فعين الأول حاكماً على مدينة (ازبورسك) وأسند للثاني حكم مدينة (بلوسير)، لكن وبعد مضي (٣) سنوات قام روريك بإخضاع هاتين المدينتين إلى سلطته المباشرة وذلك بعد وفاة الأخوين جرّاء الوباء الذي تعرضت له المنطقة عام ٨٦٥[٤].

لم يكتف روريك بحدود إمارة نوفغورود التي ولي عليها إنما اعتقد بضرورة التوسع على حساب المناطق المجاورة وبخاصة مدينة كييف الخاضعة لحكم الخزر لاعتبارات عسكرية وستراتيجية ترتبط بالموقع الدفاعي ووقوعها على نهر الدانوب، فأرسل حملة أسند قيادتها لاثنين من المقربين إليه هما : (ديير) و(اسكولد) اللذان "**أخذهما الطمع ونكثا العهد بعد السيطرة على كييف، فاعلنا التمرد وقررا تأسيس إمارة خاضعة لنفوذهما بمعزل عن الأمير روريك**" [٥].

توفي الأمير روريك عام ٨٧٩ بعد أن " **أرسى حجر الأساس لقيام الدولة الروسية**" حسب تعبير أحد الباحثين، لكنه لم يترك وريثاً مؤهلاً لتسلم الحكم مباشرة سوى طفل صغير اسمه (ايجور) الذي آلت إليه السلطة تحت وصاية أمير مقرب من الأسرة يدعى (أوليغ) [٦].

١-٢ . الأمير أوليغ (٨٧٩-٩١٢)

استند الأمير الجديد في إدارته لشؤون الإمارة إلى خطط سياسية وعسكرية ساهمت في وضع الأسس لما عرف بـ (دولة كييفسكايا روس) من خلال [٧]:

- اعتماد ذات السياسة التي انتهجها روريك في التعاطي مع القبائل السلافية لأجل الحفاظ على قوة ووحدة الإمارة.

- استعادة مدينة كييف وضمها إلى ممتلكات ايجور بعد تمكنه من القضاء على القائدين المتمردين دير وأوسكولد عام ٨٨٢.
- إن النجاحات التي تحققت بضم كييف وخضوعها لسلطته المركزية شجعته على التوسع جنوباً فدانت له جميع المناطق المحيطة بـ أوكرانيا.

قرر الأمير أُوليغ اتخاذ كييف عاصمة للإمارة الروسية التي كان يسعى لتأسيسها طبقاً لاعتبارات ستراتيجية واقتصادية كونها محطة التقاء للتجارة ما بين الشرق والغرب، وأدى هذا إلى إضعاف قوة الخزر فضلاً عن تشجيع السلاف على شن غارات عسكرية باتجاه المناطق الجنوبية لبحر قزوين وبخاصة طبرستان وجرجان واذربيجان . ومما يجدر ذكره ان احكام الروس لسيطرتهم على كييف وضعهم في موقف الصدام مع البيزنطيين خلفاء الخزر حيث أعدّ أُوليغ حملة بحرية مؤلفة من (٢٥٠) سفينة وهاجم القسطنطينية فاقتحم البسفور واندفع باتجاه المدينة ووضع درعه عند بوابتها الرئيسة مستغلاً حالة الفراغ التي تركها خروج الاسطول البيزنطي للقتال في مناطق أخرى، لكنه اضطر إلى التراجع والانسحاب إلى كييف بعدما صدرت الأوامر للوحدات البرية والاسطول البيزنطي بالعودة السريعة لإنقاذ العاصمة القسطنطينية من استباحة الروس للمدينة وسكانها [٨].

توفي أُوليغ عام ٩١٢ وقد تزامن موته مع بلوغ ايجور سن الرشد الذي يؤهله لتولي زمام أمور السلطة، هذا وقد تضاربت الروايات بشأن المكان الذي حصلت فيه الوفاة فالبعض أشار أنها حدثت في كييف، والبعض الأخر ذكر ان وفاته كانت خارج منطقة نفوذه فيما وراء البحار لكن دون التطرق للأسباب، كما تم تداول رواية اسطورية بشأن تلك الوفاة مفادها أن أُوليغ أرسل ذات يوم إلى أحد العرافين وسأله عن مصيره المحتوم فأنبأه: " **إن سبب موتك سيكون حصانك**"، واشارت الرواية إلى أن الأمير بادر فوراً وأمر بقتل حصانه المحبب إليه ودفنه لكنه سرعان ما ندم على ذلك وقام بزيارة موضع الدفن، إلا أن افعى خرجت من فم الحصان فلدغته ولقي حتفه في الحال لهذا أطلق عليه لقب " **العراف**" [٩].

وصفت الروايات الروسية القديمة ايجور بـ" **الأمير الطموح**" إذ سعى لاستكمال مشروع دولة كييسفايا الذي وضع أسسه أُوليغ والمتضمن توسيع حدود كييف باتجاه الأراضي البيزنطية، فمنذ توليه السلطة أدرك الأمير ايجور إن المواجهة المحتملة مع البيزنطيين كانت تتطلب أولاً تهيئة مستلزمات الحرب من مقاتلين وأسلحة لذا شرع بفرض الضرائب على جميع القبائل السلافية المنضوية تحت إمارته(١٠).

لم يتخذ ايجور قراره بمهاجمة الممتلكات البيزنطية إلاّ بعد ثلاث عقود من الزمن أعدّ خلالها جيشاً مدرباً وعززه بأسطول من السفن، ففي عام ٩٤١ تمكنت قواته من الوصول إلى منطقة البسفور بعد أن دمرت وأحرقت ما صادفها من قرى وأصبحت على مشارف القسطنطينية، لكن الأسطول البيزنطي تصدى للهجوم واحبط محاولات الروس في اقتحام التحصينات التي أعدت للدفاع عن العاصمة، فضلاً عن الخسائر الكبيرة التي تكبدتها القوات المهاجمة بسبب ما عرف بـ " **النار السائلة**" التي استخدمها البيزنطيون مما أدى إلى إغراق عدد غير قليل من السفن الروسية(١١).

إن هذا الإخفاق العسكري الذي منيت به القوات الروسية لم يمنع ايجور من التفكير مرة أخرى بمهاجمة بيزنطة، إذ تحالف مع بعض القادة الاسكندنافيين ورؤساء القبائل الرحل " **البجنك**" وتم الاتفاق على القيام بحملة مشتركة لمهاجمة العاصمة البيزنطية، ففي عام ٩٤٤ شرعت القوات المتحالفة بهجومها الواسع وضربت طوقاً لمحاصرة القسطنطينية من البر والبحر، الأمر الذي اضطر الإمبراطور البيزنطي للقبول بتسوية سلمية استندت إلى إقناع الأمير ايجور بالحصول على الأموال إضافة إلى كمية من الذهب. وفي عام ٩٤٥ قام وفد بيزنطي بزيارة رسمية إلى كييف وتكللت هذه الزيارة بعقد معاهدة للتحالف والسلام وكذلك إعادة النظر في نسب الضرائب الكمركية الخاصة بالتعامل التجاري بين الجانبين (١٢).

وأشارت بعض المصادر إلى أن سياسة ايجور أثمرت عن توسيع الممتلكات الروسية على ضفتي نهر الدانوب وضم مساحات شاسعة من الأراضي جنوب نهر (فولخوف) وشمال

شبه جزيرة القرم وشمال القوقاز، لكن استمرارية الضغوط الروسية على القبائل القاطنة في هذه المناطق — لاسيما الأتاوات والضرائب– ولدت الكراهية والتذمر لدى زعماء وأبناء هذه القبائل، فحصلت صدامات داخلية انتهت باغتيال ايجور على يد أحد أفراد قبيلة (الدريفليان) في تشرين الأول ٩٤٥، وبسبب صغر سن وريثه وابنه الوحيد (سيفاتوسلاف) البالغ من العمر ثلاث (٣) سنوات تولت أرملته (أولغا) زمام الحكم في كييف [١٣].

٢ـ٣. الأميرة أولغا (٩٤٥ـ٩٦٣)

تضاربت الأخبار في الأسفار الروسية القديمة بشأن الأصول التي تنحدر منها أولغا حيث ورد في بعض الروايات انها من أصل بلغاري، فيما ذكرت أخرى أن أسرتها كانت تقطن مدينة (بسكوف) الروسية وقد ولدت فيها عام ٨٩٠، كما أشارت تلك الروايات إلى ''**عشقها الجنوني**'' لزوجها الأمير القتيل فقررت الانتقام له من قبيلة الدريفليان وذلك بعدما تسلمت السلطة في منتصف كانون الأول ٩٤٥ [١٤].

وتفادياً لما كانت تضمره الأمير أولغا من حقد وانتقام أرسل أمير الدريفليان وفداً تفاوضياً من كبار رجال القبيلة وحكمائها لتسوية الخلافات القائمة بينهما مقترحاً عليها الزواج، ولكن الأميرة رفضت هذا العرض لأنها كانت مدركة تماماً للخفايا الكامنة من وراء ذلك وفي المقدمة الاستيلاء على عرش كييف. هذا وقد وجدت اولغا في زيارة الوفد فرصة سانحة للثأر لزوجها فأمرت بدفن جميع المبعوثين وهم أحياء، وأرسلت مبعوثاً شخصياً عنها إلى أمير الدريفليان ليخبره بموافقتها على طلب الزواج شريطة إرسال مجموعة أخرى من صفوة رجال القبيلة للبحث في المراسيم الخاصة بذلك، فأجاب الأمير طلبها وأرسل وفداً آخر مؤلف من (٢٠) شخص وحال وصولهم أمرت أولغا باحتجازهم وحرقهم وهم أحياء أيضاً [١٥].

وورد في إحدى الروايات انها خططت لمذبحة كبرى راح ضحيتها أكثر من (٥٠٠٠) شخص من الدريفليان حيث أمرت بمهاجمة القرى وحرق المزارع وفرض الحصار

على جميع مناطق نفوذ القبيلة، ولم تتخلى عن سياستها الانتقامية تلك حتى دخولها النصرانية وتعميدها عام ٩٥٧ [١٦].

أما بخصوص اعتناقها للمسيحية فأوضحت إحدى الدراسات " **إن الأميرة أولغا كانت تراقب المسيحيين وقد نجحت في أن تتعرف على إيمانهم وأن تعمل مقارنة بين الدين والمسيحي والديانة السلافية الوثنية، فتيقنت بعقلها الفطن بأن الوثنية لم تتمكن على تربية أناس من أمثال المسيحيين. لقد كشف لها الحوار مع المعلمين المسيحيين الطهارة والعلو السماوي للتعليم المسيحي، كما أَسِر قلبها من الحقيقية الانجيلية... ولكن أولغا لم تكن من الجرأة بأن تقبل المعمودية في كييف لأنها خشيت من اضطرابات الشيوخ والشعب بصفتهم وثنيين لم يكونوا متسامحين مع الإيمان المسيحي... ومن جهة أخرى كانت ترغب في أن تستمع إلى إرشاد في الإيمان المسيحي أكثر دقة وتفصيلاً وذلك في العاصمة المسيحية ذاتها تحسباً من أن ترتكب خطأ ما... كانت لها الرغبة في أن ترى كل شيء أسمى في الإيمان الاسمى لكي تقبله باقتناع القلب والذهن... ولذلك اتجهت سنة ٩٥٥ إلى القسطنطينية. لقد استقبلت هناك من قبل الإمبراطور البيزنطي بإكرام كبير، وأرشدها البطريرك بوليافكتس في الإيمان المسيحي والتي قبلت فيها اسم يلينا (هيلان)... وخاطبها البطريرك بقوله مباركة أنت من بين شعبك إذ قد أحببتي النور ورفضتي الظلام، لذلك سيباركك جميع بني الروس... كانت أولغا بصفتها أماً تحدث ابنها سيفاتوسلاف عن الإيمان المسيحية قائلة: يا بني اني عرفت الإله الحقيقي... ان الإيمان المسيحي هو نور وفرح للنفس البشرية... اقبل هذا الإيمان ولم تندم على ذلك فحسب بل وستجد نفسك أسعد رجل في الوجود... لكن الابن كان يحب المجد كثيراً وكان يفكر في المعارك فقط لذلك أجاب أمه: كيف يمكنني أنا دون سواي أن أقبل ناموساً آخر؟ سوف يضحك علي جميع أصدقائي**"[١٧].

هذا وقد تداولت الأخبار القديمة دهاء وذكاء الأميرة أولغا في التعاطي مع المواقف الحرجة فتطرقت إلى قصتها مع الإمبراطور البيزنطي الذي أعجب بها ورغب بالزواج منها بعد مقتل زوجها الأمير ايجور إذ أجابته بطريقة مهذبة بقولها: "**أنا سوف أتزوجك بعد أن أصبح مسيحية، فأنت مسيحي وأنا لا زلت وثنية**". وحينما عُمدت في القسطنطينية حاول الإمبراطور إقناعها مرة أخرى لكنها أجابته بدهاء "**سأكون جداً سعيدة لو تزوجتك... لكن بعد أن عمّدتني أصبحت بمثابة أبي**"[١٨].

لقد أُعجب البيزنطيون بشخصية أولغا وبخاصة في المناقشات التي جرت بينها وبين الإمبراطور خلال زيارتها للقسطنطينية حيث أشاد " **بحكمتها السياسية ونضوجها الروحي وهي تحاول إقناعهم بان الشعب الروسي قادر على استيعاب انجازات الروم الدينية والثقافة البيزنطية، وهكذا نجحت في اقتحام القسطنطينية بطريقة سلمية وذلك ما لم يستطعه أحد القادة العسكريين من قبل**" [١٩]. ورغم الجهود التي بذلتها أولغا في التوصل إلى اتفاق بخصوص التجارة الروسية في حدود الإمبراطورية البيزنطية وإعادة تجديد اتفاقية السلام الموقعة عام ٩٤٤ في عهد زوجها ايجور، إلاّ أن الإمبراطور رفض لها طلبين هما زواج ابنها (سفياتوسلاف) من ابنته الأميرة وإعادة تأسيس مطرانية كييف التي سبق وأن اوجدها الأمير اسكولد ثم ألغيت فيما بعد. وبعد عودتها إلى بلادها كرست أولغا جهودها للتبشير المسيحي وشرعت بتأسيس عدد من الكنائس، إذ تم بناء كنيستين في كييف هما (اجياصوفيا) و(القديس نيكولاس) وكنيسة الثالوث المقدس في مدينة بسكوف إضافة إلى كنيسة (البشارة) في مدينة فيتيبسك. كما جاءت بصليب مصنوع من خشبة " الصليب الكريم" وأصبح من أهم موجودات كنيسة أجياصوفيا وقد كتب عليه " **لقد تجددت الأرض الروسية بالصليب المقدس الذي تقبلته أولغا الأميرة الحسنة العبادة**"[٢٠].

وشهدت السنوات الاخيرة من حكم أولغا إجراء إصلاحات شملت الجوانب الإدارية والاقتصادية لاسيما مسألة تنظيم جباية الضرائب ومحاسبة القائمين عليها، فانتعشت التجارة في المدن والمقاطعات الروسية واستمرت كذلك حتى وفاتها عام ٩٦٣ حيث تولى ابنها سفياتوسلاف الملقب بـ " **الشجاع** " زمام السلطة (٢١).

٤ـ٢. الأمير سـڤياتوسلاف (٩٦٣ـ٩٧٢)

وصف بـ" **المحارب العنيد والمقاتل الشجاع... رجل دولة امتدت حدودها من الفولغا إلى منطقة البلقان، فضّل التواجد في الميدان مع جنوده ومؤيديه على الانزواء في دهاليز القصور الفخمة**" (٢٢).

أدرك سڤياتوسلاف أن وجود دولة الخزر في اوربا الشرقية لم يكن عائقاً رئيسياً أمام توسيع مناطق نفوذه غرباً وجنوباً فحسب، بل أن السيطرة الخزرية المطلقة على طرق التجارة الرابطة ما بين الشمال والجنوب عبر البحر الأسود وفرض الرسوم الكمركية الباهظة على التجارة الروسية كان عقبة أساسية في تنمية الموارد المالية اللازمة لتأسيس جيش يحقق طموحاته بالتوسع، لذا استغل حالة الصراع الخزري- البيزنطي القائم على ادعاء الخزر باضطهاد اليهود في بيزنطة وجدد العمل بمعاهدة التحالف الموقعة مع البيزنطيين عام ٩٤٥ تمهيداً لمهاجمة الممتلكات الخزرية (٢٣).

شرع سڤياتوسلاف عام ٩٦٤ بالهجوم على مناطق نفوذ الخزر فتمكن جيشه من اقتحام دفاعات قلعة (ساركل) واقام فيها " **مستعمرة سلافية** "، ثم واصل زحفه باتجاه مدينة (كيرش) في شبه جزيرة القرم لكنه قرر العودة إلى بلاده بعد أن استباح المدينة وكبد الخزر خسائر كبيرة(٢٤).

ويبدو أن الانتصارات السريعة التي حققها سڤياتوسلاف كانت بمثابة جس نبض لمعرفة قوة الخزر آنذاك، لذا قرر في العام التالي (٩٦٥) مهاجمة العاصمة الخزرية (أُتل) فسار على رأس حملة عسكرية كبيرة باتجاه الروافد العليا لنهر الفولغا ودارت رحى معركة فاصلة

عد ابواب العاصمة أسفرت عن خسائر فادحة في صفوف الخزر، إضافة إلى إلحاق الدمار والخراب بـالمدينة وتمهيـد الطريـق امام القـوات المهاجـمـة للتقـدم واحـتلال قلعة (بيلافيـزا) الستراتيجية الواقعة على نهر الدون، وقد أدت هذه الانكسارات العسكرية أمام الروس إلى تراجع قوة الخزر وانهيار امبراطوريتهم لاحقاً(٢٥).

بعد أن تكللت المعارك التي خاضها في بلاد الخزر بالظفر وجه سڤياتوسلاف جل اهتمامه لبناء جيش قوي من أجل الحفاظ على المكاسب الأرضية التي تحققت من جهة والاستمرار في مشاريعه التوسعية من جهة أخرى، وفي غضون عامين أصبح الجيش الروسي قوة ضاربة لا يستهان بها الأمر الذي حدا بالإمبراطور البيزنطي (حنا الأول) إلى الاستعانة به في شن الحرب ضد البلغار الذين رفضوا الاذعان لقرار الإمبراطور بإرسال ما بذمتهم من الأموال الخاصة بالضرائب والرسوم، حيث أرسل وفداً إلى كييف وتم الاتفاق على قيام الروس بتلك المهمة شريطة إيقاف جميع الأعمال العدائية بين الجانبين(٢٦).

شرع سڤياتوسلاف بالهجوم على الأراضي البلغارية في خريف عام ٩٦٧ وتمكن جيشه من تحطيم الدفاعات التي أقامها البلغار حول العاصمة، لكن أخباراً وردت إليه عن قيام جماعة مناوئة بإعلان التمرد في كييف مما اضطره إلى الانسحاب والعودة إلى بلاده للقضاء على المعارضين(٢٧).

وأثر النجاح الذي حققه ضد خصومه في الداخل قرر سڤياتوسلاف معاودة الهجوم على بلغاريا مرة أخرى، ففي آب ٩٦٩ وبعد معارك شرسة احكم الروس سيطرتهم على العاصمة البلغارية الأمر الذي أثار مخاوف الإمبراطور البيزنطي من قيام سڤياتوسلاف بتوسيع نطاق الهجوم والوصول إلى بحر قزوين، لذا سارع الإمبراطور إلى التحالف مع البلغار للحيلولة دون ذلك وتم الاتفاق على تجهيز حملة عسكرية كبيرة (بيزنطية- بلغارية) لطرد الروس من الأراضي البلغارية. غير ان تطبيق هذا الاتفاق تأخر لأكثر من عامين بسبب المشاكل الداخلية التي كانت تعاني منها الإمبراطورية البيزنطية، وحينما شرعت الحملة بهجومها في شباط ٩٧٢ اضطر سڤياتوسلاف إلى الانسحاب قبل بدء المواجهة لاعتقاده

معركة خاسرة بسبب التفوق العسكري البيزنطي، لكن وفي طريق العودة إلى كييف جرى اغتياله في كمين نصب له من قبل جماعة (اليتشكنز) وهي إحدى الجماعات الروسية المعارضة بالتنسيق مع البيزنطيين [٢٨].

كان لمقتل الأمير سڤياتوسلاف تداعيات سلبية ولدت خلافاً حاداً ما بين أبنائه الثلاثة بخصوص تولي السلطة في العاصمة (الأم) كييف، وقد انتهت تسوية هذا الخلاف بأحقية الابن الأكبر (ياروبولك) ٩٧٢-٩٨٠ في حكم العاصمة، فيما أسند حكم مدينة (ايسكورستين) عاصمة قبيلة الدريفليان إلى الأمير (أوليغ) ٩٧٢-٩٧٧، أما الابن الأصغر (فلاديمير) ٩٨٠-١٠١٥ فتولى سلطة نوفغورود. بيد أن هذه التسوية لم تصمد طويلاً إزاء الطموحات الشخصية للانفراد بالسيطرة على جميع أنحاء الإمارة، وتحول الخلاف إلى صراع مسلح نتج عنه مقتل الأمير أوليغ على يد شقيقه ياروبولك عام ٩٧٧ بينما لاذ فلاديمير بالفرار إلى السويد، وأخيراً استطاع فلاديمير تجنيد مجاميع من المرتزقة السويديين وشكل منهم قوة هاجم بها كييف ونجح في الوصول إلى شقيقه ياروبولك وقتله في قصره، ثم اعلن نفسه أميراً على البلاد في الحادي عشر من حزيران ٩٠٨ [٢٩].

٢-٥ . الأمير فلاديمير الأول –المبُجل- (٩٨٠-١٠١٥)

خطط فلاديمير لاستكمال المشروع التوسعي الذي بدأه والده بإخضاع القبائل السلافية الشرقية في منطقة البلقان منها (الفياتيتش، الراداميتش) إضافة إلى قبائل (البيتشنغ) وسعى لتوحيدها في دولة (كييفسكايا روس). ففي عام ٩٨١ شن الحرب ضد بولندا وتمكنت قواته من السيطرة على أجزاء مهمة من أوكرانيا ثم واصلت الهجوم باتجاه الأراضي المحاذية لنهر الفولغا وأحكمت القبضة عليها في أواخر عام ٩٨٢، وأقامت تحصينات دفاعية امتدت على طول نهري (أوسيتر) و(ديستا) بهدف تأمين الحدود الجنوبية للإمارة. وفي عام ٩٨٤ قرر فلاديمير مهاجمة الأراضي البلغارية وقد أسفرت الحملة عن إلحاق الهزيمة بالبلغار الذين تقبلوا تبعات الخسارة ودفعوا الأموال مقابل عقد اتفاق للسلام بين الجانبين [٣٠].

عرف الأمير فلاديمير بتمسكه وتعصبه للديانة الوثنية لكنه قرر التحول عنها إلى النصرانية عام ٩٨٨، وقد تضمنت الكتابات القديمة ثلاث روايات عن السر الكامن وراء هذا القرار:

– **الرواية الأولى**: إن فلاديمير أعجب بالدين البيزنطي المسيحي الارثذوكسي أثر شفائه من مرض في عينيه على يد أحد المسيحيين بعدها دخل منتصراً (قلعة كورسون) البيزنطية شمالي القرم [٣١].

– **الرواية الثانية**: إنه كان راغباً بالزواج من الأميرة (آنا) شقيقة الإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني (٩٥٨–١٠٢٥)، وهو شرط وضعه فلاديمير حينما طلب منه الإمبراطور المساعدة العسكرية للقضاء على حركة التمرد التي ظهرت في القسطنطينية عام ٩٨٧ متعهداً بتحوله وشعبه إلى الديانة المسيحية، لكن باسيل "**ورغم الدور الكبير الذي قامت به القوات الروسية في القضاء على المتمردين**" نكث عهده للأمير الروسي الأمر الذي دفع الأخير إلى التهديد بمهاجمة العاصمة البيزنطية واحتلالها، لذلك اضطر الإمبراطور للقبول بالأمر الواقع فوافق على الزواج وأرسل شقيقته برفقة وفد مؤلف من خمسة أساقفة برئاسة الأسقف (ميخائيل) لغرض إجراء مراسيم تعميد الأمير وزواجه من الأميرة البيزنطية. وهكذا دخل فلاديمير المسيحية ومنح فيما بعد لقب " **قديس من مرتبة الرسل أو معادل الرسل**" وأصبح اول حاكم لكييف على المذهب الارثذوكسي، إذ أمر بالقاء الاله بيرون – اله الرعد– في نهر الدنيبر على مرأى من الروس ودعاهم إلى اعتناق النصرانية، وجرى تعميد جماعي في كييف فاطلقوا على أميرهم لقب " **الشمس الحمراء**"[٣٢].

– **الرواية الثالثة**: ان الامير فلاديمير وبعد عودته منتصرا في احدى المعارك عام ٩٨٣ قرر ان يقدم قربانا بشريا لـ الاله بيرون، فوقعت القرعة على شاب ينحدر من أسرة مسيحية يدعى (يوحنا) ولكن والده رفض ان يقدم ابنه ضحية لالهة وثنية لتنافي ذلك مع مبادئ الايمان المسيحي فتم قتل الاثنين معاً. ان الانتقادات التي رافقت هذه الحادثة حفزت الأمير

على التفكير جدياً باختيار ديانة يمكن اعتمادها في انحاء الامبراطورية وبحسب الروايات فانه درس الأفكار التي تضمنتها مختلف الديانات لكنه اختار المسيحية(٣٣).

وتناولت بعض الدراسات الأسباب التي قادت فلاديمير للتحول إلى المسيحية وفي مقدمتها أدراكه لأهمية " **ان يتبع الشعب الروسي ديانة واحدة بدل السير في تيارات وثنية كثيرة، فتكون دولة موحدة يحكمها أمير واحد يؤمن باله واحد فوق الجميع ... وفضلاً عن هذا كانت أوربا بأكملها قد اعتنقت المسيحية ولا يجوز ترك روسيا في الخلف لوحدها مع الحفاظ على وثنيها** " (٣٤).

ومما تجدر الإشارة إليه ان انتشار المسيحية في إمارة كييف كان تدريجياً وقد ابتدأ بالمدن أولاً حيث أسست الكنائس تحت اشراف رجال دين روس، وأصبحت الكنيسة الارثذوكسية تحظى بقدسية روحية كبيرة لاسيما بعدما تمت ترجمة الانجيل إلى اللغة السلافية. لم يقتصر الاثر الذي تركه دخول المسيحية إلى روسيا على الجانب الديني حسب انما امتد ليشمل جوانب أخرى في الحياة الروسية كالتعليم والآداب والفنون، فضلاً عن الاستفادة من التجربة البيزنطية في مجالات إدارة شؤون الدولة وتشريع القوانين(٣٥).

توفي الأمير فلاديمير في الخامس عشر من ايار ١٠١٥ بعدما ثّبت ركائز المسيحية في بلاده حيث أصبحت الارثذوكسية الدين الرسمي لإمارة كييف، ورغم ان الاسفار القديمة لم تتداول سبب الوفاة الاّ أن التنقيبات التي أُجريت في الثلاثينات من القرن السابع عشر في مدينة كييف بأمر من المطران (بيوتر موغيلا) قد أثبتت واقع اغتياله، فالتابوت الرخامي الذي ضم الرفاة " **احتوى على عظام وجمجمة مبتورة** " كما ورد في بعض المصادر(٣٦).

عقب الاعلان عن وفاة فلاديمير شهدت البلاد الروسية موجة عنيفة من الفوضى والاضطرابات الداخلية استمرت نحو عشرين عاما بسبب الصراع على السلطة بين ابنائه الخمسة، إذ سعى سفياتوبولك (١٠١٥-١٠١٩) –الابن الاكبر من أم يونانية– إلى الاستئثار بالسلطة " **وقد عرف بطباعه السيئة وميله إلى الوثنية رغم قبوله بالمعمودية ... شاب طموح ومتهور لم يتردد في اعلان التمرد ضد أبيه عام ١٠١٤ ... فاطلق**

عليه الشعب لقب اللعين " . لقد وضع سفياتوبولك في حساباته منافسة شقيقيه الأصغرين (بوريس) و(غليب) – من الاميرة البيزنطية آنا– ومطالبتهما بعرش كييف فقام بتصفيتهما واستولى على السلطة، الآ انه اصطدم بعقبة اخرى حينما طالبه شقيقه ياروسلاف (١٠١٩-١٠٥٤) امير نوفغورود بالتنحي عن العرش مما أدى إلى احتدام الصراع بينهما، وقد انتهى بتمكن الاخير من الحاق الهزيمة بـ سفياتوبولك – الذي هرب إلى الغرب ومات هناك – ولقب نفسه على عادة من سبقه في حكم كييف بـ " **الأمير الكبير** ". لكن سرعان ما نشب خلاف آخر بين ياروسلاف وشقيقه الخامس مستيسلاف (١٠١٥-١٠٣٦) بخصوص تقاسم السلطة وتمت تسويته بالاتفاق على منح الاخير مناطق نفوذ جديدة إلى الجنوب من نوفغورود ظل محتفظاً بها حتى وفاته عام ١٠٣٦، وبرحيله استعاد ياروسلاف تلك المناطق واخضعها لسطته في كييف [٣٧].

٢-٦. الأمير ياروسلاف الحكيم (١٠١٩-١٠٥٤)

امتاز ياروسلاف بالحكمة والحنكة السياسية والإدارية فلقب بـ " **الأمير الحكيم** "، إذ وصلت امارة كييف في عهده إلى درجة عالية من التقدم عن طريق تعزيز العلاقات الاقتصادية والسياسية مع القوى المجاورة كالعرب والبيزنطيين، وقد أولى ياروسلاف اهتماماً خاصاً بالمشاريع العمرانية لاسيما بناء المدارس والكنائس والأديرة حيث تجلت روائع الفن الروسي في تصميم وتنفيذ كاتدرائية (صوفيا) التي حظيت باهتمام خاص من لدن الأمير [٣٨].

ورغم الجهود التي بذلها ياروسلاف في مجال تقوية الإمارة الروسية لكنه واجه تحديات كبيرة من قبل القوى الطامعة بالتوسع على حساب الإمارة، إذ تمكن من الحاق الهزيمة بالجركس الذين تكررت غاراتهم في الأعوام (١٠٢١-١٠٢٣)، ونجح في التصدي لهجمات الفنلنديين عام ١٠٣٠، كما هزم البشناق وكبدهم خسائر كبيرة عام ١٠٣٦، وخاض معارك عنيفة ضد الفنلنديين الذين عاودوا الهجوم على الأراضي الروسية في عام ١٠٤١ والحق بهم خسائر فادحة بعدما طاردهم داخل الأراضي الفنلندية [٣٩].

تأزمت العلاقات الروسية – البيزنطية في نيسان ١٠٤٣ بسبب التشدد في اجراءات الكمارك والاقامة التي اصدرتها السلطات البيزنطية بحق التجار الروس مما أدى إلى مقتل أحدهم، الأمر الذي حفز اولئك التجار على مطالبة الأمير ياروسلاف بالتدخل والقصاص من قتلة زميلهم التاجر الروسي، ويبدو ان ياروسلاف كان يبحث عن فرصة لإثبات قوة امارته وتعزيز وجودها فاستجاب للطلب على أمل تحقيق هدفين أساسيين (الأول): التفاوض مع الجانب البيزنطي لمنح التجار الروس بعض الامتيازات والتسهيلات التجارية و(الثاني): المطالبة بدية التاجر القتيل باعتباره "**مواطن روسي**"، لذا قرر مهاجمة القسطنطينية فجهز حملة بحرية – برية تمكنت من احراز تقدم سريع واحتلت مضيق البسفور في العاشر من آب ١٠٤٣، وقد أثار ذلك الرعب لدى سكان القسطنطينية بعدما تلاشت المقاومة البيزنطية في منطقة المضائق، فاضطر الامبراطور البيزنطي إلى التصدي شخصياً للهجوم الروسي على رأس قوة بحرية تمكنت من دحر الهجوم وابعاد شبح الخطر عن العاصمة باستخدام ما يعرف بـ" النار الاغريقية "[٤٠].

وبعد مضي (٣) سنوات من التوتر في العلاقات الروسية – البيزنطية توصل الجانبان في آذار ١٠٤٦ إلى معاهدة ضُمنت بنودها الأسس العامة لتطبيع الصلح بين الدولتين، فضلاً عن موافقة الامبراطور على اقتران احدى الاميرات البيزنطيات بـ امير روسي[٤١].

وبهدف تعزيز مكانة إمارة كييف بين القوى الأوربية انتهج ياروسلاف سياسة المصاهرة مع الأسر الحاكمة في فرنسا وانكلترا والسويد والنرويج، اذ قرر تزويج ابنائه الثلاثة من أميرات بيزنطيات فيما زوج بناته الثلاثة من ملكي فرنسا والنرويج وأمير انكليزي، كما اقترن شخصيا بأميرة سويدية ووافق على زواج شقيقته من ملك بولندا[٤٢].

أولى ياروسلاف تنظيم الشأن الداخلي اهتماماً خاصاً إذ صدرت في عهده أول لائحة قانونية صيغت على غرار القانون البيزنطي وسميت بـ" **روسكايا برافدا**" التي تعني " **الحقوق الروسية** "، وتكمن أهمية هذه اللائحة في مسالتين (الأولى): مشاركة المؤسسة الدينية في إدارة الدولة حيث اسندت مهام تصريف الشؤون القانونية والإدارية إلى صفوة من

رجال الدين الارثذوكس، و(الثانية): اقرار نظام وراثة الحكم وحصرها في سلالة روريك بانتقال لقب " **الأمير العظيم** " إلى الأبناء البكر في هذه السلالة [٤٣].

وللحيلولة دون نشوء أي نزاع على زعامة السلطة سعى الأمير ياروسلاف وحتى وفاته عام ١٠٥٤ إلى تنظيم إدارة الإمارة تفاديا للأخطاء السابقة التي اضطرته للدخول في الصراع مع اخويه، إذ قرر اشراك ابنائه (ورثته) الستة في حكم الإمارة شريطة أن يكون الابناء الخمسة الصغار تحت سلطة الأخ الأكبر أمير كييف، وهكذا يتم تداول السلطة سلميا بانتقالها إلى الاصغر ثم الاصغر وذلك في حال حصول أي طارئ كالعجز بسبب المرض أو الوفاة مهما كانت اسبابها. وبموجب التقسيم الذي اوجده الأمير العظيم فقد آلت إمارة كييف إلى ابنه البكر (ازياسلاف) وتم اسناد إدارة المناطق الخاضعة للإمارة وفقاً لما يأتي[٤٤]:

- الأمير سفياتوسلاف (الأجزاء الشمالية الشرقية).
- الأمير برسيلاف (الأجزاء الجنوبية).
- الأمير فيجيسلاف (مقاطعة سوزدال).
- الأمير ايجور(مقاطعة سمولينسك).
- الأمير فلاديمير فولتسكي (بعض المقاطعات في الأجزاء الغربية).

ويبدو ان ما خطط له ياروسلاف لم يصمد طويلاً أمام نزعة الانفراد بالسلطة، فبوفاة الاخوين ايجور وفلاديمير تفاقمت حدة الصراع بين الأمير ازياسلاف وابن اخيه فلاديمير المدعو (فيزسلاف) الذي حظي بدعم ومساندة سكان المقاطعات الغربية إذ اختاروه حاكماً عليهم بعدما نجحوا في اطلاق سراحه من السجن في تشرين الثاني ١٠٦٨، وقد اغتنم فيزسلاف هذه الفرصة وقام بمهاجمة عمه ازياسلاف في قلعته بـ كييف مما اضطر الأخير إلى الهرب باتجاه الحدود مع بولندا، مستنجداً بملكها الذي قدم له الدعم العسكري واعاده إلى عرش كييف تحت حماية عسكرية بولندية في منتصف شباط ١٠٦٩ شريطة عدم الانتقام من الذين تمردوا ضده والعفو عنهم[٤٥].

نحن وبعد أن استتب الموقف لصالحه نكث ازياسلاف وعده وقرر معاقبة سكان المقاطعات الغربية ومن ساندهم في المدن الأخرى، فأصدر أوامره بزج أعداد كبيرة في السجون اضافة إلى تشكيل خلايا سرية للاغتيالات اختصت بتصفية العناصر المناوئة، وقد أثارت هذه السياسة استياء ونقمة الروس الذين ثاروا ضده في آب ١٠٧٠ وأجبروه وحاشيته على الفرار إلى بولندا، ورغم جهوده الحثيثة في الحصول على دعم عسكري (بولندي أو بيزنطي) يمكّنه من القضاء على التمرد واستعادة السلطة إلاّ أن مساعي ازياسلاف باءت بالفشل ولم يجد من يناصره، وظل متنقلاً ما بين هولندا والقسطنطينية حتى وافته المنية في صيف عام ١٠٨٧[٤٦].

شهدت البلاد الروسية في المدة (١٠٨٧-١١١٣) موجة من الاضطرابات وعدم الاستقرار الداخلي بسبب الصراع على السلطة ما بين الأمير فيزسلاف والطامعين بالعرش الروسي، بيد أن وفاة الأمير المفاجئة عام ١١١٣ دفعت الروس إلى الطلب من البابا لإقناع حفيد ياروسلاف المدعو (فلاديمير مونوماخ) بتولي السلطة ووضع نهاية للصراعات والانقسامات التي زعزعت الأمن والاستقرار في عموم البلاد الروسية[٤٧].

٢-٧ .الأمير فلاديمير مونوماخ (١١١٣- ١١٢٥)

أطلق عليه لقب "مونوماخ" نسبة إلى أمه (ماريا مونوماخ) ابنة الإمبراطور البيزنطي قسطنطين التاسع، كان رجل دولة وقائد عسكري وكاتب ومفكر، شارك في التصدي لغزوات اقوام البولوڤتسي الرُّحل على أراضي (تشيرنيغوف) الروسية وكذلك هجمات الأتراك التي حدثت في المدة (١٠٩٠- ١٠٩٣)، أصدر مونوماخ ما يعرف بـ " **ميثاق فلاديمير** " وهو في الحقيقة مجموعة قوانين كانت تهدف إلى تنظيم الاقتصاد من خلال تشريعات الضرائب والكمارك، كما سعى جاهداً لاحتواء الخلافات الداخلية بسبب التنافس على النفوذ والسلطة وأجرى تغييرات في إدارة مفاصل الإمارة بتعيينه أشخاصاً يثق بهم للقضاء على مظاهر الفوضى التي كانت تعم البلاد الروسية لكن مشروعه هذا لم يكتمل بسبب وفاته عام ١١٢٥[٤٨].

٢-٨ . الأمير مستيسلاف الأول (١١٢٥-١١٣٢)

قرر فلاديمير مونوماخ عام ١١١٧ اسناد إدارة الاراضي الروسية إلى أبنائه الاربعة طبقا للتقسم الآتي[٤٩]:

- مستيسلاف : امارة نوفغورد والطريق التجاري الرابط ما بين البلاد الروسية واليونان.
- فياجسلاف: سمولينسك وروستوف.
- يوري: اقليم سوزدال.
- اندريه: اقليم خولين.

ولكن الصراع بين الأشقاء الأربعة سرعان ما احتدم اثر وفاة مونوماخ بسبب عرش كييف والذي انتهى بسيطرة ميتسلاف على السلطة بعد أن اقصى اشقائه واستولى على مناطق نفوذهم بما فيها المناطق القريبة من البلطيق، لقبه الروس "**الأمير الأكبر**" إذ انتهج سياسة داخلية استطاع من خلالها القضاء على مظاهر الفوضى واجبار خصومه ومعارضيه على الهرب إلى القسطنطينية، أما على صعيد العلاقات الخارجية فانه تصدى لهجمات قبائل (البولوڤتس) وطاردهم إلى ما وراء نهري الدون والفولغا، كما اعتقد بضرورة تعميق الروابط مع القوى المجاورة عن طريق "**المصاهرة السياسية**"، فزوج ابنته (يفييراكسيا) إلى الإمبراطور البيزنطي (اليكسي كومنين)، وقبيل وفاته عام ١١٣٢ قام بتزويج ابنته الثانية (انجورغا) إلى أحد أمراء الدنمارك[٥٠].

٢-٩: الأمير ياروبولك الثاني (١١٣٢-١١٣٩)

ولد في مقاطعة (تشرنيغوف) عام ١٠٨٢ وتزوج من أميرة بولوڤتسية كانت قد وقعت في الأسر عام ١١٠٦، حكم مدينة (بريسلاف) وشارك في الحملات العسكرية ضد قبيلة البولوفتسي، اتسم حكمه بالاضطرابات بسبب ضعف الإدارة وازدياد الخصوم الطامعين في السلطة، ولم يتمكن من مواجهة التمرد الخطير الذي قاده أمير دوقية تشرنيغوف (فسغولود الثاني) وأُضطر إلى التنازل عن عرش كييف عام ١١٣٩ [٥١].

هو ابن الأمير أوليغ سفياتوسلاف، شارك في القتال ضد قبيلة البولوڤتسي عام ١١١٢، وفي عام ١١٢٧ تمكن من الاستيلاء على مدينة تشرنيغوف بعدما أجبر عمه ياروسلاف على التنازل عن السلطة لصالحه، ولم تكن طموحاته السياسية قد توقفت عند سيطرته على هذه المدينة حسب انما قاد تمرداً عسكرياً اسفرت نتائجه عن وصوله إلى السلطة العليا في كييف واقصاء ياروبولك الثاني عن العرش عام ١١٣٩، ولعل من أبرز انجازاته العسكرية هو خوض الحرب ضد ملك بولندا (بوليسلاف الرابع) واجباره على التنازل عن مدينة (فيزنا) وضمها للأراضي الروسية عام ١١٤٥، توفي عام ١١٤٦ أثر اصابته بجروح خطيرة في حملته الثانية على بولندا ودفن في (كنيسة القديسين بوريس وغليب) بكييف[٥٢].

٢ـ١١. الأمير ازياسلاف الثاني (١١٤٦ـ١١٥٥)

الابن الأكبر للأمير مستيسلاف الأول ولد عام ١٠٩٧ في كييف، وصفه الروس بـ " **الحاكم الشجاع** " وذلك للشجاعة التي أبداها في تصديه لمعارضيه من انصار فسغولود الثاني ومطاردتهم خارج حدود الإمارة، أما على صعيد الصراع مع بولندا فقد تمكنت قواته من دحر الجيش البولندي الذي حاول استعادة مدينة (فيزنا) في آب ١١٥٥ وأسر عدد كبير من افراده، لكن وبعد مضي شهرين فقط تمت تصفيته على يد أحد خصومه من أبناء فلاديمير مونوماخ [٥٣].

٢ـ١٢. الأمير يوري الأول (١١٥٥ـ١١٥٧)

ولد عام ١٠٩١ وتولى حكم (امارة سوزدال) بأمر من والده فلاديمير مونوماخ عام ١١٢٣، وقد استولى على مدينة كييف عام ١١٤٩ بعد تمكنه من دحر جيش ازياسلاف الثاني غير ان الأخير نجح في طرده من المدينة عام ١١٥٢، تجسدت طموحاته في التخطيط للاستيلاء على عرش كييف وتحقق له ذلك حينما تمكن من القضاء على خصمه ازياسلاف عام ١١٥٥، فاطلق عليه الروس لقب " **ذو اليد الطولى** "، تعبيراً عن مطامعه

بعيدة الأجل فضلاً عن الشجاعة والدهاء، ترك يوري الأول بصمة واضحة في التاريخ الروسي بإنشائه لـ " **قلعة موسكو**" عام ١١٤٧ والتي " **أصبحت نواة لمدينة موسكو الكبرى فيما بعد حيث الموقع المتميز الذي تمر فيه طرق التجارة التي تربط ما بين الاقاليم والمقاطعات الروسية** " (٥٤).

٢ـ١٣: الأمير المعظم اندريه بوغوليوبسكي (١١٥٧ـ١١٧٤)

اعتلى عرش امارة كييف بعد وفاة والده يوري الأول عام ١١٥٧ ولكنه ما لبث ان انتقل إلى مدينة فلاديمير بإمارة سوزدال في شمال شرق روسيا ومنح نفسه لقب "**الأمير المعظم**"، وبذلك خرج عن القاعدة المتبعة في نظام وراثة الحكم التي كانت تقتصر على البقاء في كييف لنيل هذا اللقب، قام عام ١١٥٩ بنقل ايقونة مريم العذراء المسماة "**فيشغورودسكيا**"، وهي بمثابة رمز لسلطة امراء كييف إلى مدينة فلاديمير التي تحولت اثر ذلك إلى عاصمة لروسيا القديمة، ثم أمر بإطلاق تسمية جديدة على تلك الايقونة لتعرف بـ "**فلاديمير سكايا** ". سعى اندريه لمحاولة تقسيم الكنيسة الأرثذوكسية الروسية إلى مطرانيتين في كييف وفلاديمير الاّ ان بطريرك القسطنطينية رفض ذلك، كما انتهج سياسة كانت تهدف إلى اخضاع الاقاليم المهمة ولاسيما نوفغورود إلى حكمه المباشر. قاد حملة عسكرية ضد بلغار الفولغا عام ١١٦٤ وأجبرهم على دفع الأموال، وقبيل وفاته قرر انشاء بوابة ذهبية في فلاديمير على غرار البوابتين الذهبيتين في كل من القسطنطينية وكييف، تم اغتياله من قبل جماعة متمردة في مقره بقلعة (بوغوليوبوفو)، في التاسع والعشرين من حزيران ١١٧٤، وجرى دفنه في كاتدرائية "**صعود العذراء**" في مدينة فلاديمير وذلك بعد ان قرر قادة الكنيسة الأرثذوكسية اثناء مراسيم الدفن منحه لقب "**قديس**"، خلفه اخوه فلاديمير (الأول) في المدة (١١٧٤-١١٧٦) ولكن لم يرد في المصادر القديمة تفاصيل عنه(٥٥).

٢ـ١٤: الأمير فسغولود الثالث (١١٧٦ـ١٢١٢)

ابن الأمير يوري دولغوروكي من ام بيزنطية والأخ غير الشقيق لـ(اندريه بوغوليوبسكي)، لقبه الروس بـ " العش الكبير " كونه رزق بـ(١٢) من الأبناء، امتازت

علاقته بأخيه اندريه بالتوتر مما دفع الاخير إلى طرده وامه من الأراضي الروسية فلجأ إلى بيزنطة وطلب الحماية من الامبراطور (مانوئيل)، شارك فسغولود في الحملة البيزنطية على إمارة كييف عام ١١٦٩ ثم اعتلى عرشها بدعم بيزنطي عام ١١٧٣ ولكنه وقع أسيراً أثناء الحملة التي قادها أمراء سمولنسك عام ١١٧٤، وفي العام التالي تم تحريره من الأسر بفضل جهود الوساطة التي قام بها الامبراطور إثر " **التحسن النسبي** " في العلاقات الروسية – البيزنطية، تولى فسغولود حكم مدينة فلاديمير بعد وفاة أخيه (فلاديمير الأول) عام ١١٧٦، وشهدت امارة (فلاديمير – سوزدال) في عهده ازدهاراً ملحوظاً حيث تمكن من اخضاع (امارة ريازان) وفرض سيطرته على نوفغورود وكييف وتشيرنيغوف فضلاً عن أجزاء واسعة أخرى من الاراضي الروسية، وورد في المصادر القديمة أنه أمر بتشييد قلعة محصنة في وسط فلاديمير إلى جانب كاتدرائيتي (الميلاد وديمتروف) فاتخذها مقراً له حتى وفاته المفاجئة في ربيع عام ١٢١٢ (٥٦).

٢ـ١٥: الأمير يوري الثاني (١٢١٢ـ١٢١٦/١٢١٨ـ١٢٣٨)

ابن الأمير فسغولود الثالث من أم تشيكية تولى الحكم في فلاديمير بناء على وصية والده، الا أنه أُضطر إلى التنازل عن السلطة لصالح أخيه الأكبر (قسطنطين) عام ١٢١٦ حسماً للصراع القائم بينهما بسبب اصرار الاخير على احقيته في اعتلاء العرش، ثم عاد ثانية وتولى زمام الحكم في ايلول ١٢١٨ " **بعد الإعلان عن وفاة قسطنطين المفاجئة** ". لقد أثار موت قسطنطين المفاجئ الشكوك لدى انصاره الذين اعتقدوا بأن " **الضحية مات مسموما بفعل مؤامرة دنيئة** "، وبذلك استمرت الصراعات الداخلية مدة (٢٠) عام من حكم يوري الثاني الذي قتل في معركة " **نهر سيستي** " اثر قيام المغول بمهاجمة الاراضي الروسية عام ١٢٣٨ (٥٧).

٢ـ١٦: الأمير ياروسلاف الثاني (١٢٣٨ـ١٢٤٦)

الابن الثالث لـ الأمير فسغولود الثالث وقد تولى الحكم في فلاديمير أثر سقوط الأجزاء الشمالية الشرقية من الأراضي الروسية بأيدي المغول، إذ تم استدعاؤه من قبل زعيم

القبيلة الذهبية (باتوخان) فاسند اليه السلطة في كييف وفلاديمير حيث اتخذ ياروسلاف من المدينة الأخيرة مقراً رسمياً له، وأشارت الروايات الروسية القديمة إلى أن ياروسلاف الثاني لقي حتفه مسموماً في الثلاثين من ايلول ١٢٤٦ وذلك بعد عودته من زيارة قام بها إلى العاصمة المغولية بمناسبة تتويج الخان (غيوك) على العرش المغولي [٥٨].

٢ـ١٧: الأمير سفياتوسلاف الثالث (١٢٤٦ـ١٢٤٨)

وهو الابن الرابع لـ فسغولود الثالث أسند اليه والده إمارة نوفغورود ولم يبلغ من العمر سوى (٤) سنوات، وبعد وفاة أبيه عام ١٢١٢ قام بالاستيلاء على مدينة (يوربيف – بولسكي) وضمها إلى حكمه، شارك في معركة "**نهر سيستي**" التي قتل فيها شقيقه يوري الثاني عام ١١٣٨ فأثبت فيها شجاعة فائقة " **كقائد عسكري محترف**"، كان اخوه الاكبر ياروسلاف الثاني قد فوضه حكم إمارة سوزدال وبعد وفاة الأخير، واستناداً لـ " حق الوراثة " اعتلى العرش في فلاديمير ولكنه جوبه بمعارضة قوية من قبل ابن اخيه الأمير (اندريه) الذي نجح عام ١٢٤٨ في اقصائه عن حكم فلاديمير وحصر صلاحياته كأمير في مدينة (يوربيف– بولسكي). ورغم المحاولات التي بذلها سفياتوسلاف بالتقرب إلى قادة الأورطة الذهبية للحصول على دعمهم بالعودة إلى السلطة في فلاديمير الآ أنه لم يحظ بتأييد المغول، توفي عام ١٢٥٣ ودفن في كاتدرائية القديس (جارجيوس) في مدينة يوربيف – بولسكي [٥٩].

٢ـ١٨: الأمير اندريه الثاني (١٢٤٨ـ١٢٥٢)

الأمير ميخائيل بن ياروسلاف الثاني والملقب بـ(اندريه) تقاسم السلطة مطلع عام ١٢٤٩مع أخيه (الكسندر نيفيسكي) بقرار من خان الاورطة الذهبية، ولكنه سرعان ما رفض الانصياع للأوامر المغولية وامتنع عن دفع الاتاوات معلنا تمكسه بوحدة الاراضي الروسية وعدم التسليم بالتبعية للمغول، وقد أثار موقفه هذا غضب الخان المغولي الذي سارع إلى ارسال حملة عسكرية لغزو سوزدال والقبض على اندريه مما اضطر الأخير للفرار إلى السويد. وبسبب العلاقات الطيبة التي كانت تربط ما بين الكسندر وقادة المغول تمت

الموافقة على عودته إلى بلاده شرط ان لا تتعدى سلطته حدود مدينة سوزدال حيث بقي فيها حتى وفاته عام ١٢٥٢[٦٠].

٢ـ١٩: الأمير الكسندر نيفيسكي (١٢٤٩ـ١٢٦٣)

رجل دولة " **سياسي ومحارب** " ولد عام ١٢٢٠ في مدينة (بيرياسلاف) وهو الابن الثاني لـ ياروسلاف فسغولود، وفي سن مبكر وجد نفسه منخرطاً في أحداث سياسية مضطربة كانت تحدق بإمارة نوفغورود احدى كبريات مدن روسيا في القرون الوسطى. لقد تزامن وصوله إلى الحكم مع امتداد التوسع المغولي في الاراضي الروسية، ورغم ان جيوش (باتوخان) لم تصل إلى نوفغورود الآ ان مدنا مهمة طالها التدمير والخراب مثل فلاديمير وسوزدال وريازان[٦١].

قرر الكسندر اعتماد سياسة التهدئة في العلاقة مع المغول لاعتقاده ان الخطر الاكبر الذي يمكن ان تتعرض له نوفغورود سيكون مصدره القوى المجاورة لروسيا من جهتي الغرب والشمال وهي[٦٢]:

أولاً– ليتوانيا التي صعّدت هجماتها ضد الاراضي الروسية منذ مطلع القرن الثالث عشر، لذا وجّه الكسندر اهتمامه لتحصين الحدود الجنوبية الغربية وتأمين حمايتها لصد هجمات الليتوانيين والحيلولة دون اختراقهم لأراضي روسيا، كما عقد حلفاً مع (ياتسلاف) أمير (بولوتسك) نص على التعاون العسكري "**لمواجهة أي اعتداء ليتواني** ".

ثانياً– الفرسان الصليبيين الالمان وهم من الأخوية الليفونية " **أخوة السيف** " التي اتحدت في سنة ١٢٣٧ مع الأخوية التيتونية.

ثالثاً– السويد التي تمثل التحدي الخطير من جهة الشمال حيث قامت القوات السويدية بمهاجمة نوفغورود في مايس ١٢٤٠.

كان التحدي السويدي بمثابة امتحان جاد وحقيقي للأمير نيفيسكي إذ أدرك خطورة المخطط السويدي الرامي إلى احتلال مناطق مهمة لاسيما مدينتي لادوغا

ونوفغورود، وبلغ التحدي ذروته حينما أرسل أمير السويد (بيرغر) مبعوثاً شخصياً عنه إلى الأمير الروسي محذراً اياه بقوله " **ان استطعت فقاوم ... انا هنا الآن وسوف احتل أرضك** " (٦٣).

وحسبما ورد في " المدونة التاريخية لـ نوفغورود " فأن نيفيسكي وحال تلقيه خبر توغل الجيش السويدي في الاراضي الروسية توجه إلى " **كنيسة الحكمة المقدسة** " في نوفغورود وصلى طويلاً ثم قال عبارته **الشهيرة** " **... الله ليس مع القوة ولكنه مع الحق... هؤلاء بالسلاح وهؤلاء بالخيل ... وأما نحن فباسم الرب الهنا ندعو** ". وفي الثالث عشر من تموز ١٢٤٠ قاد نيفيسكي هجوماً مباغتاً صاعقاً ضد القوات السويدية التي تحشدت بالقرب من نهر (نيڤا) وأوقع في صفوفها خسائر كبيرة حيث جاء في المدونة " **وسقط منهم الكثير الكثير .. ملأوا سفينتين من جثث افضل المحاربين وأبحروا أمامهم بالبحر ... وأما القتلى الباقين فحفروا لهم حفرة كبيرة وألقوهم فيها بلا عدد** "(٦٤).

أفرزت معركة نيڤا نتائج مهمة على الصعيدين الحربي والسياسي، فعلى الصعيد الحربي أو العسكري أظهرت قدرة الروس على حماية حدود بلادهم في الجهات الشمالية الغربية وذلك رغم التواجد المغولي في الأقسام الشرقية، كما أجبرت السويديين على التراجع بعد الخسائر الكبيرة التي تكبدوها في هذه المعركة. أما على الصعيد السياسي فقد برزت شخصية الكسندر كحاكم قوي " **وعلى شرف هذا النصر ومن اسم النهر نيڤا أخذ لقبه الشهير نيفيسكي** " (٦٥).

وبعد عودته إلى نوفغورود ظافراً حصل خلاف بين الكسندر وعدد من نبلاء المدينة بخصوص ملكيات الأراضي الزراعية، فقرر مغادرتها إلى فلاديمير بصحبة والدته وزوجته ومجموعة من أنصاره وحاشيته للمكوث مؤقتا في قصر والده يورسلاف تجنبا للصدام مع اولئك النبلاء، ولكن تطوراً خطيراً حصل في تشرين الثاني ١٢٤٠ حينما تمكن الفرسان

الصليبيون الذين تحالفوا مع الأستونيين من احتياز الحدود الروسية الغربية واحتلوا مدينة (بسكوف) فيما هاجم الألمان أراضٍ تابعة لإمارة نوفغورود، وإزاء هذه التحديات ناشد أهالي نوفغورود الأمير ياروسلاف لإقناع الكسندر بالعدول عن رأيه والعودة السريعة لمواجهة الأعداء، فاستجاب الأخير وشرع في كانون الثاني ١٢٤١ باستعادة الاراضي المحتلة ومنها قلعة (كويزيه) التي سقطت بأيدي الفرسان الصليبيين(٦٦)، وأوضحت احدى الدراسات " **ان الهزيمة المنكرة التي مُني بها الفرسان والاستونيين في معركة بسكوف كانت نتيجة التخطيط والاعداد الدقيق الذي أشرف عليه الكسندر شخصياً، وهذا الانجاز قد سهل عليه مهمة طرد الالمان من محيط نوفغورود اذ زحف برتلين الاول بقيادته فيما اسند قيادة الرتل الثاني إلى أخيه الامير اندريه انطلاقاً من سوزدال** " (٦٧).

ساهمت هذه النجاحات العسكرية في ازدياد معنويات الروس وحفزتهم على الاندفاع نحو استونيا لتأمين حدودهم الشمالية الغربية، ففي الخامس من نيسان ١٢٤٢ دارت رحى معركة فوق جليد بحيرة (باييسي) والمعروفة تاريخياً بـ" **معركة الجليد**"، حيث تصدى الاستونيون وبدعم من الألمان للجيش الروسي واخترقوا صفوفه على شكل "**أسفين**" الآّ ان اجنحة الجيش اطبقت على القوات المهاجمة ودمرتها بالكامل حسبما ورد في المصادر القديمة، وكان من ابرز النتائج التي تمخضت عنها هذه المعركة هي وقف الاعتداءات الصليبية وتأمين الحدود الشمالية الغربية لروسيا، ولم يكتف الكسندر بهزيمة الاستونيين وحلفائهم الألمان انما واصل الزحف باتجاه ليتوانيا فالحق بـ الليتوانيين خسائر جسيمة في عدد من المعارك التي دارت رحاها في المدة (حزيران – ايلول ١٢٤٢)، وبذلك توقفت الهجمات الليتوانية لبعض الوقت(٦٨).

اعتقد الكسندر ان تعدد مصادر الخطر على بلاده كانت تتطلب اللجوء إلى سياسة احتواء الخصوم، لذا وفي المدة (١٢٤٨-١٢٦٢) قام بعدد من الزيارات إلى القبيلة الذهبية وتفاهم مع قادتها لتلافي اية هجمات مغولية جديدة مقابل دفع اتاوة كبيرة، ومما يجدر ذكره ان بابا روما (اينوكنديوس الرابع) لما علم بالزيارة الاولى التي قام بها الكسندر

للعاصمة المغولية في مايس ١٢٤٨ اقترح على الأخير قيام تحالف "**بابوي – روسي**" ضد المغول شرط قبول الأمير بفكرة الوحدة الكنسية "**تحت لواء الكرسي البابوي**" (٦٩)، لكن الكسندر وخلال لقائه رسل البابا رفض هذا الشرط بصورة قاطعة وحملهم رسالة إلى البابا اينوكنديوس ورد فيها: "**منذ آدم إلى الطوفان، ومن الطوفان إلى بلبلة الألسن، ومن بلبلة الألسن إلى ابراهيم، ومن عبور اسرائيل البحر الأحمر، ومنذ خروج الاسرائيليين إلى موت الملك داود، ومنذ بداية ملك سليمان إلى اغسطس قيصر، ومنذ اغسطس قيصر إلى ميلاد المسيح، ومنذ ميلاد المسيح إلى الأم وقيام الرب، ومنذ قيام الرب إلى صعوده للسماوات، ومنذ الصعود إلى السماوات إلى مُلك قسطنطين، ومنذ بداية تملك قسطنطين إلى المجمع الأول، ومنذ المجمع الأول إلى المجمع السابع، كل هذا نعلمه جيداً أما منكم فلا نقبل تعليما**" (٧٠).

وأشارت إحدى الدراسات إلى "**ان الأمير في جوابه هذا وفي عدم رغبته مناقشة الرسل اللاتين قد ابرز خيارين أحدهما ديني والآخر سياسي، كان الأمير الكسندر مدركاً تماماً بأن الغرب لا يقدر ان يساعد روسيا في التحرر من نير التتار، أما محاربة التتار كما دعا اليها الكرسي البابوي فكان من المحتمل ان تكون كارثية لروسيا، كما لم يكن الكسندر مستعداً للدخول في وحدة مع روما وهذا بالذات كان شرطاً ضرورياً للتحالف، هكذا اختار الأمير لنفسه طريقاً آخر وهو رفض كل تعاون مع الغرب**" (٧١).

عاود الألمان هجومهم على مدينة بسكوف مرة أخرى في صيف عام ١٢٥٣ ولكنهم جوبهوا بمقاومة عنيفة من قبل الروس حيث تمكنت قوات الكسندر من إبادة المجاميع الألمانية عند مشارف المدينة، وفي عام ١٢٥٦ قرر الأمير الروسي مهاجمة فنلندا طبقا لحسابات ستراتيجية تأتي في مقدمتها ترسيخ أقدام الروس في مناطق ساحل بحر البلطيق ونشر الثقافة الارثذوكسية فيها، وقد ورد ذكر حملة الكسندر هذه في المصادر

القديمة باسم " **الحملة المظلمة** " ذلك أن القوات الروسية "**تحركت عبر الليل القطبي وتنقلت في مناطق وعرة دون ان ترى ليلاً أو نهاراً**"(٧٢).

وفي سنوات حكمه الأخيرة تبنى الكسندر مشروعاً طموحاً " **لتنصير الشرق الوثني** " بعد أن تكللت جهوده بالنجاح في تأسيس أبرشية ارثذوكسية في (ساراي) عاصمة القبيلة الذهبية، الاّ ان هذا المشروع لم يكتمل بسبب اصابته بمرض خطير في طريق عودته من زيارته الرابعة للعاصمة التترية ادى إلى وفاته المفاجئة في الرابع عشر من تشرين الثاني ١٢٦٣ وتم دفنه في دير (غوروديتس)(٧٣).

٢ـ٢٠: الأمير ياروسلاف الثالث (١٢٦٤ـ١٢٧٢)

ابن الأمير ياروسلاف الثاني ولد في مدينة برياسلاف عام ١٢٣٠، انحاز إلى جانب اندريه في الصراع الذي حصل بين الأخير والكسندر نيفيسكي عام ١٢٤٩، تولى عام ١٢٥٣ الحكم في بسكوف ثم نوفغورود لكنه تخلى عن السلطة في نفغورود خشية من انتقام الكسندر، شارك عام ١٢٦٢ مع ابن عمه ديمتري في الحرب ضد الليفونيين التي اسفرت عن استيلاء الروس على قلعة (ديريت)، اعتلى عرش فلاديمير مطلع عام ١٢٦٤ بعد وفاة الكسندر، وفي عام ١٢٦٦ تزوج من (كيسينيا) ابنة أحد كبار الموظفين في بلاط نوفغورود، توفي في السادس عشر من أيلول ١٢٧٢ في طريق العودة من زيارة قام بها إلى القبيلة الذهبية مما أثار الشكوك لدى الروس في إمكانية تورط المغول بحادثة الوفاة لاسيما وان سلفه الكسندر قد لقي حتفه بالطريقة ذاتها(٧٤).

٢ـ٢١: الأمير فاسيلي ياروسلاف (١٢٧٢ـ١٢٧٦)

ابن الأمير ياروسلاف فسغولود ولد في مدينة فلاديمير عام ١٢٤١، ورث الحكم في مدينة (كوستروما) بناء على وصية عمه الأمير المعظم سفياتوسلاف، وبعد وفاة أخيه ياروسلاف الثالث اعتلى عرش فلاديمير عام ١٢٧٢ وتمكن من اخضاع نوفغورود إلى حكمه، توفي عام ١٢٧٦ ودفن في كنيسة "**القديس فيودور**" بمدينة كوستروما، هذا وقد توالى على حكم فلاديمير بعد وفاته ثلاث أُمراء — لم تذكر المدونات القديمة معلومات

عـنهم – في المـدة (١٢٧٧– ١٣١٨) حيـث اتسـمت سـنوات حكمهـم بالصـراعات الداخلية وانعدام الأمن في عموم البلاد الروسية وهم [٧٥]:

- ديمتري بيرويسلاف (١٢٧٧–١٢٩٣).
- اندريه غوروتيس الثالث (١٢٩٣–١٣٠٤).
- ميخائيل الثالث (١٣٠٤–١٣١٨).

٢ـ٢٢: الأمير يوري الثالث (١٣١٨ـ ١٣٢٢)

الابن الأكبر لأمير موسكو دانيال الكسندر وقد حصل على دعم خان القبيلة الذهبية ونجح في إزاحة منافسيه عن عرش إمارة فلاديمير، ففي عام ١٣١٥ تمكن من قتل (قسطنطين) أمير مقاطعة ريزان، وفي العام التالي شكل تحالفاً مع أمير نوفغورود ضد ميخائيل الثالث ثم خطط لمؤامرة اسفرت عن إعدام الأخير بعد محاكمة صورية واستولى على السلطة عام ١٣١٨. ورغم التحديات الداخلية التي واجهها يوري لكنه تمكن من هزيمة القوات السويدية التي هاجمت الأراضي الروسية عام ١٣٢١ وأجبر السويديين على توقيع معاهدة (واوريخوف)، بيد أنه دفع حياته ثمناً لهذا الانجاز العسكري حيث تم اغتياله على يد أحد أبناء ميخائيل الثالث انتقاماً لوالده بتحريض ودعم من الحكومة السويدية عام ١٣٢٢ [٧٦].

٢ـ٢٣: الأمير ديمتري ذو العيون الرهيبة (١٣٢٢ـ١٣٢٦)

ابن الأمير ميخائيل الثالث خاض صراعاً عنيفاً ضد قاتل ولده ولم يهدأ له بال حتى نال من يوري الثالث فقتله، ونظراً لعلاقة الصداقة التي كانت تربط ما بين يوري والخان المغولي (أوزبج) فقد واجه ديمتري تهمة القتل فاعتقل وتم اعدامه في مايس ١٣٢٦ بناء على أمر أصدره الخان وجرى دفنه في كاتدرائية (ساراي)، وشهدت البلاد الروسية بعد إعدام ديمتري موجة عنيفة من الاضطرابات بسبب الصراع على السلطة، ولم يحسم هذا الصراع الآ بسيطرة (ايڤان كاليتا الأول)على عرش كييف عام ١٣٢٨ [٧٧].

وهو الابن الثاني لأمير موسكو دانيال الكسندر وقد ورث عرش موسكو بعد مقتل شقيقه يوري الثالث، كان طموحه الحصول على لقب " **الأمير المعظم** "، تولى عرش فلاديمير عن طريق اظهار الولاء للقبيلة الذهبية بعد إعدام ديمتري ذو العيون الرهيبة، وتحقق له ذلك بفضل الدعم الذي تلقاه من الخان المغولي ومساندته في القضاء على منافسيه، أصيب بمرض خطير أدى إلى وفاته في خريف عام ١٣٤٠ وخلفه ابنه صغير السن (سيمون)، ولكن إدارة الحكم الفعلية كانت في الواقع تحت اشراف اخيه (ايفان الثاني) الذي أقدم عام١٣٥٣ على عزل ابن اخيه سيمون واعتلاء عرش روسيا حتى مقتله عام ١٣٥٩[٧٨].

٢-٢٥: الأمير ديمتري دونسكوي الأحمر (١٣٥٩-١٣٨٩)

ابن الأمير ايڤان الثاني اعتلى العرش بعد مقتل والده وسعى جاهداً لتوحيد الأقاليم الروسية تحت زعامة موسكو، لذا خاض صراعاً طويلاً ضد منافسيه في امارات (سوزدال، تڤير، ريزان، ونوفغورود)، وتمكن من اخضاع امارة فلاديمير إلى حكمه بعدما تغلب على خصومه لاسيما في امارتي نوفغورود وتڤير، اما على صعيد الصراع مع المغول فانه استطاع الحاق الهزيمة بهم في معركة "**كوليكوفو**" قرب نهر الدون في الثامن من أيلول ١٣٨٠، وقد اظهر شجاعة فائقة في قيادته للمعركة فاطلق عليه الروس لقب "**دونسكوي**"، بيد أن المغول عاودوا الهجوم مرة اخرى عام ١٣٨٢ ونجحوا في اقتحام موسكو فأحرقوا المدينة وقتلوا نحو (١٤) ألف من سكانها، أولى ديمتري دونسكوي اهتماماً كبيراً بالمشاريع العامة ولعل من أبرز الانجازات المعمارية التي خلدها التاريخ الروسي هو تشييده لقصر "**الكرملين**"، توفي عام ١٣٨٩ ودفن في كاتدرائية "**ارخانغيلسك**" بموسكو وأعقبه في الحكم ابنه ڤاسيلي الأول[٧٩].

٢ـ٢٦: الأمير ڤـاسيلي الأول (١٣٨٩ـ١٤٢٥)

رجل دولة محنك ومحارب من الطراز الأول برز دوره العسكري في معركة "كوليكوا" أو "**حقل صيد الأعداء**" ضد الجيش التتري بقيادة الخان (ماماي) الذي حاول اجتياح إمارة موسكو عام ١٣٨٠، كما اظهر شجاعة فائقة في تصديه للهجوم التتري الثاني على الإمارة بقيادة الخان (كوقتامش) عام ١٣٨٢ [٨٠] اعتقد ڤاسيلي "**ان الرضوخ لإرادة التتار لا ينبغي ان تستمر كونها تمس السيادة ولا تصب في مصلحة الروس**" لذا خالف قاعدة التبعية التي انتهجها والده واعتلى عرش فلاديمير دون طلب الاذن من الخان المغولي، كما امتنع لسنوات عن ارسال الاتاوة مما اغاض قادة المغول واساء للعلاقة معهم، توفي عام ١٤٢٥ وخلفه ابنه (ڤاسيلي الثاني)[٨١].

٢ـ٢٧: الأمير ڤـاسيلي الثاني (١٤٢٥ـ١٤٦٢)

الابن البكر لـ ڤاسيلي الأول من زوجته الليتوانية (صوفيا) اعتلى عرش موسكو ولم يتجاوز عمره (١٠) سنوات، شهدت مدة حكمه صراعاً عنيفاً على السلطة دام نحو (٢٠) عام بسبب نقض ڤاسيلي الأول لوصية والده ديمتري دونسكوي الذي " **أوصى بالحكم من بعده إلى فاسيلي الأول ومن بعد ڤاسيلي إلى اخيه يوري، وعند وفاة ديمتري اعتلى ڤاسيلي (الأول) كرسي الامارة (١٣٨٩-١٤٥٢) ولم يكن قد تزوج بعد، ولما تزوج أصبح لديه ابناء ذكور، الأمر الذي جعله ينقض وصية والده ونقل بوصية جديدة الحكم إلى ابنه فاسيلي الثاني مما قاد إلى احتدام الصراع بين يوري وابن اخيه فاسيلي الأول، وبعد موت يوري خلفه (ولديه) كروسي وشيمياكا** " [٨٢]، وبسبب ذلك الصراع فقد ڤاسيلي الثاني السلطة في موسكو اكثر من مرة في الأعوام (١٤٢٨، ١٤٣٤، ١٤٤١)، الاّ أنه كان يستعيدها بعدما يستجمع قواه ويتغلب على خصومه. وفي عام ١٢٤٦ حاك شيمياكا مؤامرة بالتنسيق مع عدد من موظفي البلاط وتمكن من اسر الأمير ڤاسيلي وسمل عينيه واحتجازه في قلعة مدينة (أوغليتش)، ولكن الكنيسة ادانت هذه

... التسليم بشرعية الأمير الشرعي فتم اطلاق سراحه بتدخل من قادة الارثذوكسية وكبار الاقطاعيين[٨٣].

ومما تجدر الإشارة إليه ان ڤاسيلي الثاني حقق نجاحات مهمة ضد خصومه في الداخل فخضعت لحكمه امارات (سيربوخوف، موجايسك، بوروفسك، سوزدال) إضافة إلى مدينتي روستيسلاف وتولا، كما اخضع نوفغورود بعد صراع دامٍ مع أمرائها، اما على الصعيد الخارجي وبخاصة علاقته مع المغول فان اكثر من مواجهة عسكرية حصلت بين الجانبين أثناء حكمه حيث خسر الروس المعركة التي دارت رحاها في سوزدال عام ١٤٤٥ امام جيش الأورطة الذهبية، كما تمكن التتار من أسر الأمير ڤاسيلي ولم يفرجوا عنه الاّ بصفقة تضمنت شرطين هما "**دفع فدية مالية كبيرة والتنازل عن مساحات من الاراضي في منطقة الفولغا الوسطى**"[٨٤].

كانت أخطر المواجهات التي خاضها ڤاسيلي الثاني تلك التي حدثت مع قوات الخان المغولي (مازوفشاه) في آذار ١٤٥١ وذلك على خلفية امتناع الأمير الروسي عن ارسال الاتاوة المقررة، إذ نجح الروس في التصدي لهذه القوات والحاق الهزيمة بها مما اضطر مازوفشاه وبسبب تفاقم الصراعات الداخلية المغولية إلى منح ڤاسيلي "**استقلال نسبي**"، وهذا قد شجع الأخير على اغتنام الفرصة فاستعاد الاراضي التي سبق وان احتلت من قبل البولنديين والليتوانيين في غرب البلاد [٨٥].

أما بخصوص العلاقة مع بابوية روما فان الأمير ڤاسيلي قرر اعلان استقلالية "**مطرانية موسكو**" عن الكنيسة في كل من روما والقسطنطينية، كما رفض "**اتفاقية فلورنسا**" المتضمنة "**اتحاد الكنيستين الكاثوليكية والارثذوكسية**"، والتي وقعها مطران موسكو (ايسيدور) دون استشارته، إذ أمر بإقصاء الأخير من منصبه ودعا "**مجمع الاساقفة**" للانعقاد والمصادقة على تعيين (المطران يونس) بدلاً منه، وبذلك حقق ڤاسيلي رغبته في الحيازة على الشرعية الدينية التي تساعده بالمضي في مشروعه الهادف إلى تكوين دولة روسية ذات سيادة بعيداً عن التدخلات البابوية، رافضاً في الوقت ذاته أي تدخل في

شؤون الكنيسة الارثذوكسية الروسية سواء من قبل بابا روما (أبيوس الثاني) أو غيره[٨٦].

وذكرت احدى الدراسات " **ان الثوابت السياسية التي سار عليها ڤاسيلي الثاني هي امتداد لسياسة من سبقه في رفض التواجد الاجنبي على الاراضي الروسية، إذ ساهمت هذه الثوابت في اثارت الشعور القومي لدى الروس وحفزتهم على مواجهة القوى الخارجية الطامعة في بلادهم من مغول وبولنديين وسويديين وليتوانيين وغيرهم** "[٨٧]، توفي الامير ڤاسيلي في السابع والعشرين من مايس ١٤٦٢ ودفن في كاتدرائية (ارخانجيلسكي) بموسكو[٨٨].

٢ـ٢٨: القيصر ايفان الثالث (١٤٦٢ـ١٥٠٥)

ابن الامير ڤاسيلي الثاني من زوجته (ماريا يوروفسك) ولد في الثاني والعشرين من كانون الثاني ١٤٤٠ بموسكو، وقد اسند إليه والده ولاية العهد وهو في سن السادسة عشر من عمره وفي عام ١٤٦٢ اعتلى عرش إمارة موسكو[٨٩].

تبنى ايفان الثالث مشروعاً تاريخياً كان يهدف إلى التحرر من التبعية للمغول واخضاع جميع الاقاليم الروسية لزعامة موسكو، إذ استغل حالة التنافس والتناحر ما بين الجماعات المغولية في سراي وقازان والقرم وامتنع عام ١٤٨٠ عن دفع الجزية أو الأتاوة إلى الخان المغولي كخطوة اولى للتحرر من تلك التبعية. والواقع ان ما خطط له ايفان لم يأت من فراغ إنما ساير التطور الذي شهدته المؤسسة العسكرية آنذاك فالخبرة القتالية التي اكتسبها الروس في تصديهم للغزوات الجرمانية الشمالية جعلته يعتقد ان المنازلة المحتملة مع المغول يمكن من خلالها حسم الصراع وانقاذ روسيا من التبعية الاجنبية، لاسيما وان اعتناق المجتمع الروسي للمسيحية الأرثذوكسية كان حافزاً مضافاً للتخلص من الهيمنة المغولية[٩٠].

قرر الخان أحمد عام ١٤٨٠ القيام بإجراء عسكري "**تاديبي**" ضد الأمير ايفان فسار على رأس جيش كبير من الفولغا وحشده على ضفاف نهري "**اوكا وأوجرا**" إلى الجنوب من موسكو الأمر الذي أثار الرعب والخوف لدى الروس من سكان دولة الاورطة المغولية، فأرسل ايفان مبعوثاً إلى الخان أحمد طالباً التفاوض بدلاً من المواجهة العسكرية الآ

ايفان الثالث فاتخذ قراره الحاسم بخوض المنازلة وتهيئة جميع الامكانيات لإلحاق الهزيمة بأعدائه، فجهز جيشاً قوامه نحو (١٥٠) ألف مقاتل حشده على الضفاف المقابلة لنهري اوكا واوجرا، وفي الوقت ذاته عقد تحالفا مع خان القرم أحد ابرز المناوئين للخان أحمد[٩١].

ارتكزت الخطة العسكرية الروسية على عبور الجيش نهر اوجرا لئلا يفكر أحد بالانسحاب والثبات في ساحة المعركة حتى احراز النصر، هذا وقد استمرت المناوشات بين الجانبين بضعة شهور دون ان يجرأ أي منهما على خوض معركة فاصلة، فالأمير الروسي كان يخشى مغامرة غير مضمونة النتائج ربما تطيح بعرشه، أما المغول فقد وجدوا أنفسهم في مواجهة مع قوة عسكرية عالية اللياقة والتدريب وبإسناد مدفعي متطور، ان الواقع الميداني قد فرض نفسه في هذه المواجهة فتجمد الانهار بحلول فصل الشتاء سوف لن يكون في مصلحة أي من الطرفين المتحاربين، لذا قرر الخان احمد الانسحاب إلى سراي خاصة وان حليفه ملك بولندا لم يتمكن من تقديم المساعدة له بسبب الهجوم الذي شنه خان القرم على الأراضي البولندية لإشغال البولنديين والحيلولة دون دعمهم لحليفهم، وفي الوقت ذاته أوعز ايفان الثالث لجيشه بالانسحاب والعودة إلى معسكراته الثابتة فدخل موسكو " **بزهوٍ كبير** " ولقب نفسه بـ "**الأمير العظيم**" أو الحاكم المطلق الذين لا يدين بالتبعية للتتار، وبذلك اسدل الستار على فترة الاحتلال المغولي التي دامت من عام ١٢٣٠ حتى عام ١٤٨٠[٩٢].

انتهج ايفان الثالث سياسة " **اضعاف العدو من الداخل** " فسعى إلى اثارة الخلافات ما بين قادة المغول أنفسهم واستدرجهم لقتال بعضهم ضد البعض الآخر حتى تمت هزيمة الخان احمد وقتله، وبذلك تلاشت سلطة المغول في سراي وانهارت دولة الاورطة المغولية عام ١٥٠٥، لكن ورغم هذا الانهيار فان خطر المغول ظل ماثلاً على الحدود الجنوبية لروسيا حيث قاموا بعدد من المحاولات الرامية إلى التوغل داخل الاراضي الروسية غير ان الروس تصدوا لهم بقوة[٩٣].

مما يجدر ذكره ان السياسة التي انتهجها المغول أبان فترة احتلالهم لروسيا (١٢٣٠-١٤٨٠) قد أفرزت نتائج مهمة على الصعد السياسية والاقتصادية والاجتماعية يمكن توضيحها بما يأتي:

* **سياسياً:**

عمد ساسة المغول إلى اذلال الأمراء الروس واجبارهم على القدوم بأنفسهم للعاصمة المغولية (سراي) واعلان الطاعة والولاء " **بالسجود امام خيمة الخان قبل دخولها فضلاً عن الهدايا النفيسة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة التي تتناسب ومقام الخان** ". كما صار لزاماً على اولئك الأمراء التنفيذ الحرفي لأوامر الخان ومنها القيام بدور الشرطة المغولية في القاء القبض على أبناء جلدتهم من الرافضين للاحتلال وتسليمهم للحاكم المغولي، لا بل تعدت تلك الأوامر السيادة الروسية إلى سلب حق الأمراء الروس في إعلان الحرب ضد اية دولة الاّ بموافقة الخان. هذا وقد لجأ قادة المغول إلى " **سياسة فرق تسد** " بإثارة الفتن الداخلية لإشغال الروس عن مقاومة الاحتلال وتعزيز التواجد المغولي في الاراضي الروسية[٩٤].

* **اقتصادياً:**

سعت السلطات المغولية إلى استنزاف الموارد المالية الروسية بفرض الضرائب القسرية تحت مسميات شتى ومنها "**ضريبة الرأس**" على جميع الروس دون تمييز بين فئات المجتمع مما قاد إلى الصدام مع المكلفين بجباية الضرائب، وعلى سبيل المثال، في عام ١٢٦٢ ثار سكان مدن فلاديمير وسوزدال وياروسلاف ضد الموظفين المغول المكلفين بهذه المهمة ورفضوا تسديد الضرائب في ظل معاناتهم من الفقر وانخفاض المستوى المعاشي، وقد دفعت حالة التذمر الفلاحين في سوزدال إلى قتل أحد المكلفين بالجباية ذبحاً الأمر الذي أثار غضب الخان الذي توعد بعقاب صارم، ولتلافي عواقب الانتقام المغولي قام الأمير الكسندر نيفيسكي شخصياً بزيارة عاجلة إلى العاصمة المغولية سراي مصطحباً معه أنواع الهدايا

ايفان الثالث فاتخذ قراره الحاسم بخوض المنازلة وتهيئة جميع الامكانيات لإلحاق الهزيمة بأعدائه، فجهز جيشاً قوامه نحو (١٥٠) ألف مقاتل حشده على الضفاف المقابلة لنهري اوكا واوجرا، وفي الوقت ذاته عقد تحالفا مع خان القرم أحد ابرز المناوئين للخان أحمد(٩١).

ارتكزت الخطة العسكرية الروسية على عبور الجيش نهر اوجرا لئلا يفكر أحد بالانسحاب والثبات في ساحة المعركة حتى احراز النصر، هذا وقد استمرت المناوشات بين الجانبين بضعة شهور دون ان يجرأ أي منهما على خوض معركة فاصلة، فالأمير الروسي كان يخشى مغامرة غير مضمونة النتائج ربما تطيح بعرشه، أما المغول فقد وجدوا أنفسهم في مواجهة مع قوة عسكرية عالية اللياقة والتدريب وبإسناد مدفعي متطور، ان الواقع الميداني قد فرض نفسه في هذه المواجهة فتجمد الانهار بحلول فصل الشتاء سوف لن يكون في مصلحة أي من الطرفين المتحاربين، لذا قرر الخان احمد الانسحاب إلى سراي خاصة وان حليفه ملك بولندا لم يتمكن من تقديم المساعدة له بسبب الهجوم الذي شنه خان القرم على الأراضي البولندية لإشغال البولنديين والحيلولة دون دعمهم لحليفهم، وفي الوقت ذاته أوعز ايفان الثالث لجيشه بالانسحاب والعودة إلى معسكراته الثابتة فدخل موسكو " **بزهوٍ كبير** " ولقب نفسه بـ "**الأمير العظيم**" أو الحاكم المطلق الذين لا يدين بالتبعية للتتار، وبذلك اسدل الستار على فترة الاحتلال المغولي التي دامت من عام ١٢٣٠ حتى عام ١٤٨٠(٩٢).

انتهج ايفان الثالث سياسة " **اضعاف العدو من الداخل** " فسعى إلى اثارة الخلافات ما بين قادة المغول أنفسهم واستدرجهم لقتال بعضهم ضد البعض الآخر حتى تمت هزيمة الخان احمد وقتله، وبذلك تلاشت سلطة المغول في سراي وانهارت دولة الاورطة المغولية عام ١٥٠٥، لكن ورغم هذا الانهيار فان خطر المغول ظل ماثلاً على الحدود الجنوبية لروسيا حيث قاموا بعدد من المحاولات الرامية إلى التوغل داخل الاراضي الروسية غير ان الروس تصدوا لهم بقوة(٩٣).

١٤٨٠) قد أفرزت نتائج مهمة على الصعد السياسية والاقتصادية والاجتماعية يمكن توضيحها بما يأتي:

*** سياسياً:**

عمد ساسة المغول إلى اذلال الأمراء الروس واجبارهم على القدوم بأنفسهم للعاصمة المغولية (سراي) واعلان الطاعة والولاء " **بالسجود امام خيمة الخان قبل دخولها فضلاً عن الهدايا النفيسة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة التي تتناسب ومقام الخان** ". كما صار لزاماً على اولئك الأمراء التنفيذ الحرفي لأوامر الخان ومنها القيام بدور الشرطة المغولية في القاء القبض على أبناء جلدتهم من الرافضين للاحتلال وتسليمهم للحاكم المغولي، لا بل تعدت تلك الأوامر السيادة الروسية إلى سلب حق الأمراء الروس في إعلان الحرب ضد اية دولة الاّ بموافقة الخان. هذا وقد لجأ قادة المغول إلى " **سياسة فرق تسد** " بإثارة الفتن الداخلية لإشغال الروس عن مقاومة الاحتلال وتعزيز التواجد المغولي في الاراضي الروسية(٩٤).

*** اقتصادياً:**

سعت السلطات المغولية إلى استنزاف الموارد المالية الروسية بفرض الضرائب القسرية تحت مسميات شتى ومنها "**ضريبة الرأس**" على جميع الروس دون تمييز بين فئات المجتمع مما قاد إلى الصدام مع المكلفين بجباية الضرائب، وعلى سبيل المثال، في عام ١٢٦٢ ثار سكان مدن فلاديمير وسوزدال وياروسلاف ضد الموظفين المغول المكلفين بهذه المهمة ورفضوا تسديد الضرائب في ظل معاناتهم من الفقر وانخفاض المستوى المعاشي، وقد دفعت حالة التذمر الفلاحين في سوزدال إلى قتل أحد المكلفين بالجباية ذبحاً الأمر الذي اثار غضب الخان الذي توعد بعقاب صارم، ولتلافي عواقب الانتقام المغولي قام الأمير الكسندر نيفيسكي شخصياً بزيارة عاجلة إلى العاصمة المغولية سراي مصطحباً معه أنواع الهدايا

... الحضارة لقادة المغول مبررا ما حدث انه ليس تمردا ضد السلطة انما كان باعثه العصبية الدينية " (٩٥).

وشهدت أقاليم كورسك وكولومنك وتفير في الأعوام (١٢٨٤، ١٣١٨، ١٣٢٨) أحداثاً مماثلة تم قمعها بالقوة حيث ارتكب المغول مجازر دامية مروعة نمّت الاحقاد في نفوس الروس واثارت شعورهم القومي، اذ تعالت الاصوات المطالبة بالتخلص من " الاستبداد والقهر المغولي " لاسيما وان السلطات المغولية أقدمت على فرض ضريبة أخرى لاقت الرفض والاستهجان من قبل فئات المجتمع الروسي وهي "**ضريبة الدم**" التي تختص بتجنيد الشباب الروس وزجهم في الصفوف الأمامية كـ "**كبش فداء**" في تلقي الصدمة الأولى عند بدء القتال، ووفقاً لأوامر الخان المغولي توجب على أمراء المدن القيام بهذه المهمة كما خولهم صلاحية استثناء الابناء والمقربين وكذلك القساوسة، لا بل شمل هذا الاستثناء " **المخلصين من أتباع الكنيسة** " حتى ان الكثير من الروس صاروا من رواد الكنائس " **ليس للتعليم الديني وإنما للحفاظ على دمائهم**"(٩٦).

اجتماعياً:

افرز احتلال المغول لروسيا ظاهرة اجتماعية تمثلت بـ "**المصاهرة**" بين أمراء الدولتين وكذلك الطبقات الدنيا في المجتمعين الروسي والمغولي، فيما أصبح التمايز الطبقي من السمات البارزة ابان تلك المرحلة اذ شملت الاعفاءات الضريبية عدد غير قليل من الفئات المتنفذة اضافة إلى رجال الدين بما فيهم صغار القساوسة ممن تم شراء ذممهم بالمال والهدايا، وهذا ما دأب عليه المغول في سياستهم الرامية إلى ترسيخ الاحتلال عن طريق الخضوع والاستسلام، كما تأثر الروس بالعادات والتقاليد المغولية منها ارتداء الملابس الطويلة والقبعة والتمنطق بالسيوف والخناجر(٩٧).

وعقب انتهاء المواجهة مع المغول أدرك ايفان الثالث ضرورة التصدي لتجاوزات واستفزازات القوى المجاورة والحد منها، ففي عام ١٤٩٢ قرر مهاجمة ليتونيا والقضاء على

محاولات الامراء الليتوانيين الهادفة إلى نشر الكاثوليكية في الاقسام الشمالية الغربية من البلاد الروسية، فدخلها دون قتال مما اضطر اميرها الكسندر للفرار إلى مقاطعة (ڤدروشا) طالباً تدخل البابا الاسكندر السادس الذي نجح في اقناع الروس بالتوقيع على هدنة امدها (٦) سنوات مقابل احتفاظ موسكو بالمناطق التي استولت عليها إلى الغرب من نهر (سوز) بما في ذلك اقليم (شرينجوف) وصولاً إلى سمولنسك، هذا وقد استغل **"فرسان الليفونية"** حالة الحرب بين موسكو وليتوانيا وتوغلوا في الاراضي الروسية لكن ايفان تصدى لهم بقوة وأجبرهم على الانسحاب ودفع الجزية[٩٨].

وفي المدة الواقعة بين (١٤٩٣-١٤٩٦) قاد **"الأمير المعظم"** ايفان (٣) حملات عسكرية ضد بولندا بسبب تدخل ملوكها في الشأن الداخلي الروسي واعتقاد اولئك الملوك ان روسيا أصبحت تمثل عائقا بوجه المشاريع البولندية مما أوجب السعي لقطع أي اتصال ما بينها وأوربا، ورغم ان الحملتين الاولى والثانية لم تحققا هدفيهما الا أن الروس في الحملة الثالثة حققوا نجاحات مهمة تمخض عنها الحاق الخسائر الفادحة في صفوف القوات البولندية فضلاً عن استعادة جزء من الاراضي الروسية التي سبق وان احتلتها بولندا في غرب روسيا[٩٩].

وبصدد العلاقة مع السويد ادرك ايفان الثالث انها هي الاخرى كانت تحاول الوقوف بالضد من روسيا والحيلولة دون اتصالها بالدول الأوربية، إذ عمل السويديون على عرقلة تدفق القروض المالية للمستثمرين الاوربيين وبنوك أوربا بهدف ابقاء روسيا دولة متخلفة، اضافة إلى صرف أنظار الروس عن التفكير في استعادة الاراضي المحاذية لشواطئ البلطيق الجنوبية التي سبق وان استولت عليها السويد في منتصف القرن الخامس عشر. وبسبب التحديات الخطيرة التي واجهت ايفان في مدة حكمه وتقديره الدقيق للموقف العسكري الذي كان يصب في مصلحة السويد **"فقد جعل من مواجهة السويديين مسألة مؤجلة"** [١٠٠].

البشرية والاقتصادية للدولة الروسية عن طريق التوسع باتجاه بحر البلطيق واخضاع الممالك شبه المستقلة في أعالي الدنيبر وأحواض نهر اوكا، فضلاً عن شراء بعض المقاطعات المهمة ومنها (روستوف) وقيامه بالاستيلاء على البعض الآخر مثل (ياروسلاف) والحاقها بموسكو[١٠١].

إن العقبة الرئيسية التي واجهت ايفان داخلياً قد تجسدت في التنافس الشديد ما بين موسكو نوفغورود لاسيما في الجانب الاقتصادي إذ وجد في مطالبة تجار موسكو بالقضاء على منافسيهم في الشمال حلاً ناجحاً لإخضاع نوفغورود سياسياً وضمها لحكمه، لذا خطط للسيطرة على السهول الممتدة ما بين الامارتين عن طريق فرض الحصار المحكم على صادرات امارة نوفغورد الاساسية وبخاصة الحبوب للحيلولة دون تدفقها إلى أسواق موسكو بهدف التأثير على اقتصاد هذه الامارة وافلاس خزينتها مما سيضطر حكامها إلى الاستسلام واعلان تبعيتهم لموسكو. والواقع ان ما خطط له ايفان وسعى إلى تنفيذه قد تحقق بعد حصار تجاري دام نحو (٨) سنوات حيث تنازلت نوفغورود عن استقلاليتها عام ١٤٧٨ وتم ترحيل نحو (٧٠٠٠) شخص من سكانها للعمل في مزارع سوزدال، فيما سيطر تجار موسكو على اسواقها وآلت واردات الضرائب إلى الأمير الغظيم . ولكن الخطوة الجريئة والحاسمة جاءت عام ١٥٠٥ حين أقدم الأمير ايفان على توحيد إمارة موسكو مع إمارة كييف ونوفغورود وذلك بعد حسم الصراع مع دوق ليتوانيا واجبار الأخير على التنازل عن جميع المقاطعات الروسية فيما وراء نهر الدنيبر[١٠٢].

ساهمت الانجازات العسكرية الكبيرة التي تحققت في ظل القيادة الكفوءة لـ ايفان الثالث الذي لقب نفسه بـ " **القيصر** " في إعلاء شأن موسكو دولياً حتى قورنت بمكانة روما والقسطنطينية آنذاك، وبذلك فتحت آفاق جديدة لإقامة علاقات دبلوماسية مع دول أوربا وافتتاح السفارات فيها. أما بخصوص العلاقة مع الدولة العثمانية فان القيصر ايفان رجح سياسة السلم على الصدام العسكري وذلك رغم استمرار التوسع العثماني في منطقة

البلقان التي تسكنها أغلبية سلافية من المسيحيين الارثذوكس، وطبقاً لرؤى ستراتيجية فان الاصطدام بالقوة العثمانية وقتذاك كان يعد مغامرة غير مدروسة النتائج واحتمالية ان تلقي بظلالها السلبية على الكيان السياسي للدولة الروسية. ومع ان الوجود العثماني في البلقان اثار حفيظة الروس " **قومياً ودينياً باعتبارهم ورثة الامبراطورية البيزنطية وحماة العنصر السلافي الارثذوكسي** " ولكن ذلك لم يمنع القيصر من فتح (قناة) للاتصال الدبلوماسي مع السلطان بايزيد الثاني (١٤١٨-١٥١٢) ، فأوفد مبعوثاً عنه إلى القسطنطينية للقاء السلطان في خطوة أولية كانت تهدف إلى تعزيز التعاون بين الدولتين، وقد أشاد السلطان بايزيد بهذه المبادرة " **معرباً عن رغبته في تطبيع العلاقات مع الروس**"[١٠٣].

ورغم انشغاله بالحروب وتصديه للمناوئين في الداخل والخارج الاّ ان القيصر ايفان الثالث نجح في إرساء دعائم البناء الداخلي لدولة قوية من خلال الانجازات والمآثر التي امتازت بها مدة حكمه وكان ابرزها:

أولاً– قيام ما يعرف بـ " **النظام القيصري** " الذي أتاح للقيصر فرصة توحيد البلاد الروسية تحت زعامته حسب، وقمع اية محاولة انفصالية حتى وان تطلب ذلك استخدام القوة[١٠٤].

ثانياً– اعادة النظر في تنظيم إدارة الدولة ومفاصلها المؤسساتية وذلك بتشريع القوانين" **مما ساعد في ترسيخ النظام الاقطاعي وتشكيل طبقة النبلاء التي صار يعتمد عليها النظام القيصري** " [١٠٥].

ثالثاً– اقتباس نظرية الحكم البيزنطي وأعياده ومراسيمه[١٠٦].

رابعاً– اعتماد " **النسر الامبراطوري المزدوج أو ذو الرأسين** " – وهو رمز بيزنطي قديم – شعاراً للدولة القيصرية تعبيراً عن "عظمة روسيا ووضعها كوريث للإمبراطورية البيزنطية" [١٠٧].

خامساً– التأسيس لأعراف دبلوماسية جديدة تتناسب والمكانة التي ارتقت اليها روسيا حيث أقام القيصر ايفان اول احتفال رسمي لاستقبال السفراء الأجانب في العاصمة موسكو(١٠٨).

سادساً– الاهتمام بالمؤسسة العسكرية بوصفها الركيزة الاساس التي تقوم عليها قوة روسيا وإدخال ما يعرف بـ " **النظام العسكري الاقطاعي** " (١٠٩).

سابعاً– التأكيد على مبدأ التخصص في عمل مؤسسات الدولة الروسية والمعروف بـ "**اليركياز**" الذي يعني الدائرة أو الوزارة التي تختص بمجال معين(١١٠).

ثامناً– تطوير العاصمة موسكو وتزيين الكرملين وبقية القصور والكنائس والأبراج على أيدي أبرز المعماريين والفنانين الايطاليين(١١١).

تاسعاً– أوجد ايفان الثالث " طبقة عليا " في الحكم ممثلة بكبار الأسر الاقطاعية مع احتفاظه بالصلاحيات الواسعة، إذ شكل الأمراء اضافة إلى كبار الاقطاعيين من "**البويار**" الطبقة العليا في المجتمع الروسي وهذا ما خطط له القيصر الذي سعى جاهداً لتسخير امكانيات وخدمات هؤلاء بما ينسجم وسياساته في إدارة الدولة.

ومما يجدر ذكره ان طبقة الامراء أو "**الدوڤريان**" كانت تنقسم إلى فئتين الاولى وتعرف بـ"**ڤوتشينا**" وهم الأمراء الذين يمتلكون الارض ولهم حق التصرف بها دون قيد أو شرط، أما الفئة الثانية فتسمى بـ"**يوميشكي**" وتشمل صغار الامراء ممن يُمْلكون الارض بصورة مؤقتة مقابل خدمات عسكرية أو ادارية ولهم حق التصرف باستغلالها طالما استمروا في تأدية تلك الخدمات ولكن لا يسمح لهم بالتنازل عنها أو بيعها، ويستمر هذا التملك في حال وجود وريث قادر على تقديم الخدمات ذاتها. الا انه وبمرور الزمن برزت ظاهرة التنافس ما بين البويار والدوڤريان فكل كان يدّعي الاصول العريقة لأسرته لارتباط ذلك بارتقاء المناصب العليا لا بل حتى في

ترتيب جلوس المدعوين للاحتفالات الرسمية، وقد انعكست هذه الظاهرة سلباً على أداء أجهزة الدولة وتفاقمت الصراعات بين الأسر المتنفذة(١١٢).

وخلاصة القول ان ما وصلت اليه روسيا من مجد عسكري ورخاء اقتصادي وبناء سياسي حتى وفاته في السابع والعشرين من تشرين الأول ١٥٠٥ قد جعل من القيصر ايفان الثالث "**رمزاً وطنياً**" بقيت مآثره خالدة في ذاكرة الروس، وحسب وصف المؤرخ فينيل " **أنه خلق للشدائد، كان مجرداً من المبادئ الخلقية ولا يتورع عن شيء، حاد الذهن ماكراً حذراً عنيداً قاسياً يقود جيوشه إلى النصر على مسافات بعيدة وهو مستقر في مكانه بالكرملين، يعاقب على العصيان أو العجز والقصور عقاباً وحشياً بأن يعذب أو يضرب بالسياط أو يبتر أطراف حتى أعضاء مجلس موسكو، أو يقطع رأس طبيب أخفق في علاج ابنه وبمثل هذه الصرامة كان يسيطر على حاشيته وحتى النساء يغمى عليهن لمجرد نظرة منه** " (١١٣).

٢-٢٩: القيصر ڤاسيلي الثالث (١٥٠٥-١٥٣٣)

ولد بموسكو في الخامس عشر من آذار ١٤٧٩ وتوج قيصر لعموم روسيا خلفاً لوالده ايفان الثالث في السادس عشر من تشرين الثاني ١٥٠٥، تزوج مرتين الاولى من (سولوميتا سابوروفا) ولم ينجب منها ذرية والثانية (ايليا غلينسكي) وقد انجبت له ولدين(١١٤).

وصفته المصادر الروسية القديمة بـ " **الرجل العبقري** " كونه ساهم في الحفاظ على انجازات اسلافه وصان وحدة البلاد، سار على خطى والده في تعزيز الحكم المطلق من خلال ارساء دعائم الاقطاع والتصدي الحازم للحركات الانفصالية التي خططت للاستقلال عن موسكو وكان أخطرها تلك التي ظهرت في نوفغورود عام ١٥٠٩، وسعى جاداً إلى تأمين الحدود الغربية لموسكو باستعادة اقليم سمولنسك وانتزاعه من قبضة القوات البولندية بعد قتال استمر عامين (١٥١١-١٥١٢)، كما أقدم في عام ١٥١٧ على ضم اقليم ريازان والحقه بالعاصمة(١١٥).

أما على صعيد العلاقات الخارجية الروسية –الأوربية فقد تبنى فاسيلي سياسة استندت إلى الانفتاح على دول أوربا وتوثيق عرى الصداقة معها سياسياً واقتصادياً من خلال تبادل الزيارات الرسمية، مؤكداً في الوقت ذاته على ضرورة الاستفادة من خبرات الاوربيين ولاسيما الايطاليين في مجالي هندسة العمارة والفن المعماري لبناء وتزيين القصور والأديرة، توفي عام ١٥٣٣ وخلفه على العرش ابنه (ايفان الرابع) من زوجته الثانية ايلينا غلينسكي[١١٦].

٢-٣٠: القيصر ايفان الرابع الرهيب (١٥٣٣-١٥٨٤)

ولد في الخامس عشر من آب ١٥٣٠ بموسكو وقد توفي والده ولم يتجاوز عمره (٣) سنوات فآلت الوصاية إلى والدته ايلينا التي قررت بدورها وضعه تحت وصاية " **مجلس البويار** " ، إلا أن اعضاء المجلس استغلوا ذلك الظرف فحكموا البلاد بعبثية وسلبوا القيصر الصغير كافة الصلاحيات لا بل تجاوزوا على أبسط حقوقه في العيش الأمر الذي انعكس على سلوكه لاحقاً، وتطرقت عدد من البحوث والدراسات إلى أن فهم التطورات السياسية في روسيا ابان عهد القيصر ايفان الرابع يتطلب الوقوف على طفولته المبكرة وحياته الأسرية الخاصة، اذ تشير الدلائل إلى أن بدايات حياته المضطربة القت بظلالها السلبية على تكوين شخصيته كحاكم ودكتاتور مستبد لا يتقبل الرأي الآخر ولا يتردد في اللجوء إلى أقسى العقوبات بحق من يخالفه في الميول والرغبات، لذا اطلق عليه لقب " **الرهيب** " للدلالة على "**الشدة، الصرامة، الفضاعة، الحزم، العظمة، التسلط، قوة البأس**"، وعلى رأي البعض يعني " **الوقور، الجليل، الملاك، المُنزل** " [١١٧].

وبسبب تضارب المصالح أصبح مجلس البويار طرفاً في الازمة السياسية التي شهدتها روسيا بعد وفاة فاسيلي الثالث حيث سيطر كبار المتنفذين من أسرة "**غلينسكي**" التي تنتمي اليها والدة ايفان الرابع على شؤون المجلس، فعقدوا العزم على اقصاء كل من (يوري) و(اندريه) أخوي فاسلي عن السلطة للحيلولة دون مطالبتهما بتولي العرش، ووجهوا لهما " **تهمة التآمر** " واودعوهما السجن . ولم يمضِ شهر على اعتقالهما حتى تمت تصفية يوري في

زنزانته على أيدي حراس السجن بينما أُفرج عن اندريه – أمير مقاطعة بتروفسك – مقابل اتفاق نص على ''**اعتراف الأخير بالسلطة المطلقة للقيصر ايفان وعدم التدخل في المسائل الخاصة بإدارة البلاد**''، ولكن هذا الاتفاق لم يصمد طويلاً اذ اعتقد اندريه بأن المجلس تجاوز صلاحياته وانه أصبح يهيمن على إدارة الدولة بصورة مطلقة، لذا قرر التصدي للبويار الذين تلاعبوا بمقدرات روسيا، الأمر الذي حفز المجلس على مهاجمة بتروفسك حيث دارت رحى معركة غير متكافئة عند مشارف نوفغورود والتي اسفرت عن استسلام اندريه الذي وجهت إليه تهمة الخيانة العظمى فأعدم شنقاً(١١٨).

وأثر وفاة ايلينا غلينسكي عام ١٥٣٨ شهدت الساحة السياسية الروسية صراعاً عنيفاً بين الأُسر الاقطاعية للاستحواذ على المزيد من الامتيازات والتدخل المباشر في شؤون السلطة، لاسيما الصراع بين أسرتي (بيلينسكي) و(شوينسكي) حيث سعت الشخصيات المتنافسة من هاتين الاسرتين إلى التصدي لحكم البلاد نيابة عن ''**القيصر الصغير**'' وتحويله إلى ''**قيصر صوري**'' ليس له من دور سوى حضور الاحتفالات الرسمية وإلقاء الخطب (١١٩).

ساهم تآمر البويار ومحاولاتهم السيطرة على '' **الأمير الطفل** '' في تحويل طفولته إلى ''**جحيم**''، وحسب وصف أحد الباحثين '' **لم يكن يعطف عليه أحد غير مربيته (غرافينا) وكان يحبها بشدة، لكنهم كانوا يخشون أن تصبح عائقاً في طريقهم لهذا فبعد أيام من وفاة الأم جاء الحرس ليأخذوا غرافينا بعيداً عنه، ورغم ان ايفان تشبث بها وتعلق بملابسها رافضاً مفارقتها بصراخ الا ان الحرس سحبوه بعيداً عنها واخرجوها ولم يرها بعد ذلك أبداً** '' . كما أنهم وفي المناسبات العامة فقط '' **كانوا يعاملون ايفان كملك ويعّرفون أنفسهم على أنهم عبيده وخدمه ويسالونه السماح لهم بالحديث، لكنهم داخل الكرملين أهانوه وسرقوا مقتنيات والده وعاملوه وأخاه بجفاء وتجاهل بل حرموه من الأكل ولم يشتروا له الملابس انما كانوا يلبسونه ملابس**

سريره وحين يتكلم كان يرفع ساقه ويضع حذاءه على وسادة النوم " [١٢٠].

وأوردت الروايات ان الراهب (جوزيف) وذات صباح من عام ١٥٤٢ دخل مذعوراً إلى غرفة ايفان متوسلاً إليه طالباً الحماية، وكان جوزيف رئيساً للكنيسة الروسية الارثذوكسية ومن يحمل هذه الرتبة فهو الرجل الثاني في السلطة بعد القيصر، لكن صراع البويار على النفوذ في هذا الوقت الاستثنائي جعل (آل شوينسكي) يلاحقونه لقتله بسبب مناصرته لخصومهم من (آل بيلينسكي) **" فضربوا جوزيف ضرباً مبرحاً امام انظار ايفان ثم اقتادوه خارج الغرفة لتتم تصفية الحساب معه، ولكن ايفان لاذ بالصمت ولم يتمكن من فعل أي شيء متوقعاً انه سيكون التالي " [١٢١].**

عمت الفوضى انحاء البلاد الروسية في ظل وجود العصابات المسلحة التي هددت حياة السكان الآمنين كما ساءت الإدارة وتفشت الرشوة وارتفعت الاسعار وازداد التمايز الطبقي بين الاثرياء والفقراء، وقد القى الروس بتبعة ما آلت اليه ظروف البلاد على طبقة البويار وحملوها مسؤولية تدهور الوضع الأمني واشاعة الفساد بسبب غياب سلطة القانون. والواقع ان **"القيصر الصغير"** لم يكن على دراية بالمشاكل المحدقة ببلاده ولم تكن له سلطة اتخاذ أي قرار سيادي أو ستراتيجي، فمجلس البويار وضعه تحت المراقبة المشددة حتى في علاقاته مع أصدقائه ومستشاريه. وذكرت بعض الروايات ان شكوكاً قد ساورت (اندريه شوينسكي) أحد أبرز بويار روسيا بخصوص علاقة الصداقة ما بين ايفان وشخص يدعى (فيدور فورنتزوف)، إذ افتعل اندريه مكيدة ما وأمر رجاله بالتعدي ضرباً على فيدور وزجه في السجن، ولما رأى ايفان ما حدث لصديقه قرر مع نفسه عدم السكوت على التجاوزات التي تعدت الحدود ومسته شخصياً فاغتنم فرصة تجمع البويار في الكرملين للاحتفال بأعياد الميلاد عام ١٥٤٢ وألقى خطاباً اتهمهم فيه بتدمير البلاد والاستيلاء على ممتلكات واموال المواطنين الروس وزجهم في السجون دون أدلة بالإدانة، وأمر حراسه على الفور بالقبض على اندريه شوينسكي فانهالوا عليه ضرباً حتى الموت، ورمى جثته لتأكلها

كلاب الصيد وترك ما تبقى منها ليراه البويار. كما أقدم على تصفية (٣٠) شخص من المقربين لـ اندريه وأعدمهم جميعاً ومنذ تلك اللحظة أخذ نفوذ البويار بالانحسار، وبحلول عام ١٥٤٦ تلاشى الدور السياسي لأسرتي بيلينسكي وشوينسكي وبرزت أسرة غلينسكي لتتصدر المشهد السياسي وتقف مع ايفان في إدارة البلاد حتى جاء يوم خلع الوصاية في السادس عشر من كانون الثاني ١٥٤٧ وتتويجه رسمياً قيصراً على عموم روسيا[١٢٢].

ولم يمض شهر على اعتلائه العرش حتى أعلن ايفان زواجه من (انستايا رومانوف) تلك الفتاة التي عشقها بجنون وكانت أقرب زوجاته الثمانية إلى قلبه، فأنجبت منه (٤) بنات توفين جميعاً وهن في المهد وولدان مات أحدهما غرقاً في عمر (٣) سنوات وعاش الآخر في كنف أبيه ويدعى (فيودور)، غير ان انستايا توفيت فجأة عام ١٥٦٠ وحسبما رجحته الروايات القديمة فأنها ماتت مسمومة في ظروف غامضة لم يكشف النقاب عنها. وقد أثرت حادثة الوفاة هذه على الوضع النفسي للقيصر حتى ان الشؤم والإحباط رافقاه في حياته الزوجية اللاحقة، إذ اقترن بعدها بـ(٧) فتيات انتهت كل زيجة منها بقصة تراجيدية أحاطت بها الشكوك واثارت التساؤلات، ففي عام ١٥٦١ تزوج من (ماريا ميليفسكي) فأنجبت له ولداً اسماه (ڤاسيلي أو ايفان الحبيب) لكنها ماتت بالسم أيضاً عام ١٥٦٩، ثم اقترن بـ(مارثا سبوكنا) عام ١٥٧١ إلا انها وجدت ميتة بالسم ولم يمض على زواجها اسبوعين فقط. وفي عام ١٥٧٢ تزوج من (آنا كولتوفسكي) ولكنه هجرها بعد سنتين بسبب عدم الانجاب وفرض عليها الإقامة الجبرية في أحد الأديرة تحت اسم (داريا) حتى وفاتها عام ١٦٢٦. أما الزوجة الخامسة فتدعى (آنا ڤاسيل جيكوفسكي) اقترن بها عام ١٥٧٥ الا انه وبعد بضعة شهور أجبرها على الاعتكاف القسري في أحد الأديرة، وذكرت بعض الروايات أنها ماتت مقتولة بأمر من القيصر . وفي عام ١٥٧٩ أُعجب ايفان بجمال ارملة احد القادة الروس وتدعى (ڤاسيليا ميلنتفسكي) لتصبح الزوجة السادسة غير أنه اكتشف خيانتها له — بعد شهرين فقط — مع أحد رجال البلاط فأمر فوراً بقتل عشيقها، وجاء بـ ڤاسيليا إلى ساحة لسباق الفروسية وقام بربطها إلى فرسين وقطّع جسدها

نصفين، ثم تزوج عام ١٥٨٠ من فتاة تدعى (ماريا دولغورسكي) وهي من أسرة نبيلة فقتلها ايضاً بعدما اكتشف ان لها عشيق، وأخيراً كان زواجه الثامن من (ماريا ناجيسكي) وتنتسب إلى أسرة (غودونوف) عام ١٥٨١ فأنجبت منه (ديمتري)[١٢٣].

بعد أن استعرضنا أبرز المسائل الخاصة بشخصية ايفان الرابع حسبما اقتضته هذه الدراسة سوف نتطرق إلى التطورات السياسية والعسكرية التي عاشتها روسيا أبان فترة حكمه، ففي آذار ١٥٤٧ شهدت موسكو اندلاع حريق هائل طال كل شيء في المدينة بينما ظلت أسبابه مجهولة، ابتدأ بالكنيسة وانتقل إلى بقية الأبنية الحكومية وقصر الكرملين حتى وصلت النيران إلى مخازن البارود وفجرتها مما أثار الهلع والرعب لدى السكان، وخلال ست ساعات احترقت ضواحي موسكو بالكامل " **وكانت الطامة الكبرى أن لا أحد يستطيع الهرب ففر الناس إلى الكنائس الحجرية هرباً من النيران، ولكن انهارت عليهم الكنائس بسبب شدة النار أو ضغط الحشود، أعداد كبيرة قفزت في نهر موسكو ولكن غرق الكثير منهم وحينما انفجرت ذخيرة المدافع في الكرملين فان اولئك الذين اختبأوا في الأقبية ماتوا اختناقاً... وتشرد عشرات الآلاف وبقيت سحائب الدخان تغطي السماء عدة أيام ... وأمر القيصر بالجثث التي غصت بها الشوارع ان تلقي في النهر فغرق بسبب ذلك جزء من المدينة** " هذا ما أفاد به أحد عناصر البوليس السري التابع لايفان وهو ألماني الاصل يدعى (هاينرث فون شتاديت) كشاهد عيان على الكارثة التي خلفها حريق موسكو حيث قدر أعداد الضحايا بنحو (١٠) آلف شخص[١٢٤].

استغلت اسرتي رومانوف وشوباسكوف حالة التذمر التي انتابت الروس على خلفية الحرائق وما تسبب عنها من دمار وخراب فعمتدا إلى اغتنام هذه الفرصة لتأجيج مشاعر الناس ضد خصومهم من أسرة غلينسكي، فبعد أيام قلائل من توقف الحريق تجمع آلاف الناقمين في ساحة الكرملين بتحريض من كبار البويار في هاتين الاسرتين ووجهوا اصابع الاتهام إلى خال القصير المدعو (يوري غلينسكي) وحملوه شخصياً مسؤولية الحادث، وازاء

مشاعر الغضب التي سادت التظاهرة اضطر يوري إلى مغادرة القصر متوجهاً إلى كاتدرائية موسكو الاّ أن جماعات من المتظاهرين لاحقته وتمكنت من قتله داخل الكاتدرائية، ثم واصلت زحفها نحو باتجاه المقاطعة التي تسكنها اسرة غلينسكي مطالبة ايفان بتسليم افراد الأسرة ولكن القيصر رفض طلبهم هذا ووعدهم بتنفيذ مطالبهم المتعلقة بالإصلاحات (١٢٥).

أدرك ايفان الرابع ان الأوضاع العامة في البلاد أصبحت تنذر بالخطر لاسيما بعد حريق موسكو، وكان عليه استعادة زمام السلطة بقبضة حديدية للقضاء على مظاهر الفوضى خاصة وان الاحتجاجات لم تقتصر على موسكو فقط بل امتدت إلى أقاليم روسية أخرى مطالبة بالإصلاحات، فامر بالقبض على قادة التظاهرات الذين تسببوا في قتل خاله اندريه وأعدمهم جميعاً وترك جثثهم معلقة على الأعمدة ثلاثة أيام(١٢٦).

ابتدأت عملية الاصلاح التي خطط لها ايفان الرابع بتأسيس ما يعرف بـ "**المجلس المختار أو مجلس الاقاليم**" بناء على اقتراح تقدمت به بعض الشخصيات التي كان يثق بها وهم المطران (ماكارييف)، الأب (سلفستر) و(الكسي داشيف)، وذلك بهدف انقاذ البلاد من أزماتها الداخلية وإعادة النظر في المسائل المتعلقة بالدفاع عن الاراضي الروسية بعدما اتسعت أطماع القوى المجاورة، وتشكل المجلس برئاسة القيصر وممثلين عن جميع مدن وأقاليم روسيا إضافة إلى كبار رجال الدولة وقادة الجيش ورجال دين وكبار طبقتي البويار والدوڤريان. عقد المجلس الذي يعد أول "**جمعية وطنية**" تضم ممثلين من جميع انحاء روسيا اجتماعه الأول في ايلول ١٥٤٩ وقد ارتأى القيصر ان تجري وقائع هذا الاجتماع في ساحة الكرملين بحضور عامة الناس، فألقى كلمة استعرض فيها خطورة الاوضاع التي كانت تمر بها البلاد على الصعيدين الداخلي والخارجي موجها الاتهام في الوقت ذاته إلى رجال البويار وحمّلهم مسؤولية سفك الدماء وانتشار الفساد في المؤسسات الحكومية، محذراً خصومه من مغبة الاستمرار في إثارة المشاكل والأزمات متوعداً اياهم بإنزال اقسى العقوبات، كما بين في خطابه انه سيسعى لحماية مصالح شعبه وهو على

...تسمح اية اعتراضات او انتقادات من خلال "**الديوان القيصري**"، ودعا جميع شرائح المجتمع إلى التسامح والمصالحة وتوحيد الصفوف لتهيئة ارضية مناسبة تسمح بتشريع قوانين جديدة تساهم في بناء دولة روسية حديثة[١٢٧].

وأوضحت إحدى الدراسات ان القيصر ايفان الرابع قد تبنى فكرة مجلس الأقاليم لأجل تحقيق عدد من الأهداف الستراتيجية اهمها[١٢٨]:

أولاً– حجب جميع الصلاحيات التي يتمتع بها البويار وكبار رجال الدين وحصر جميع السلطات بيد القيصر.

ثانياً– محاربة الفساد ومحاسبة الموظفين المقصرين ومنع القائمين على الجبايات من سرقة المال العام.

ثالثاً– اقامة حكومة مركزية تخضع لها جميع الأقاليم الروسية، وقطع الطريق أمام أية محاولة للأمراء بالاستقلال عن موسكو.

رابعاً– اخضاع التعليم في جميع أنحاء روسيا إلى اشراف حكومي مركزي وتأسيس مدارس مدنية حديثة بعيداً عن تأثيرات الكنيسة لمواكبة التطورات العلمية والارتقاء بالثقافة عل غرار ما حصل في دول اوربا الغربية.

خامساً– تعزيز قوة الدولة اقتصادياً وعسكرياً بمواكبة التطور الحاصل في مجال الصناعات المدنية والحربية.

شهدت روسيا حملة اصلاحات شاملة ركزت في أهدافها على النهوض بأداء المفاصل الرئيسية للدولة، ففي الجانب الاداري تم الغاء نظام الادارة القديم القائم على أساس الاقطاع واعتماد نظام حكم مركزي تخضع له جميع الاقاليم الروسية تحت سلطة القيصر، فإدارة الاقاليم ينبغي ان تستند إلى قاعدة الانتخاب والشخص المنتخب هو موظف مُلزم بتنفيذ كافة الاوامر الصادرة من رأس الهرم في السلطة العليا بموسكو مقابل أجر أو مُرتّب مالي تقرره الحكومة، ولأجل الوصول إلى هذا الهدف اقتضت الضرورة اعادة

النظر في النظام القضائي ليصبح أكثر مركزية وذلك باقرار تشريعات جديدة تعمل على تحجيم دور السلطات المحلية ومنح الهيئات المركزية سلطات واسعة(١٢٩).

وأولى ايفان الرابع اصلاح المؤسسة العسكرية اهتماماً استثنائياً فالتهديدات المستمرة التي كانت تتعرض لها الأراضي الروسية من قبل القوى المجاورة اضافة إلى حاجة روسيا لمنفذ تجاري يربطها بالعالم الخارجي حفزته على ادخال التحديث لهذه المؤسسة حيث تجلى ذلك بما يأتي(١٣٠):

أولاً- اعداد الخطط العسكرية بما يؤمن مواجهة التحديات المحدقة بـ روسيا والاستفادة من خبرات كبار القادة العسكريين في اقامة التحصينات الدفاعية وانشاء القلاع وابراج المراقبة الحدودية.

ثانياً- تعزيز الجيش الروسي بتشكيلات جديدة من " **رماة البنادق** " أو قوات الاحتياط وفقاً لنظام تدريبي خاص من حيث الاعداد البدني والتأهيل القتالي، إذ بلغ عدد الذين انضووا في تلك التشكيلات نحو (٢٥٠) ألف مقاتل كان يتم استدعاؤهم للخدمة في أوقات الحرب.

ثالثاً- تشكيل قوة مقاتلة من الدوفريان باسم " **فصيل الالف مقاتل** " ويتمتع كل شخص في هذه القوة بامتياز استغلال قطعة أرض زراعية مساحتها (٥٠) هكتار مقابل الخدمات التي يقدمها ولكن لا يحق له التملك أو التصرف فيها بسبب عائديتها للدولة.

رابعاً- اعتقد القيصر ايفان الرابع ان المواجهة مع خصومه ومعارضيه في الداخل كانت تتطلب وجود قوة عسكرية خاصة تدين بالولاء له شخصياً فأسس فرقتين قتاليتين خضعتا لإشرافه المباشر هما " **فرقة القوزاق** " وفرقة مشاة "**استرلتس**"، وأمر بتسليحهما بأحدث الأسلحة المصنعة آنذاك.

خامساً- تحديث سلاح المدفعية والاستعانة بالخبراء الأجانب من ذوي الاختصاص في مجال تصنيع المدافع وتطوير مدياتها.

وشملت الاصلاحات ايضاً المؤسسة الدينية إذ تأثر ايفان الرابع بحركة الاصلاح الديني التي شهدتها المانيا، وسعى جاهداً إلى تهميش دور الكنيسة في الأمور السياسية للحيلولة دون تدخل رجال الدين في الشأن السياسي وذلك من خلال[١٣١]:

أولاً– تحجيم الامكانيات المادية للكنيسة ومصادرة جميع الاملاك التابعة لها واعتبارها املاكا عامة لرفد خزينة الدولة بأموال اضافية، إذ قدم القيصر في نيسان ١٥٥٠ اقتراحاً إلى مجلس الاقاليم بهذا الخصوص الا ان المجلس وبأغلبية الاعضاء رفض الاقتراح، الأمر الذي اضطر ايفان إلى مصادرة جميع الاراضي المنقولة للكنيسة ابان فترة وصايته حينما كان قاصراً.

ثانياً– الحد من ظاهرة تجاوز الأديرة على الأملاك العامة حيث أصدر القيصر عام ١٥٥١ امراً منع بموجبه القائمين على تلك الأديرة من حيازة اية مساحة من الارض الاّ بموافقته شخصياً.

ثالثاً– التأكيد على الدور الحقيقي الذي ينبغي ان يضطلع به رجل الدين في مجال العبادات وممارسة الطقوس الدينية والابتعاد عن الشبهات واعمال الرذيلة، فقد شدد القيصر على ضرورة اصلاح سلوكيات رجال الدين والتزامهم بالمنهج المسيحي السليم وتجسيد الاخلاق الفاضلة واحالة الفاسدين منهم إلى القضاء.

رابعاً– تأسيس "**المجمع الكنسي**" بهدف تشخيص المفاسد التي استشرت في الكنيسة الأرثذوكسية ووضع الحلول المناسبة لمعالجتها ومعاقبة المفسدين.

خامساً– جمع التعاليم الدينية في كتاب واحد احتوى على (١٠٠) فصل ليكون دستوراً للنظام الكنسي الروسي، وبذلك أراد القيصر قطع الطرق بوجه الفاسدين من رجال الدين واستغلالهم للناس البسطاء في ممارسة الطقوس والعبادات.

قادت سلسلة الاصلاحات الداخلية التي قام بها ايفان الرابع إلى تعزيز سلطته واخضاع خصومه ومناوئيه من أمراء البويار وكبار رجال الكنيسة، الأمر الذي أتاح له فرصة حقيقية لإعادة النظر في الحسابات الخاصة بالشأن الخارجي والانتقال من حالة الدفاع إلى

المجوم، فقد نالت خططه المتضمنة اخضاع الامارات التترية في حوض نهر الفولغا الشرقي (قـازان واسـترخان) تأييـد أعضـاء مجلـس الأقـاليم لاعتبـارات سـتراتيجية وسياسـية واقتصادية[١٣٢]:

اولاً– فرض السيطرة على كامل مجرى نهر الفولغا كونه خط تجاري نهري ستراتيجي يؤمن لروسيا الاستفادة القصوى من العلاقات التجارية مع البلدان الشرقية والاسيوية، ذلك ان منابع الفولغا تقع في المناطق الروَسية الشمالية الغربية حيث يتجه النهر في مساره نحو الشرق مروراً بإمارة قازان ثم ينعطف جنوباً ويخترق وسط مدينة أسترخان الواقعة على دلتا مصبه في بحر قزوين.

ثانياً– تدني الواردات الزراعية بسبب موجة الجفاف التي اجتاحت روسيا منذ عام ١٥٤٧ لاسيما في الأجزاء الشمالية الشرقية مما تطلب القيام بضم المزيد من الأراضي عن طريق التوسع لتعويض الخسائر الكبيرة الناجمة عن ذلك.

ثالثاً– العمل على تجسيد المشروع الكنسي الروسي بجعل موسكو "**روما الثالثة**" والسعي لتأسيس إمبراطورية أرثذوكسية عالمية تتزعم العالم المسيحي الأرثذوكسي لاسيما بعد سقوط القسطنطينية بيد العثمانيين عام ١٤٥٣.

رابعاً– الاستفادة من خبرات القـادة والمقـاتلين التتـار الـذين لجـأوا إلى موسكو بسبب انشقاقهم عن السلطة التترية، خاصة وان أعداد كبيرة من هؤلاء اعتنقوا المسيحية وأبدوا الرغبة بالخدمة في الجيش الروسي فشكلوا ما يعرف بـ"**الجيش القوزاقي**" الذي قاتل تحت إمرة القادة الروس وخاض حروباً عديدة ضد القوى المعادية لروسيا في مختلف الجبهات ومنها الامارات التترية.

خامساً– اتساع نطاق المعاملات التجارية ما بين روسيا وبعض الامارات التتارية لاسيما امارتي قازان واسترخان مما اوجد فئات واسعة من أصحاب المصالح والتجار ادانت بالولاء لموسكو في وقت تمكن فيه الروس من استمالة (الخان علي) حاكم امارة (قاسيموف) وتعزيز أواصر الصداقة والتعاون معه.

سادساً– احتدام الصراع بين البويار على إعادة توزيع الملكيات الزراعية الأمر الذي حفز كبار الاقطاعيين على التفكير في التوسع بالأقسام الشرقية والجنوبية من حوض نهر الغولغا.

سابعاً– الحد من الخروقات التترية للأراضي الروسية من جهة قازان والتي اثرت سلباً على الاقتصاد الروسي.

ثامناً– انتهاز حالة الصراع على السلطة ما بين الجماعات الاقطاعية المتنافسة في قازان وما نجم عن ذلك من فوضى عارمة لتوسيع نفوذ روسيا في هذه الامارة.

قادت الجماعات الموالية لموسكو في امارة قازان انقلاباً سياسياً عام ١٥٤٦ الأمر الذي أجبر الخان (صافي) على الهرب إلى إمارة (نوغاي) التترية في منطقة الاورال، وتدخل الروس بصورة مباشرة فعينوا على رأس الامارة حليفهم الخان علي ولكن الخان صافي وبعد مضي بضعة شهور استطاع العودة إلى قازان بفضل الدعم العسكري الذي تلقاه من خان امارة نوغاي، فخاض صراعاً عنيفاً مع مناوئيه وكبدهم خسائر كبيرة مما اضطر منافسيه من الامراء التتر ومنهم الخان علي إلى الهرب باتجاه الحدود الروسية حيث جرى الاتفاق مع ايفان الرابع على التخطيط لمهاجمة قازان . ففي خريف عام ١٥٥١ سار القيصر على رأس جيش قوامه نحو (١٠٠) ألف مقاتل بمشاركة جميع الفصائل التترية المنشقة ودارت رحى معركة طاحنة عند ضفاف نهر الفولغا ولكنها انتهت ميدانياً بهزيمة قاسية للروس وحلفائهم، ورغم مرارة الهزيمة الا ان القيصر ايفان الرابع استغل حالة الارتباك التي حدثت في صفوف التتر أثر مقتل القائد العسكري (كوجاك) فأمر قادته بمواصلة التقدم ومحاصرة قازان، ونتيجة للحصار المحكم الذي استمر خمسة شهور ساءت الاوضاع الداخلية في قازان وتشكلت حكومة مؤقتة لغرض الشروع بالتفاوض مع القيصر ولكن الاخير اشترط تسليم الخان (اوتيامش) الصغير بالسن ووالدته (سييوم بيكه)، وقد انتهت المفاوضات بالموافقة على فك الحصار مقابل تسليم الخان الصغير وأمه، ثم قام ايفان بتسليم سييوم إلى حليفه علي خان فتزوجها فيما ارسل ابنها إلى موسكو وبقي فيها حتى وفاته عام١٥٦٦ [١٢٣].

ولأجل حسم مصير قازان قرر ايفان الرابع عام ١٥٥٢ احتلالها بصورة نهائية لكنه وقبل الشروع بالإجراء العسكري ارتأى اللجوء إلى الحل الدبلوماسي المتضمن الطلب من الحكومة المؤقتة اعلان انضمام الامارة إلى الدولة الروسية، الا أن "**النخبة العليا**" في قازان انقسمت ما بين " **أقلية مؤيدة** " ويمثلها التجار وأصحاب المصالح المالية قررت الدفاع عن قازان والاتصال بالأمير (باديغار) أحد امراء"**وأغلبية رافضة** " استرخان والمقيم في امارة (نوغاي) التترية لتولي عرش قازان والاشراف على عملية الدفاع عنها، كما اعرب سكان الامارة عن رفضهم القاطع للتدخل الروسي في تنصيب أي حاكم رغم ادراكهم لعدم امكانية مجابهة القوة العسكرية الروسية. وقد سارع الجناح المعارض لروسيا بإجراء اتصالات عاجلة مع حاكم امارة القرم التترية (الخان دولت) بهدف الحصول على الدعم العسكري فاستجاب الخان على الفور وأرسل جيشاً لمهاجمة المدن الروسية الجنوبية، ونجح هذا الجيش في تحقيق انتصارات محدودة وحاصر مدينة (تولا) غير ان الحامية الروسية المكلفة بالدفاع عن المدينة تمكنت من صد الهجوم وأجبرت القوات المهاجمة على التراجع والانسحاب إلى القرم. واثر ذلك شرعت القوات الروسية بقيادة ايفان الرابع في الثاني عشر من تشرين الاول ١٥٥٢ بالزحف نحو قازان وحاصرتها لمدة (٩٠) يوم ثم دخلتها دون مقاومة تذكر(١٣٤).

ان الانهيار السريع للمقاومة القازانية ارتبط بعدد من الاسباب كان ابرزها(١٣٥):

أولاً- التفوق العددي للجيش الروسي الذي قدر بـ(١٥٠) ألف مقاتل مقابل قوة مدافعة لا يتجاوز عددها (٣٠) ألف مقاتل.

ثانياً- تفوق الروس في مجال التسليح وبخاصة سلاح المدفعية.

ثالثاً- الخطة العسكرية المحكمة التي استندت إلى مشاغلة المدافعين وتكبيدهم الخسائر الفادحة وكذلك اقامة الابراج عند اسوار المدينة.

رابعاً- قطع جميع الطرق المؤدية إلى مصادر المياه مما اذهل السكان وجعلهم يعيشون محنة حقيقية في تأمين احتياجهم من الماء.

وبعد مفاوضات " **شكلية** " عاجلة وافق القازانيون على تعيين حاكم يدعى (شيخ علي شيكالي) وهو من الموالين للروس وبذلك فقدت قازان استقلالها السياسي، ورغم ان ايفان الرابع قد سمح بالإبقاء على الدين والقومية والمعتقد الا أن قوى المقاومة لم تستسلم بصورة نهائية حيث تبنت مشروعاً للتخلص من السيطرة الروسية وخاضت صراعاً عنيفاً ضد الروس استمر نحو (٥) سنوات. كان لسقوط قازان انعكاسات مهمة على صعيد ستراتيجية التوسع الروسي إذ توجهت أنظار الروس نحو احكام السيطرة على منطقة الحوض الشرقي لنهر الفولغا، فشرعوا بإقامة التحصينات الدفاعية على ضفتي النهر وشيدوا عشرات القلاع العسكرية المحصنة في عمق الأراضي الواقعة على ضفته الشرقية، هذا وقد أحكم الروس في عام ١٥٥٦ سيطرتهم على كامل مجرى نهر الفولغا من منبعه في عمق الاراضي الروسية الشمالية الغربية إلى مصبه في بحر قزوين بعدما تمكن الجيش الروسي من فصل امارة استراخان عن امارة (توغاي) التترية، ومن ثم احتلال استراخان بالتنسيق مع الفصائل الموالية لروسيا، وبذلك امتد نفوذ الروس إلى بحر الخزر وفُتح الطريق أمامهم لإقامة علاقات تجارية مع بلاد فارس، وفي العام ذاته تعزز النفوذ الروسي في منطقة الأورال حينما أبدت إمارة (توغاي) الرغبة بالانضمام إلى الدولة الروسية[١٣٦].

قررت إمارة سيبريا التترية عام ١٥٥٧ تطبيع علاقاتها السياسية والاقتصادية مع موسكو وفقاً لأسس الصداقة وحسن الجوار، فأرسلت وفداً تفاوضياً ولكن هذا الوفد فشل في المهمة التي ذهب من أجلها واذعن للشرط الروسي المتضمن دفع الاتاوة السنوية، وبذلك فتح الطريق امام الروس للتوسع شرقاً فيما وراء جبال الأورال وخاصة في الاقسام الغربية والجنوبية من الاراضي السيبيرية[١٣٧].

ويبدو ممكنا القول ان ستراتيجية التوسع الروسي في سيبريا استندت إلى مقومات اساسية كان أهمها مسالة التحديث الذي طرأ على نوعية التسليح لاسيما سلاح المدفعية، وضعف قوة التتار بسبب الصراعات الداخلية التي أدت إلى تفكيكهم سياسياً، فضلاً عن تنامي الشعور بالكراهية لدى سكان تلك المناطق ورفضهم البقاء تحت السلطة التترية.

وتجدر الاشارة إلى ان بدايات التواجد الروسي في سيبريا تعود إلى أواخر النصف الأول من القرن السادس عشر حينما قرر بعض الاثرياء الروس استثمار أموالهم في تلك المنطقة رغم كونها نائية وبعيدة، اذ اقترحوا على ايفان الرابع تشجيع المزارعين على الهجرة واستغلالها زراعياً كما طالبوه بتشكيل فصائل مسلحة بهدف تعزيز تواجدهم هناك خاصة وان المنطقة لا يقطنها سوى ألف من القوزاق الذين فرضوا سيطرتهم بعدما طردوا الحاكم التتري (كتشو)، ولاقت هذه الفكرة ترحيب القيصر فأمر بإرسال قوات عسكرية إلى هناك وشجع على الهجرة وبذلك شرع الروس ببناء المستوطنات والمدن الصغيرة مثل توبولسك، تيومن وناريم[(١٣٨)].

ورغم النجاحات التي حققها الروس في سيبريا الا ان روسيا وبعدما أصبحت دولة كبيرة ولها امكانياتها الواسعة كانت بحاجة ماسة لفتح قنوات التبادل التجاري والاقتصادي مع الغرب، ولكن عدم امتلاكها لإطلالة بحرية تربطها بالعالم الخارجي – باستثناء نهر (نيڤا) وهو منفذ صغير يوصلها إلى بحر البلطيق – حال دون ذلك، هذا اذا ما أضفنا أن جميع الدول الليفونية – هو مصطلح أطلق على دول البلطيق المتمثلة باسقفيات آزلويك، ريكار، كورليان، فرسان الليفونية- قد سعت من جانبها إلى قطع الطريق أمام اية محاولة روسية لبلوغ ذلك البحر، لذا قرر ايفان الرابع الدخول في مفاوضات مع الليفونيين بهدف الوصول إلى تفاهم مشترك يفضي إلى تأمين الاتصال بالغرب الا ان المفاوضات فشلت بسبب اصرار الوفد الليفوني على الشرط الخاص بدفع الجزية، حينذاك أدرك القيصر ان التعاطي مع هذه المسألة يستوجب اللجوء إلى القوة فاعلن الحرب في (كانون الثاني ١٥٥٧)[(١٣٩)].

استندت خطة الهجوم الروسي على الاراضي الليفونية خلال الصفحة الأولى من الحرب إلى مبدأين (الأول): تجنب القتال داخل المدن الكبيرة وعدم الانجرار إلى ما يعرف بـ "**حرب العصابات**"، و(الثاني): استمالة السكان الناقمين بسبب سوء اوضاعهم المعيشية لاسيما وان أعداداً كبيرة منهم ينحدرون من اصول روسية، وحينما بدأت الحرب

[illegible] باجتيازهم للحدود الليفونية فاخضعوا نحو (٢٠) مدينة صغيرة إلى سيطرتهم كما استولوا على (يورييف) وهي من المدن المحصنة وفيها نحو (٥٠) مدفع وتم الحاق جميع هذه الاراضي بالدولة الروسية، ولأجل ضمان ولاء سكان تلك المناطق والحيلولة دون اثارتهم للمشاكل اصدر ايفان الرابع اوامره إلى الجيش بتوخي جانب الحذر وعدم الاساءة لأحد باستثناء اولئك الذين يقومون بأعمال استفزازية، وأمر ايضا بإعادة النظر في النظم الادارية والتجارية واعفاء التجار من جميع الضرائب المترتبة على التبادل التجاري مع بقية اقاليم روسيا. قادت الانتصارات العسكرية السريعة والمتلاحقة إلى تعزيز التواجد الروسي في جزء كبير من شاطئ البلطيق الشرقي مما اثار حفيظة عدد من الدول الاوربية مثل السويد والدنمارك وليتوانيا وبولندا، إذ أدركت هذه الدول ان اختراق الروس للأراضي الليفونية سوف يهدد مصالحها لذا سارعت بولندا إلى احتلال جزيرة (كولنيان) واقدمت الدنمارك على غزو جزيرة (ايزك) بينما قامت السويد بضم بعض الاراضي وبذلك تم تفتيت ما يعرف بـ "**الاتحاد الليفوني**"، وفي الوقت ذاته حاولت تلك الدول ترك الخلافات القائمة بينها جانبا لمواجهة الخطر الروسي فتجددت الاعمال العسكرية في منطقة البلطيق ثانية، ولكن القوات الروسية تمكنت من صد هجمات القوى المتحالفة واستولت عام ١٥٦٣ على مدينة (بولستك) الستراتيجية فيما سعى ايفان الرابع إلى تفتيت التحالف بعقده معاهدة مع السويد[١٤٠].

وبينما كان الجيش الروسي يحرز تقدماً في الجبهة الليفونية فان سجالات مثيرة شهدتها الساحة السياسية الروسية بخصوص مسألة " **الحكم المطلق** " إذ أحدثت الأفكار التي جاء بها المفكر (سفيتيف) جدلاً واسعاً بقوله: " **ان القيصر باعتباره رأس الهرم في السلطة وبحكم تفويض الشعب له فهو الحاكم مدى الحياة** "، كما وجه انتقاداته اللاذعة إلى البويار وطالب الدوفريان بمواجهة الاقطاع. وذكرت احدى الدراسات ان سفيتيف قد اطلع ايفان الرابع على هذه الآراء وحثه على ترسيخ مبادئ الحكم المطلق لاسيما وان اكثرية البويار أصبحوا في تقاطع تام مع السياسات التي ينتهجها القيصر كونها

تمس بمصالحهم الخاصة، واشارت ايضاً إلى ان هذه السجالات الفكرية القت بظلالها السلبية على المشهدين العسكري والسياسي، فعلى صعيد الحرب قادت التناحرات الداخلية إلى فقدان الروس لعدد من المواقع في جبهات القتال، أما على الصعيد السياسي فان ايفان الرابع حمّل البويار مسؤولية تدهور الأوضاع داخلياً وخارجياً حتى وصل به الأمر إلى مغادرة مقره في الكرملين والاقامة في احدى المدن الصغيرة التي تبعد عن العاصمة بنحو (٤٠) كم معلناً تنازله عن العرش، ولتلافي حدوث المزيد من الانهيارات والاضطرابات وللحيلولة دون الانفلات الشامل للأوضاع في عموم روسيا التقى وفد من اهالي موسكو في السادس عشر من كانون الاول ١٥٦٤ بالقيصر واقنعوه بالعدول عن قراره لما فيه مصلحة البلاد، الا ان ايفان اقرن عودته بتفويض عام يستند إلى مسألتين (الاولى): منحه السلطات المطلقة التي تمكنه من الهيمنة التامة على اجهزة الدولة، و(الثانية): تأسيس بلاط خاص واسع الصلاحيات يرتبط مباشرة بالقيصر[١٤١].

تجسدت الخطوة الأولى التي أقدم عليها ايفان الرابع بتأسيس "**الاوبرتشينيا**" وهو جهاز "**بوليسي – سياسي**" بلغ عدد منتسبيه نحو (٦) آلاف مقاتل وكانت مهمته تصفية الخصوم والمعارضين، ففي عام ١٥٦٦ تقدم نحو (٣٠٠) من البويار بطلب لمقابلة القيصر في محاولة لثنيه عن الاستمرار بسياسة الاغتيالات والاعدامات التي طالت عدد غير قليل منهم على ايدي عناصر هذا الجهاز ، ولكن ايفان رفض مقابلتهم وأصدر أمراً باعتقالهم جميعاً مما اثار غضب واستياء مطران الكنيسة الأرثذوكسية (فيليب) الذي واجه هو الآخر عقوبة الاعدام بسبب شجبه لهذه السياسة، والواقع ان عامة الروس لم يبدو احتجاجاً على اجراءات القيصر طالما كانت تستهدف البويار. وفي قرار مفاجئ أقدم القيصر ايفان على حل جهاز الاوبرتشينيا والحاق عناصره بالوحدات العسكرية وذلك اثر الحريق الذي التهم نوفغورود في تموز ١٥٧٠، معتقداً بأن أعمال النهب التي طالت الاموال العامة في المدينة المنكوبة من قبل عناصر الجهاز تمثل بداية لاستفحال قوة هذه العناصر وازدياد خطرها المستقبلي[١٤٢].

مما تقدم يتضح ان سياسة الثأر والمعارضة بين القيصر وخصومه البويار قد أثرت سلباً على استقرار الوضع الداخلي في وقت لازالت فيه روسيا تخوض الحرب ضد القوى المعادية في جبهة البلطيق، فالخسائر الكبيرة التي اقترنت بمتطلبات القتال ساهمت في استنزاف خزينة الدولة في ظل تراجع الواردات، الأمر الذي حفز تلك القوى على استئناف الحرب مرة أخرى في مايس ١٥٧٩ حيث تخلى ملك السويد عن المعاهدة التي سبق وان عقدها مع القيصر الروسي واتفق مع ملك بولندا على طرد القوات الروسية المرابطة في الاراضي الليفونية(١٤٣).

شرعت القوات البولندية والسويدية تحت قيادة الملك البولندي (ستيفن) بالهجوم على مدينة بسكوف من محورين غير أنها لم تتمكن من اقتحام المدينة بسبب المقاومة العنيفة التي أبدتها الحامية الروسية ورفضها الاستسلام، حينها أدرك القيصر ان مشاكل بلاده السياسية والاقتصادية توجب تفادي الانزلاق نحو هزيمة عسكرية مؤكدة لذا طلب وساطة البابا وتدخله الشخصي لوقف القتال، استجاب البابا لمناشدة القيصر فارسل مندوبا عنه يدعى (انطونيو) حيث تمخضت جهود الوساطة عن موافقة البولنديين والسويديين على توقيع هدنة لمدة (١٠) سنوات شرط قيام الروس بسحب قواتهم من الاراضي الليفونية مع ضمان احتفاظ روسيا بالأراضي الواقعة على طول الحدود الليتوانية، بيد أن هذه الهدنة لم تصمد طويلاً إذ تقدمت القوات البولندية والسويدية واجتازت الحدود الروسية في شباط ١٥٨٢ ثم واصلت زحفها نحو موسكو، ولكن القائد الروسي المكلف بحماية العاصمة أفشل هذا الهجوم حينما باغت الجيوش المهاجمة بتفجير مخابئ العتاد المدفونة تحت الاسوار مما أحدث صدمة مفاجئة لدى المهاجمين الذين اضطروا للتراجع بعد ان تكبدوا خسائر بلغت نحو (١٧٠٠) قتيل وجريح(١٤٤).

اعتقد القيصر الروسي ان وضع نهاية للحرب الليفونية التي استمرت نحو (٢٥) عاماً أصبحت ضرورة ملحة أملتها المشاكل التي كانت تعصف بالبلاد سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، مدركاً في الوقت ذاته " **أهمية تسوية الصراع مع القوى المجاورة وعدم**

الخوض في مغامرات جديدة غير محسوبة النتائج حتى ان اضطر إلى تقديم بعض التنازلات". وفي مايس ١٥٨٢ ابدا الروس الرغبة في إنهاء حالة الحرب وشرعوا بالتفاوض مع البولنديين والسويديين لعقد الصلح حيث تعهدت روسيا بالانسحاب من جميع الاراضي البولندية مقابل تخلي بولندا عن الأراضي الروسية التي احتلتها خلال الحرب، كما تنازلت عن المنفذ البحري " **الصغير والوحيد** " الذي يربطها ببحر البلطيق إلى السويد[١٤٥].

القى ايفان الرابع بمسؤولية هذه " **الهزيمة أو التسوية المخزية** " على قادة الجيش واتهمهم " **بالخيانة العظمى وعقوبتها الموت**" في محاولة لتبرير موقفه من القبول بالشروط التي تضمنها الصلح، وورد في الروايات القديمة أنه " **أصيب بالهستيريا وراح يتصرف بسلوك غير معتاد حيث توجه إلى مدينة بسكوف لإبادة سكانها ... فتصدى له أحد القساوسة ويدعى (ميخولا) قائلاً: ايفان .. ايفان كم أرقت من دماء الابرياء، عُد إلى دارك والاّ ستصيبك مصيبة كبيرة... ثم ناوله قطعة لحم فقال القيصر: انا مسيحي ولا آكل اللحم اثناء الصوم، فرد عليه ميخولا: انت تفعل الأسوء لأنك تأكل لحم البشر ونسيت ليس الصوم لوحده ... انت نسيت حتى الرب!!!** " [١٤٦].

عاش القيصر ايفان الرابع أواخر حياته في وضع مأساوي إذ عانى من احباط نفسي وصراع مع الذات بسبب قتله ابنه (فاسيلي) اثر مشادة كلامية بينهما مما أفقده صوابه في كثير من المواقف التي كانت تتطلب الحكمة في " **اتخاذ القرار**"، وفي أواخر عام ١٥٨٣ أصيب بمرض جلدي خطير تسبب في ورم جسمه وانبعاث الروائح النتنة نتيجة التقرحات، وفارق الحياة في الثاني عشر من اذار ١٥٨٤ اثناء لعبه الشطرنج مع صديقه الاقطاعي (بوريس غودونوف)، وبذلك طويت صفحة مهمة في تاريخ الدولة الروسية وخلفه على العرش ابنه المعتل (فيودور)[١٤٧].

٢ـ٣١: القيصر فيودور الأول (١٥٨٤ـ١٥٩٨)

أدرك القيصر ايفان الرابع قبيل وفاته ان ابنه وولي عهده فيودور غير مؤهل لقيادة البلاد بسبب اعتلال صحته وضعف قدراته البدنية لذا ارتأى احاطته بمجلس استشاري مهمته الأساسية تقديم المشورة في إدارة شؤون الدولة، وحينما اعتلى فيودور العرش تحول هذا المجلس إلى بؤرة للصراع على السلطة في ظل محدودية تأثير القيصر الجديد، وقد حسم الصراع لمصلحة صديق أسرة آل روريك البويار (بوريس غودونوف) بفعل عاملين (الأول): زواج القيصر فيدور من (ايرينا) شقيقة بوريس و(الثاني): زواج الأخير من ابنة (سكوراتوف) أحد أبرز المتنفذين في المجلس، وبذلك سنحت الفرصة لـ(غودونوف) ان يتولى بصورة فعلية حكم روسيا تحت غطاء " **رعاية القيصر** " وآلت اليه جميع الصلاحيات الخاصة بإدارة الشؤون الداخلية والخارجية ، إذ واصل السير على النهج الذي اختطه القيصر ايفان الرابع في ترسيخ مبادئ الحكم المطلق وتطبيق نظام القنانة، فضلاً عن تحجيم دور رجال الدين والحيلولة دون تدخلهم في مسائل السياسة حينما أقدم عام١٥٨٩ على تحويل الكنيسة الروسية من مطرانية إلى بطريركية[١٤٨].

أما على صعيد العلاقات الخارجية فقد أدرك غودونوف ان اثبات قوة روسيا كان يتطلب الوقوف بحزم ضد أطماع القوى المجاورة واستعادة جميع الاراضي التي خسرها الروس أبان الحرب الليفونية، ومن وجهة نظره "**هذه مسألة كانت تتطلب جهداً استثنائياً لتطوير المؤسسة العسكرية وانشاء جيش قوي مدرب ومجهز بأحدث الاسلحة، وتعزيز خطوط الدفاع الحدودية واحاطتها بالأسوار وابراج المراقبة وذلك في ظل التهديدات المستمرة للسويد ومحاولتها السيطرة على التجارة الروسية** ". وبعد سلسلة من الاصلاحات التي طالت المؤسسة العسكرية في مجالات التعبئة والتدريب والتسليح شرع غودونوف بتنفيذ مخططه الرامي إلى حسم المواجهة مع السويد، إذ تمكن الجيش الروسي من الحاق الهزيمة بالقوات السويدية في تشرين الاول ١٥٩٥ وتمت استعادة مدينتي (ايفانغورد)

و(اوريشيك) وبقية الاراضي التي استولى عليها السويديون في الحرب الليفونية وبذلك تم تأمين المنفذ الرابط بين روسيا والبلطيق(١٤٩).

شهد عهد القيصر فيودور في حزيران ١٥٩١ حادثة قتل شقيقه من أبيه الأمير (ديمتري) الذي كان يعيش في كنف امه التي تنحدر من اسرة (ناجيسكي) في مدينة (اوغليش)على ضفاف الفولغا العليا وتحت رعاية واشراف " **لجنة حكومية خاصة** " ، إذ وجد مقتولاً بطعنات سكين داخل منزله في ظروف غامضة، وقد أثار هذا الحادث غضب سكان اوغليش الذين وجهوا الاتهام لرئيس اللجنة وحمّلوه مسؤولية الضلوع في الجريمة فاقدموا على قتله. وتكمن خطورة عملية الاغتيال هذه أنها سوف تلقي بتبعاتها واثارها السلبية على مستقبل الوضع السياسي في روسيا لمرحلة ما بعد فيودور، فالشائعات التي انتشرت في موسكو اتهمت بوريس غودونوف بتصفية الأمير الصغير في إطار مخطط كان يهدف إلى التخلص من منافسه الوحيد على العرش وذلك حينما اعتّلت صحة القيصر فيودور " **وأصبح موته مسألة وقت فقط** ". ورداً على تلك الشائعات ولإثبات البراءة من التهمة الموجهة اليه امام الرأي العام الروسي أمر غودونوف بتشكيل لجنة خاصة للتحقيق في الحادث وملابساته برئاسة البويار (شويسكي)، وقد خلصت اللجنة في تقريرها النهائي إلى " **ان الأمير ديمتري كان مصاباً بداء الصرع وحينما تعرض لنوبة المرض كان يلعب وفي يده سكيناً فطعن نفسه بصورة لا إرادية وغير متعمدة** " كما اتهم التقرير سكان اوغليش بقتلهم المندوب الحكومي (١٥٠).

وبعد معاناة طويلة مع المرض فارق القيصر فيودور الحياة في آذار ١٥٨٩ ولم يخلفه ولي على العرش إذ لم يرزق الا بطفلة واحدة اسمها (فيودوسيا) توفيت وعمرها (٣) سنوات عام ١٥٩٤، وبرحيل فيودور انتهى حكم ال روريك وبرزت ظاهرة الصراعات ما بين القوى المحلية المتنفذة للاستئثار بالسلطة(١٥١).

واجهت روسيا أزمة سياسية خانقة بسبب الفراغ الذي حصل في العرش الروسي لاسيما وان زوجة القيصر ووريثته (ايرينا) قررت الابتعاد عن شؤون السياسة والانقطاع التام

... في الساحة السياسية الروسية هما (آل غودونوف) و(آل رومانوف) حيث استند بوريس غودونوف في مطالبته بالحكم إلى كونه شقيق زوجة ووريثة القيصر المتوفى ، اما الأسرة الثانية فقد تمسكت بالحجة القائلة ان والدة القيصر تنحدر من عائلة رومانوف ولها أحقية وراثة العرش، وتفادياً لتداعيات هذا الصراع ونتائجه الخطيرة على الصعيدين الداخلي والخارجي اجتمع مجلس الدولة "**الزيمسكي**" وانتخب بوريس قيصراً لروسيا(١٥٢).

٢_٣٢: القيصر بوريس غودونوف (١٥٩٨_١٦٠٥)

لم يكن اختيار مجلس الدولة للقيصر الجديد محض صدفة إنما استند إلى معطيات افرزها الواقع السياسي آنذاك وفي مقدمتها قوة شخصية بوريس وحكمته في إدارة شؤون السياسة الروسية ابان عهد القيصر فيودور " **مما ولدّ القناعة لدى أغلبية اعضاء الزيمسكي أنه رجل دولة يمتلك من المواصفات ما يؤهله لتحمل المسؤولية والحفاظ على كيانية الدولة الروسية التي أسسها آل روريك**" (١٥٣).

اعتقد غودونوف ان النهوض بـ روسيا والارتقاء بها إلى مصاف الدول الغربية كان بحاجة إلى نهضة اصلاحية شاملة وذلك بعدما انحسر خطر المغول وتراجعت – نسبياً– حدة التوتر مع بولندا والسويد، ولأجل الوصول إلى هذا الهدف ترأس مجلسا استشارياً ضم مختلف التخصصات وكانت اولى مهامه المساهمة الفاعلة في وضع الستراتيجيات والخطط المناسبة منها:

أولاً– اصلاح المؤسسة العسكرية التي طالها الفساد إذ تم استبدال عدد من كبار القادة الذين تحوم حولهم الشبهات بقيادات داعمة للمنهج الاصلاحي من الدوفريان، فمُنحوا الألقاب والرتب العسكرية ووزعت عليهم الاراضي التي تمت مصادرتها من بويار "**العهد القديم**"، كما ألغي التشكيل العسكري المعروف بـ "**الفرقة الخاصة**" بسبب الاساليب القمعية التي مارسها عناصر هذا التشكيل من تنكيل وابتزاز بحق المواطنين الروس(١٥٤).

ثانياً- توزيع الاراضي على المزارعين القاطنين في المناطق الحدودية الغربية لأجل ضمان ولائهم والحيلولة دون تعاونهم مع القوى المجاورة المعادية لروسيا(١٥٥).

ثالثاً- انعاش السوق التجارية بعدما أصابها الكساد جرّاء الحروب المستمرة وذلك بتخفيض نسب رسوم الكمارك ما بين الاقاليم الروسية من جهة وتقديم التسهيلات للتجار الاجانب من جهة أخرى(١٥٦).

رابعاً- الانفتاح على الغرب والتعاقد مع الكفاءات الأجنبية المتخصصة لإعادة تأهيل أنظمة الحكم والإدارة والجيش على غرار التطور الحاصل في دول أوربا الغربية آنذاك(١٥٧).

خامساً- محاولة تطبيق تجربة " التعليم المدني " بعيداً عن تأثيرات الكنيسة الا أن هذه التجربة جوبهت بمعارضة شديدة من قبل رجال الدين الذين زعموا " **أن التعليم الحديث مؤطر بأفكار الغرب وهو مفسدة للعقول ويتناقض مع التعاليم المسيحية لا بل يؤدي إلى زعزعة الايمان ويساعد على الانحراف الذي يسخط الرب**"(١٥٨). ورغم ممانعة الكنيسة فان غودونوف يعتبر صاحب الفكرة الرائدة في مجال تحديث التعليم وله السبق في ايفاد مجموعة من الطلبة لتلقي العلوم في المعاهد الغربية " **ولكن هؤلاء الطلبة منعوا من العودة إلى بلادهم لشمولهم بالحرمان الكنسي** " (١٥٩).

تعرضت روسيا في السنوات (١٦٠١-١٦٠٣) إلى موجات قاسية من الصقيع الجاف مما أدى إلى تراجع تام في الانتاج الزراعي وحدوث مجاعة حقيقية لاسيما في موسكو ومحيطها الغربي والجنوبي، إذ اضطر السكان إلى اقتلاع جذور النباتات وتناول الكلاب والجرذان والقطط، ولم تفلح الاجراءات التي قام بها غودونوف في التخفيف من آثار هذه الكارثة ومنها التصرف بـ" **خزين الحبوب الستراتيجي** " في ظل سوء الأحوال العامة وتدني المستوى المعاشي وتفاقم ظاهرة "**السوق السوداء** " ، وقد أرجعت الكنيسة حجم

البلاء الذي حل بالبلاد إلى التفسير الغيبي القائم على اساس " **غضب الرب نتيجة الاخطاء والآثام التي ارتكبتها السلطة الحاكمة الفاقدة للشرعية الدينية باغتصاب العرش من أسرة روريك ... وان تزامن المجاعة مع انتشار الامراض التي فتكت وحصدت ارواح الاف البشر ماهي الا عقوبة الهية!!** " (١٦٠).

ومما فاقم من سوء الأوضاع تلك الفوضى التي تسبب بها الفلاحون الهاربون من الأرياف إلى "**المدن البائسة**" وتشكيلهم للعصابات في محاولة لتأمين الطعام لعوائلهم، فتحولوا إلى قطاع طرق وارتكبوا ابشع الجرائم كما لم يترددوا في مهاجمة قصور النبلاء ومخازن الحبوب وسرقتها، وبسبب غياب السلطة وانفلات الأمن طالبت مجموعة من البويار بقيادة (غلوبكا) بتنحي غودونوف عن الحكم واصفة اياه بـ " **المتطفل على العرش** " كونه ينحدر من أصول تترية، وقد أجرى غلوبكا اتصالات مع (كوسولاب) زعيم المعارضة التي تشكلت من الفلاحين والاقنان وقطاع الطرق وحصل الاتفاق على الشروع بـ "**التمرد**" لإقصاء غودونوف عن العرش الروسي. وفي آب ١٦٠٣ شن المتمردون هجومهم على موسكو ولكن القوات الموالية للقيصر بقيادة (باسيمنوف) تمكنت من إلحاق الهزيمة بهم وقتلت أعداداً كبيرة منهم، فيما أسرت غلوبكا ونفذت فيه حكم الإعدام بينما لاذ الباقون بالفرار إلى أعالي الفولغا (١٦١).

وبعد القضاء على التمرد واجه بوريس غودونوف تحدياً سياسياً خطيراً كان سبباً في موجة الاضطرابات التي عصفت بروسيا آنذاك، إذ استغل عدد من الاقطاعيين البولنديين من مالكي الاقطاعيات المحاذية للحدود الروسية حالة الفوضى السياسية التي رافقت التمرد وقدموا الدعم لشخص ادّعى انه الأمير ديمتري ابن القيصر ايفان الرابع وأخ القيصر فيودور " **وان له الحق في استرداد السلطة واستعادة عرش آل روريك** "، ومما يجدر ذكره أن ملك بولندا سجسموند الثالث (١٥٨٧-١٦٣٢) وجد في هذا الشخص "**المدعي**" ورقة رابحة للوصول إلى هدفين كان يسعى لتحقيقهما (الأول): مشروع كثلكة روسيا

و(الثاني): ضم مدينة سمولنسك لبولندا، لذا ابدا سجسموند دعمه لـ(ديمتري الكذاب) مادياً وعسكرياً لأجل إزاحة بوريس عن العرش الروسي(١٦٢).

تصدى غودونوف لهذا الإدعاء وفنده بتأكيده على أن المدعي ليس ديمتري ابن القيصر ايفان الرابع انما هو شخص آخر اسمه (أوتريبوف) كان راهباً ثم تخلى عن الرهبنة وغادر روسيا إلى بولندا، بينما ذكرت بعض الروايات ان (ديمتري الكذاب) ينحدر من أسرة رومانوف حيث اضطر إلى مغادرة البلاد عام ١٦٠٠ بعدما اتهم بوريس غودونوف زعماء هذه الاسرة بالتآمر فلجأ إلى الاراضي البولندية وتنكر في شخصية قسيس، وان عائلته التي كانت على اطلاع بتفاصيل حادث مقتل (الأمير الصغير ديمتري) هي التي اعدته لتقمص هذه الشخصية فغادر إلى بولندا ومن هناك كان يراقب تطورات الاحداث، وقد وجد في الاضطرابات التي شهدتها موسكو عام ١٦٠٣ الفرصة المناسبة للادعاء بنسبه إلى القيصر ايفان الرابع وذلك أثر تلقيه الدعم من الملك والاقطاعيين، فيما عزز علاقاته مع كبار قادة البلاط البولندي بزواجه من (ارينا) ابنة القائد العسكري (ساندر ميرسكي) التي وعدها بمدينة نوفغورود كهدية لزواجهما، كما نال تأييد بابوية الفاتيكان حينما وعد بتبني المذهب الكاثوليكي ونشره في روسيا . شرع ديمتري (الكذاب) بحملته على موسكو في آب ١٦٠٤ على رأس قوة كبيرة تقدر بأربعة آلاف مقاتل مؤلفة من متطوعين وفرسان بولنديين ومرتزقة ألمان ومعارضين روس، وبعد عبور نهر الدنيبر توغلت هذه القوة في الاراضي الروسية الجنوبية الغربية والتحقت بها مجاميع أخرى من النبلاء والفلاحين الناقمين على بوريس غودونوف إضافة إلى فصائل مقاتلة من القوزاق، **"وبذلك بدت الحركة التي قام بها ديمتري وكأنها (انتفاضة) عامة ضد حاكم فاقد للشرعية السياسية"** . ورغم النجاحات المحدودة التي حققتها قوة ديمتري الا انها تعرضت لهزيمة قاسية على يد القائد الروسي (فاسيلي شويسكي) حيث دارت رحى معركة فاصلة في منطقة (دوبريجيني) بتاريخ السابع عشر من كانون الثاني ١٦٠٥ اسفرت عن تراجع ديمتري إلى الحدود البولندية دون ان يحقق هدفه في إسقاط حكومة غودونوف(١٦٣).

في مصلحة ديمتري (الكذاب) وذلك حينما أُعلن في الكرملين عن وفاة القيصر بوريس غودونوف بالسكتة الدماغية المفاجئة بتاريخ الثالث والعشرين من نيسان ١٦٠٥، فالروس وبعد الأزمات التي مرت بها البلاد كانوا يتطلعون إلى قائد منقذ قادر على إعادة بناء هيبة الدولة وتحقيق الاستقرار فيها، لذا وبغض النظر عن مصداقية ادعاء ديمتري فقد استحضروا مجد الدولة الروسية ابان حكم آل روريك والتفوا حوله رغم التباين في مصالحهم الفئوية الخاصة، ونال أيضاً تأييد قبائل التتار والقوزاق طمعاً منهم في الحصول على الامتيازات والثروة وبذلك فتحت أبواب موسكو أمام ديمتري (الكذاب) فدخلها دون قتال بمؤازرة عدد من القادة العسكريين الروس. ثم جرى الاعداد للقاء " **اكتنفته الشكوك**" بين (**ماريا ناجيسكي**) زوجة ايفان الرابع وديمتري (الكذاب) في إحدى ضواحي موسكو وأعلنت نتائجه للرأي العام الروسي، إذ اعترفت ماريا "**بأمومتها لـ ديمتري وأقرت أنه ما زال حياً**"، لكن مما اثار الاستغراب والتساؤل ذلك التبدل الحاصل في موقف ڤاسيلي شويسكي الذي ترأس اللجنة التحقيقية الخاصة بحادث وفاة (الأمير الصغير ديمتري) عام ١٥٩١ حينما أعلن "**أن الأمير ديمتري بن القيصر ايفان لم يمت وأنه مازال على قيد الحياة** "، الأمر الذي أوقد نار الفتنة الداخلية وساهم في تأجيج مشاعر الغضب الشعبي ضد أسرة غودونوف، إذ قامت مجاميع من الناقمين على السلطة باقتحام قصر الكرملين وخلعت وريث العرش (فيودور) ابن بوريس، وفي الثلاثين من حزيران جرت مراسيم تتويج ديمتري (الكذاب) قيصراً على عرش روسيا[١٦٤].

٢ـ٢٣: ديمتري (الكذاب) الأول (١٦٠٥ـ١٦٠٦)

حال تسلمه السلطة شرع ديمتري بإزاحة خصومه ومناوئيه من الساحة السياسية فأمر أنصاره بإعدام زوجة بوريس غودونوف وابنه الشاب فيودور وتبرير الجريمة بأنها" **حالة تسمم** "، وتم دفن الجثتين في حي (لوبيكاسكا) - احدى ضواحي موسكو – فيما أجبرت الأبنة (كاسينا) على الترهب في أحد الأديرة بعيداً عن الحياة العامة[١٦٥].

ورغم مساعي ديمتري لنيل ثقة مختلف فئات المجتمع الروسي الا أن الوضع العام في البلاد كان شائكاً ومعقداً، فالظرف الذي أوصله إلى الحكم قد تجسد في خشية الروس من حدوث فراغ سياسي ربما يذهب بالبلاد نحو المجهول بسبب احتدام الصراع على العرش، لذا فشل في اعتماد ثوابت ستراتيجية خاصة بإدارة الدولة مما افقده ذلك التأييد الذي جاء به إلى السلطة الأمر الذي انعكس سلباً على ادائه السياسي في التعاطي مع التحديات الداخلية والخارجية ومنها(١٦٦):

اولاً– الرفض الشعبي للمرتزقة البولنديين الذين استقدمهم إلى موسكو حيث شعر الروس ان بلادهم أصبحت في دائرة الاحتلال البولندي غير المباشر، خاصة وان هؤلاء المرتزقة قاموا بانتهاكات طالت سكان العاصمة وسرقة اموالهم.

ثانياً– خشية الروس من قيام ديمتري بتبني مشروع " **كثلكة روسيا** " لاسيما وأنه تزوج من فتاة كاثوليكية في وقت استطاع فيه اقناع واستمالة عدد من رجال الدين الأرثذوكس الانتهازيين الذين ابدوا استعدادا للتقارب مع بولندا الكاثوليكية.

ثالثاً– تذمر أصحاب رؤوس الأموال والمصالح التجارية من الامتيازات والتسهيلات التي منحها ديمتري للتجار الأجانب مما افقده دعم هذه الفئة التي يستند اليها الاقتصاد الروسي.

رابعاً– رفض الفلاحين لقرار ديمتري بمنح النبلاء حق ملاحقة المزارعين التابعين لهم واجبارهم على العودة والعمل القسري في مقاطعاتهم.

خامساً– تراجع مساندة النخب العليا لـ ديمتري بسبب تبني الأخير لأفكار غربية لا تتلائم وخصوصية المجتمع الروسي، اذ شككت فئة البويار والبطريركية الأرثذوكسية بالنهج السياسي الذي اعتمده في إدارة الدولة الروسية.

سادساً– خضوع ديمتري للضغوطات التي مارسها البويار واجباره على طرد عناصر القوة القوزاقية التي جاء بها إلى موسكو، وذلك بعد أن وجهت اليهم الاتهامات بإشاعة الفوضى وزعزعت أمن العاصمة وتحميلهم مسؤولية اعمال النهب والسرقة والتجاوز

على الممتلكات الخاصة، مما افقد ديمتري دعم القوزاق واصبح في مواجهة مباشرة مع البويار.

سابعاً– عدم امتلاك ديمتري لرؤى ستراتيجية مدروسة في إدارة ملف العلاقات الخارجية ومنها على سبيل المثال دعوته في شباط ١٦٠٦ إلى إعلان التعبئة العامة للهجوم على جزيرة القرم الخاضعة للسيادة العثمانية الأمر الذي أثار امتعاض الروس الذين سأموا من الحروب والنزاعات الداخلية، أما النخب السياسية فانها انتقدت وبشدة دعوة ديمتري هذه معتقدة " **أنه لا يتمتع بمؤهلات رجل الدولة وكان عليه تجنب فتح جبهة قتالية ضد العثمانيين والتركيز على العدو الأول بولندا الكاثوليكية** " (١٦٧).

مما تقدم يتضح ان ديمتري قد فشل في إدارة شؤون روسيا على الصعيدين الداخلي والخارجي بسبب عدم دقة تقديره للمواقف ذات البعد الستراتيجي، الأمر الذي أضعف مركزه في السلطة وسهل على البويار الاطاحة به في انقلاب قاده (ڤاسيلي شويسكي) بتاريخ السابع عشر من ايار ١٦٠٦، إذ قامت مجاميع مسلحة باقتحام قصر الكرملين فالقت القبض عليه وأعدمته في " **الساحة الحمراء** " ثم أحرقت جثته واطلقت رمادها من فوهة مدفع باتجاه الحدود البولندية (١٦٨).

٢-٣٤: القيصر ڤاسيلي شويسكي (١٦٠٦-١٦١٠)

ينحدر من أسرة (شويسكي) إحدى ابرز الأسر النبيلة في مدينة سوزدال الواقعة شمال شرق روسيا، اعتلى العرش القيصري في التاسع عشر من مايس ١٦٠٦ بعد نجاح الانقلاب الذي قاده ضد ديمتري الكذاب بتأييد مشروط من قبل فئة البويار ورجال الدين الأرثذوكس نص على " **تقييد صلاحياته وخضوع قراراته لموافقة مجلس الدوما** "، وقد ابدا القيصر الجديد الملقب بـ (فاسيلي الرابع) موافقته على ذلك معلنا " **أن جميع القرارات الخاصة بمصادرة الأملاك وأحكام الإعدام سوف تخضع لموافقة المجلس الذي يضم ممثلين عن جميع فئات المجتمع الروسي** " (١٦٩).

ورغم الوعود التي أطلقها شويسكي بإصلاح أحوال البلاد الاّ أن الأوضاع الداخلية قد تأزمت بعد مضي شهرين من تسلمه السلطة، إذ انطلقت في الجنوب الروسي ما يعرف بـ " **الانتفاضة الفلاحية** " تحت قيادة (ايسافيتش بولتنيكوف) الذي حرض الفلاحين والاقنان على ملاحقة النبلاء وأصحاب المصالح التجارية ونهب ممتلكاتهم، مدعياً أن ديمتري بن ايفان الرابع ما زال على قيد الحياة وقد خوله قيادة الفصائل المسلحة لاستعادة الشرعية السياسية ممثلة بـ آل روريك (١٧٠).

نجحت أساليب الدعاية التي تبناها بولتنيكوف في استقطاب أعداد كبيرة من الروس كان أبرزها الترويج لشخص من مقاطعة توشينو - إحدى ضواحي موسكو- على أنه "**ديمتري الحقيقي**" فانضمت اليه فصائل مقاتلة من الدوڤريان بقيادة (بروكوبي ليبانوف) و(ياستوما باشكوف) إضافة إلى مجاميع من صغار رجال الدين، ورغم تمكن بولتنيكوف من إحراز انتصار محدود بوصول قواته إلى أسوار موسكو في الثالث والعشرين من تشرين الثاني ١٦٠٦ ولكن الموقف تغير فجأة لصالح ڤاسيلي للأسباب الآتية (١٧١):

أولاً– وصول الامدادات العسكرية من مختلف المدن الموالية للقيصر.

ثانياً– إدانة قادة الكنيسة الأرثذوكسية وفي مقدمتهم البطريرك (غيين) لحركة بولتنيكوف حيث أعرب عن استهجانه وعدم رضاه لمشاركة عدد من القساوسة في هذه " **الحركة الضالة** " متوعداً بفصلهم من الكنيسة " **معتبراً ما قاموا به عمل يسخط الرب** "، داعياً جميع الفصائل المسلحة إلى " **الكف عن أعمال العبث والالتفاف حول شويسكي للقضاء على الفتنة التي اثارها بولتنيكوف وتجنب اراقة الدماء** "، واصفاً أنصار الحركة من الفلاحين بـ " **الزمر الضالة التي تسكب الزيت على النار** " .

ثالثاً- الموقف الايجابي لسكان موسكو والتفافهم حول القيصر مما أفقد بولتنيكوف واحدة من اهم الأوراق التي راهن عليها في تنفيذ مخططه الهادف إلى اقتحام العاصمة والاستيلاء على السلطة .

تمخضت الضغوطات التي مارسها البطريك غيين على قادة الدوفريان عن استجابة القائدين ليبانوف وباشكوف لتوجيهات الكنيسة بالانسحاب من أرض المعركة والوقوف إلى جانب شويسكي، الأمر الذي مهد الطريق أمام قادة الجيش القيصري لمهاجمة قوات بولتنيكوف ودرء الخطر عن العاصمة فاضطرت هذه القوات إلى التراجع باتجاه مدينة (كالوكا) والتحصن فيها، وبعد مناوشات استمرت من كانون الأول ١٦٠٦ حتى منتصف شباط ١٦٠٧ أوعز القيصر لقادته باقتحام المدينة، ولكن خطة المحاصرين بتفجير قلعة **"كالوكا الخشبية"** واضرام النار فيها اثار الرعب في صفوف المهاجمين وأوقع فيهم خسائر كبيرة وبذلك نجح بولتنيكوف وأنصاره في فك الحصار والانسحاب إلى الجنوب[١٧٢].

واصل بولتنيكوف مخططه الرامي إلى الاطاحة بالقيصر شويسكي وذلك بتحريضه لفلاحي أواسط الفولغا وحثهم على التمرد ضد اسيادهم الاقطاعيين لأجل تحقيق هدفين (الأول): اشغال الحكومة بالأزمات وزعزعة الوضع الداخلي و(الثاني): تجنيد أعداد من المقاتلين المناوئين للسلطة والاستفادة من قدراتهم القتالية لمعاودة الهجوم على موسكو واسقاط حكومة القيصر. وفي التاسع من مايس ١٦٠٧ تمكنت القوات التي حشدها بولتنيكوف من محاصرة (نينجي- نوفوغورد) بعد أن كبدت جيش القيصر خسائر كبيرة عند مشارف المدينة ثم واصلت تقدمها وسيطرت في الحادي والعشرين منه على اقليم (بوتفيل)، ولكن بولتنيكوف قرر في الثالث من حزيران وقف العمليات العسكرية أثر نجاح قواته في احكام الطوق على مدينة (تولا) وذلك لسببين (الأول): يتعلق بإعادة التنظيم و(الثاني): انتظار وصول اعداد جديدة من المقاتلين القوزاق الذين استجابوا لدعوته الرامية إلى الاطاحة بالقيصر[١٧٣].

دفع تسارع الأحداث بالقيصر شويسكي إلى إصدار قرار في الثامن عشر من مايس منح فيه الاقطاعيين صلاحية ملاحقة الفلاحين الهاربين واعادتهم إلى أسيادهم، وذلك بهدف تجنيدهم ورفد الجيش القيصري بعناصر مقاتلة إضافية لاستعادة المدن التي استولت عليها قوات بولتنيكوف والحيلولة دون تقدمها إلى موسكو، كما أوعز إلى قادة الجيش بضرورة التحرك السريع وكسب الوقت لإنقاذ العاصمة من " **خطر وشيك** " وقد تمخض عن الاجراءات الاستثنائية التي قام بها اولئك القادة تعبئة جيش قوامه (١٥٠) ألف مقاتل[١٧٤].

أصدر القيصر في السابع من حزيران ١٦٠٧ أوامره إلى قادة الجيش بالهجوم على تولا التي تحصن فيها نحو (٢٠) ألف من أنصار بولتنيكوف، إلا أن جيش القيصر ورغم محاولاته المتكررة فشل في اقتحام المدينة بسبب المقاومة العنيفة التي ابداها المدافعون الأمر الذي اضطر القادة إلى تطويق تولا وأحكام الحصار عليها، ويبدو أن قوة الدفاعات التي اعتمدتها قوات بولتنيكوف قد حالت دون تمكن الجيش الحكومي من إحراز نصر سريع، لذا أصدر القيصر " **انذاراً نهائياً** " في الحادي عشر من آب حذر فيهِ بولتنيكوف من مغبة عدم الاذعان لأمره بإخلاء تولا في مدة لا تتجاوز (٤٨) ساعة دون قيد أو شرط، وبخلاف ذلك سيصدر أمراً بتفجير أحد السدود واغراق المدينة بالكامل متوعداً جميع العناصر المنضوية تحت قيادة بولتنكيوف بعقوبة الاعدام مستثنياً اولئك الذين يلقون بالسلاح ويستسلموا للجيش الحكومي. وازاء هذا المتغير المفاجئ وغير المتوقع اضطر بولتنكيوف وأنصاره إلى الاستسلام، ولكن شويسكي لم يفِ بوعده حيث وجد في هزيمة خصومه فرصة للانتقام فاقدم على ارتكاب مجزرة رهيبة راح ضحيتها نحو (١٥) ألف شخص، أما بولتنيكوف فقد أمر القيصر بسمل عينيه ودفنه حياً في أحد الأنهار المتجمدة ليلقى حتفه هناك[١٧٥].

ورغم فشل الانتفاضة الفلاحية ومقتل زعيمها الاّ ان قصة (ديمتري) لم تنته بعد، إذ استغل البولنديون حالة الفوضى الداخلية التي أعقبت الانتفاضة وقدموا الدعم العسكري

المباشر للشخص "**المدّعي**" الذي أعلن عنه بولتنيكوف، فالحكومة البولندية اعدت مخططاً كان يهدف إلى تفتيت كيان الدولة الروسية وتجزأتها إلى أقاليم صغيرة ما بين الأسر الموالية لها لإبعاد شبح الخطر الروسي عن مملكة بولندا[١٧٦].

توجه ديمتري (الكذاب الثاني) في منتصف عام ١٦٠٨ بجيش من المرتزقة البولنديين قُدر بنحو (٧٠) ألف مقاتل في محاولة للسيطرة على موسكو ولكن القوات الروسية نجحت في صد الهجوم وأجبرته على التراجع إلى مقاطعة (توشينو)، حينذاك أدرك ديمتري استحالة دخول العاصمة مالم يتم تشتيت " **قوات النخبة** " الممسكة بالمدينة فقرر توسيع نطاق هجومه في مناطق حوض الفولغا الوسطى والعليا واللجوء إلى اسلوب " **الأرض المحروقة** ". لقد أثارت الأعمال البشعة التي قام بها المرتزقة البولنديون تذمر واستياء سكان تلك المناطق فشكلوا ما يعرف بـ "**جبهة الدفاع والمقاومة** " حيث استطاعت فصائل هذه الجبهة ان تتصدى وبحزم لهجوم (الكذاب الثاني) وتكبيد قواته خسائر كبيرة من خلال استدراجها إلى مناطق قتل منتخبة ونصب الكمائن وحرب العصابات[١٧٧].

وإزاء التدخل البولندي السافر في الشأن الداخلي الروسي وخطورة المتغيرات العسكرية التي شهدتها الاراضي الروسية اضطر شويسكي إلى طلب التحالف مع السويد بهدف الحصول على دعمها العسكري، وقد استجاب الملك (شارل التاسع) لرغبة قيصر روسيا رغم أن بلاده ليست في حالة عداء مع بولندا وذلك طبقاً لحسابات ستراتيجية تستند إلى تأمين مصالح السويد في الحصول على موطئ قدم فوق الأراضي الروسية، اذ وقع الجانبان على اتفاق "**فيبورغ**" في الثاني والعشرين من آذار ١٦٠٩ الذي تضمن موافقة الروس على تحمل النفقات العسكرية والتنازل عن منطقة (كوريل) ذات الاهمية الستراتيجية على الحدود الروسية -السويدية[١٧٨].

وحال وصول القوة السويدية البالغ عددها نحو (٣٠) ألف مقاتل شرع الجيش الروسي تحت قيادة ابن أخ القيصر (ميخائيل سكوبين) بمطاردة فلول المرتزقة البولنديين المتمركزين في حوض الفولغا وملاحقتهم إلى الحدود البولندية، وبذلك نجح الروس في

احباط المخطط البولندي القائم على افتراضية وجود " **ديمتري الحقيقي**" والحفاظ على وحدة روسيا[١٧٩].

لكن (سجسموند الثالث) ملك بولندا لم يذعن لهذه الهزيمة وعقد العزم على مهاجمة روسيا بالتعاون والتنسيق مع القائد القوزاقي (زولكيوسكي)، ففي الثاني والعشرين من آب ١٦٠٩ أمر جيشه بالتوغل داخل الاراضي الروسية واحتلال مدينة (سمولنسك) لتكون قاعدة انطلاق نحو بقية المدن المهمة وصولاً إلى موسكو، غير ان الجيش البولندي اضطر للتوقف عند أسوار المدينة ولم تفلح محاولاته في اقتحامها بسبب المقاومة العنيفة التي ابدتها القوات الروسية المدافعة، ونظراً لخطورة الموقف طلب القيصر من القائد سكوبين التحرك الفوري للحيلولة دون سقوط سمولنسك ومطاردة البولنديين إلى خارج الحدود بمساندة من القوة السويدية المنضوية تحت قيادته، ولكن الانكسار قد أصاب الجيش الروسي في أول تماس له مع القوات البولندية منتصف ايلول ١٦٠٩[١٨٠].

استثمر البولنديون حالة الارتباك التي حدثت في صفوف الجيش الروسي وتمكنوا من السيطرة على بعض المواقع الستراتيجية، الاّ أن قيادة الجيش البولندي وبعد تقدير دقيق للموقف الميداني ارتأت التريث في الهجوم على موسكو والتوقف عند مشارف مدينة (غلوشينو) لحين وصول التعزيزات التي وعد بها ملك ليتوانيا[١٨١].

وفي الوقت الذي كانت تخوض فيه القوات الروسية قتالاً شرساً وحالت دون اقتراب الجيش البولندي من موسكو فان مؤامرة كانت تُنسج شراكها من قبل زعماء البويار وبتحريض من الحكومة السويدية للإطاحة بالقيصر شويسكي واسناد ولاية العرش للقائد سكوبين الذي يحظى بمقبولية لدى مختلف فئات المجتمع الروسي، بيد أن عناصر "**الجهاز السري**" التابع للقيصر سارعت إلى اجهاض هذه المؤامرة بعد ان كشفت عن خيوطها وتمت تصفية سكوبين في ظروف غامضة[١٨٢].

القت هذه الأحداث بظلالها السلبية على المشهد السياسي الروسي حيث قام البويار وبمساندة من الدوڤريان وأصحاب المصالح والمتنفذين في السادس عشر من تموز

١٦١٠ بـ " **انقلاب ابيض**" ضد شويسكي وأجبروه على التنازل عن السلطة ومغادرة قصر الكرملين، وشرع الانقلابيون بتشكيل حكومة جديدة اسموها " **مجلس النبلاء السبعة** "، ثم قاموا بتسليم شويسكي إلى الحكومة البولندية ليقضي بقية حياته منفيا خارج البلاد حتى وافاه الأجل في الرابع من تشرين الثاني ١٦١٢ [١٨٣].

٢-٣٥: مجلس النبلاء السبعة (١٦١٠-١٦١٣)

بعد أن تمت الاطاحة بالقيصر ڤاسيلي شويسكي تشكلت حكومة من كبار نبلاء روسيا وهم " **مستيلاف فيودور ايفانوفتش، ايفان ميخائيلوفتش، اندرو الكسندروف تروبيتسكي، بوريس ميخائيلوفتش، ايفان نيكتش رومانوف، غولستين اندريه، بوريس فيدوروفتش**" وذلك أثر افتضاح أمر الاتصالات السرية التي أجراها هؤلاء النبلاء مع القائد البولندي (غونسفيسكي) والتنسيق معه لإقصاء شويسكي عن العرش الروسي مقابل اعلان الولاء لملك بولندا سجسموند الثالث[١٨٤].

شرعت حكومة النبلاء بالتفاوض مع الحكومة البولندية وتوصلت في الثامن عشر من آب ١٦١٠ إلى اتفاق تضمن الموافقة على ترشيح (فلاديسلاف) ابن ملك بولندا لاعتلاء عرش روسيا شرط تحوله إلى المذهب الارثذوكسي، وان يسبق ذلك دخول وحدات عسكرية بولندية إلى الاراضي الروسية لضبط الامن والسيطرة على الأوضاع في العاصمة وبقية المدن المهمة. وفي التاسع من ايلول " **وبعلم الحكومة الجديدة** " صدرت الاوامر إلى الجيش البولندي بالتقدم نحو موسكو وعدد من المدن الروسية. ولكن عناصر هذا الجيش " **لم تدع فرصة أمام الروس لتقبل سياسة الأمر الواقع**" بسبب الاجراءات الاستفزازية التي تجاوزت اعمال السلب والنهب والتطاول على الممتلكات الخاصة مما اثار مشاعر الغضب وولد التذمر لدى جميع فئات المجتمع الروسي [١٨٥]. لقد افرز التدخل البولندي المباشر في الشؤون الداخلية لروسيا تداعيات خطيرة كان أبرزها:

أولاً- الرفض الشعبي للوجود البولندي على الأراضي الروسية إذ أصبحت بولندا في نظر الروس " **دولة غازية محتلة وليست عدواً تقليدياً يسعى لتوسيع حدوده على حساب الجارة روسيا** "[186].

ثانياً- تأجيج الصراع المذهبي ما بين الأرثذوكسية والكاثوليكية [187].

ثالثاً- مقاومة سياسة الاحتلال البولندي الرامية إلى اعادة تقسيم روسيا ورفض تعيين حكام بولنديين لإدارة الاقاليم الروسية[188].

رابعاً- بروز تيار " **المقاومة الشعبية المسلحة**" لمواجهة الانتهاكات التي أقدم عليها الجيش البولندي بارتكابه ابشع المجازر الجماعية لاسيما في المناطق الشمالية الغربية التي رفض سكانها الاعتراف بشرعية حكم فلاديسلاف[189].

خامساً- غياب السلطة واضطراب الأمن في عموم البلاد الروسية مما قاد إلى الفوضى العارمة وزعزعة الاستقرار الداخلي، كما عاشت موسكو أحداثاً لم تشهد لها مثيلاً من قبل وخاصة تلك المجزرة المروعة التي ارتكبها البولنديون في السابع عشر من آذار ١٦١١ وراح ضحيتها نحو (٨) آلاف شخص بسبب استفزاز عناصر من الجيش البولندي لمواطنين روس في احد اسواق العاصمة[190].

أما على الصعيد الخارجي فقد استغل السويديون الظروف التي رافقت الغزو البولندي وتنصلوا عن تحالفهم مع الروس بإقدامهم على ضم مساحات واسعة من المناطق الشمالية المحاذية للحدود مع روسيا، كما اندفعت وحدات من الجيش السويدي نحو مدينة نوفغورود ذات الموقع الستراتيجي واخترقت دفاعات المدينة "**بالتنسيق مع عدد من البويار الخونة**" في تشرين الاول ١٦١١. ومما يجدر ذكره ان اتفاقاً سرياً أُبرم بين بويار نوفغورود والحكومة السويدية تضمن موافقة البويار على ترشيح أمير سويدي يتولى حكم المدينة مقابل منحهم المزيد من الامتيازات واشغال المناصب لذا وصفهم الروس بـ" **فاقدي**

الضمائر". ان القرار السويدي بالتوغل داخل الاراضي الروسية واحتلال نوفغورود استند في الواقع إلى تحقيق هدفين اساسيين[١٩١].

أولاً– قطع الطريق أمام الروس واحباط مشاريعهم التوسعية في مناطق البلطيق.

ثانياً– اضعاف الاقتصاد الروسي والحيلولة دون استمرار التجارة الروسية مع دول غرب أوروبا خاصة وان الجيش السويدي احكم سيطرته على ميناء (اركانجل) منفذ روسيا الوحيد الذي يربطها بالبحر.

أدرك الروس حقيقة الخطر الماثل الذي أصبح يهدد كيانهم ذلك" **ان الصراع مع القوى المجاورة لم يعد صراعاً تقليديا تمليه المصالح حسب، إنما كان تحدياً خطيراً يستهدف الكيان الروسي أرضاً وشعبا** "، لذا تعالت الأصوات الرافضة لوجود الغزاة الأجانب من بولنديين وسويديين على حد سواء حيث دعا قادة الكنيسة الأرثذوكسية وفي مقدمتهم رئيس دير الثالوث المقدس البطريرك (هرموجن) إضافة إلى قادة عسكريين ورجال أعمال إلى مقاومة جيوش الاحتلال والشروع بتشكيل فصائل مقاتلة من المتطوعين لتحرير الأراضي الروسية المحتلة. واسفرت جهود هؤلاء عن تشكيل (٣) فصائل للمقاومة المسلحة من " **القوزاق الخدم، قوزاق الدون، الميليشيات الأرستقراطية** "، وقد اتفق زعماء هذه الفصائل على الانضواء تحت قيادة موحدة باسم" **مجلس الحرب الاعلى** " الا أن هذا المجلس لم يستمر طويلاً بسبب نشوب الخلافات بين الميليشيات الارستقراطية وقوزاق الدون الامر الذي أدى إلى انسحاب الميليشيات من ساحة المواجهة مع البولنديين[١٩٢].

وفي خضم هذه التوترات قام (كوزمانيسكي) احد أثرياء روسيا وحاكم مدينة (نينجي نوفغورود) بتشكيل قوة قتالية من المتطوعين وفصائل المقاومة الاوكرانية بلغ عددها نحو(١٠) آلاف مقاتل بقيادة الأمير (بوجارسكي) ابن القيصر المخلوع فاسيلي شويسكي، اذ تمكن الأمير من الحاق الهزيمة بالقوات البولندية التي اضطرت للتراجع والانسحاب إلى مدينة ياروسلاف وتحرير اراضي الفولغا بالكامل[١٩٣].

واثر الانتصارات التي حققتها المقاومة الروسية في جبهة الفولغا سارع بوجارسكي إلى اعادة تنظيم قواته فاعد خطة شاملة تضمنت تدريب المتطوعين على فنون القتال وتامين متطلبات المعركة من السلاح والذخيرة استعداداً للمواجهة الحاسمة مع البولنديين المتمركزين في مدينة ياروسلاف ذات الموقع الستراتيجي، وبعد ان اتم الروس استعداداتهم شرعوا في الثلاثين من آذار ١٦١٢ بهجوم صاعق على الجيش البولندي المتحصن في ياروسلاف فكبدوه خسائر كبيرة بلغت نحو الفي قتيل وجريح، الامر الذي اضطر قادة الجيش إلى التفكير بالانسحاب واخلاء المدينة تفادياً للوقوع في فخ الحصار وذلك بعد تلقيهم معلومات مؤكدة عن وصول تعزيزات اضافية من المتطوعين الروس إلى ساحة المعركة(١٩٤).

وعقب انسحاب الجيش البولندي من ياروسلاف تم الاعلان عن تشكيل حكومة مؤقتة برئاسة بوجارسكي سميت بـ " **المجلس الاعلى للمقاومة الروسية** " ضمت عناصر وطنية رافضة للاحتلال، وكان الاعلان عن هذه الحكومة بمثابة بارقة أمل لتخطي الاوضاع السيئة التي عاشتها المدينة وما لحق بها من دمار. أما بوجارسكي فقد برز كقائد سياسي وعسكري وحظي بتأييد شعبي واسع مما أثار المخاوف لدى حكومة البويار "**مجلس النبلاء**" التي سارعت إلى تعزيز دفاعات العاصمة وقصر الكرملين بقوة بولندية إضافية كإجراء احترازي ووقائي من احتمالية قيام بوجارسكي بمهاجمة موسكو(١٩٥).

اعتقد بوجارسكي ان" **التفويض الشعبي**" الذي حصل عليه من مختلف فئات المجتمع الروسي قد وضعه أمام " **مسؤولية تاريخية كبرى**"، فعقد العزم على تحرير موسكو من ايدي الغزاة البولنديين اولاً أثر تلقيه معلومات تؤكد سعي بولندا للتحالف مع السويد والتخطيط لاقتسام الاراضي الروسية، وفي الوقت ذاته سارع إلى التفاوض مع الحكومة السويدية" **كإجراء تكتيكي**" لكسب الوقت وعرقلة قيام هكذا تحالف لتفادي القتال على أكثر من جبهة واحدة في حال الشروع بمهاجمة الجيش البولندي الذي مازال يحتل العاصمة، واسفرت المفاوضات عن توقيع " **اتفاق مرحلي**" في مايس ١٦١٢ تضمن

الضمائر". ان القرار السويدي بالتوغل داخل الاراضي الروسية واحتلال نوفغورود استند في الواقع إلى تحقيق هدفين اساسيين[١٩١].

أولاً– قطع الطريق أمام الروس واحباط مشاريعهم التوسعية في مناطق البلطيق.

ثانياً– اضعاف الاقتصاد الروسي والحيلولة دون استمرار التجارة الروسية مع دول غرب أوروبا خاصة وان الجيش السويدي احكم سيطرته على ميناء (اركانجل) منفذ روسيا الوحيد الذي يربطها بالبحر.

أدرك الروس حقيقة الخطر الماثل الذي أصبح يهدد كيانهم ذلك" **ان الصراع مع القوى المجاورة لم يعد صراعاً تقليديا تمليه المصالح حسب، إنما كان تحدياً خطيراً يستهدف الكيان الروسي أرضاً وشعبا** "، لذا تعالت الأصوات الرافضة لوجود الغزاة الأجانب من بولنديين وسويديين على حد سواء حيث دعا قادة الكنيسة الأرثذوكسية وفي مقدمتهم رئيس دير الثالوث المقدس البطريرك (هرموجن) إضافة إلى قادة عسكريين ورجال أعمال إلى مقاومة جيوش الاحتلال والشروع بتشكيل فصائل مقاتلة من المتطوعين لتحرير الأراضي الروسية المحتلة. واسفرت جهود هؤلاء عن تشكيل (٣) فصائل للمقاومة المسلحة من " **القوزاق الخدم، قوزاق الدون، الميليشيات الأرستقراطية** "، وقد اتفق زعماء هذه الفصائل على الانضواء تحت قيادة موحدة باسم" **مجلس الحرب الاعلى** " الا أن هذا المجلس لم يستمر طويلاً بسبب نشوب الخلافات بين الميليشيات الارستقراطية وقوزاق الدون الامر الذي أدى إلى انسحاب الميليشيات من ساحة المواجهة مع البولنديين[١٩٢].

وفي خضم هذه التوترات قام (كوزمانيسكي) احد أثرياء روسيا وحاكم مدينة (نينجي نوفغورود) بتشكيل قوة قتالية من المتطوعين وفصائل المقاومة الاوكرانية بلغ عددها نحو(١٠) آلاف مقاتل بقيادة الأمير (بوجارسكي) ابن القيصر المخلوع فاسيلي شويسكي، اذ تمكن الأمير من الحاق الهزيمة بالقوات البولندية التي اضطرت للتراجع والانسحاب إلى مدينة ياروسلاف وتحرير اراضي الفولغا بالكامل[١٩٣].

واثر الانتصارات التي حققتها المقاومة الروسية في جبهة الفولغا سارع بوجارسكي إلى اعادة تنظيم قواته فاعد خطة شاملة تضمنت تدريب المتطوعين على فنون القتال وتامين متطلبات المعركة من السلاح والذخيرة استعداداً للمواجهة الحاسمة مع البولنديين المتمركزين في مدينة ياروسلاف ذات الموقع الستراتيجي، وبعد ان اتم الروس استعداداتهم شرعوا في الثلاثين من آذار ١٦١٢ بهجوم صاعق على الجيش البولندي المتحصن في ياروسلاف فكبدوه خسائر كبيرة بلغت نحو الفي قتيل وجريح، الامر الذي اضطر قادة الجيش إلى التفكير بالانسحاب واخلاء المدينة تفادياً للوقوع في فخ الحصار وذلك بعد تلقيهم معلومات مؤكدة عن وصول تعزيزات اضافية من المتطوعين الروس إلى ساحة المعركة(١٩٤).

وعقب انسحاب الجيش البولندي من ياروسلاف تم الاعلان عن تشكيل حكومة مؤقتة برئاسة بوجارسكي سميت بـ " **المجلس الاعلى للمقاومة الروسية** " ضمت عناصر وطنية رافضة للاحتلال، وكان الاعلان عن هذه الحكومة بمثابة بارقة أمل لتخطي الاوضاع السيئة التي عاشتها المدينة وما لحق بها من دمار. أما بوجارسكي فقد برز كقائد سياسي وعسكري وحظي بتأييد شعبي واسع مما أثار المخاوف لدى حكومة البويار "**مجلس النبلاء**" التي سارعت إلى تعزيز دفاعات العاصمة وقصر الكرملين بقوة بولندية إضافية كإجراء احترازي ووقائي من احتمالية قيام بوجارسكي بمهاجمة موسكو(١٩٥).

اعتقد بوجارسكي ان" **التفويض الشعبي**" الذي حصل عليه من مختلف فئات المجتمع الروسي قد وضعه أمام " **مسؤولية تاريخية كبرى**"، فعقد العزم على تحرير موسكو من ايدي الغزاة البولنديين اولاً أثر تلقيه معلومات تؤكد سعي بولندا للتحالف مع السويد والتخطيط لاقتسام الاراضي الروسية، وفي الوقت ذاته سارع إلى التفاوض مع الحكومة السويدية" **كإجراء تكتيكي**" لكسب الوقت وعرقلة قيام هكذا تحالف لتفادي القتال على أكثر من جبهة واحدة في حال الشروع بمهاجمة الجيش البولندي الذي مازال يحتل العاصمة، واسفرت المفاوضات عن توقيع " **اتفاق مرحلي**" في مايس ١٦١٢ تضمن

موافقة بوجارسكي على احتفاظ السويد بالمناطق التي احتلها الجيش السويدي مقابل التخلي عن فكرة التحالف مع بولندا(١٩٦).

واثر فشل مساعي الحكومة البولندية الهادفة إلى التحالف مع السويد قررت قيادة الجيش البولندي ارسال المزيد من المقاتلين المرتزقة للحيلولة دون سقوط موسكو بأيدي المقاومة الروسية، ولكن بوجارسكي ادرك اهمية استثمار عامل الوقت فقرر الزحف نحو موسكو قبل وصول التعزيزات العسكرية البولندية حيث تمكنت قواته من دخول العاصمة بعد قتال شرس استمر لـ(٣) ايام، الامر الذي أجبر البولنديين على التراجع والتحصن في قصر الكرملين وبقية القلاع المحيطة به الا انهم اضطروا للاستسلام بسبب نفاذ الذخيرة وتأخر وصول الامدادات العسكرية(١٩٧).

وازاء هذه التطورات لم يعد باستطاعة اعضاء "**مجلس النبلاء السبعة**" القيام باي تحرك سوى الهروب مع الجيش البولندي المهزوم ومغادرة موسكو، وبذلك سنحت الفرصة لأن يتبنى بوجارسكي دعوة "**مجلس الاقاليم** " للاجتماع في العاصمة والتشاور في مسألة اختيار قيصر جديد للبلاد، وقد ابدت مختلف فئات المجتمع الروسي تأييدها الواسع لهذه الدعوة من أجل تقرير " **مستقبل روسيا السياسي** " وتجاوز الاثار السلبية التي افرزتها المرحلة السابقة(١٩٨).

عقد مجلس الاقاليم اجتماعه الأول في الرابع من كانون الثاني ١٦١٣ واتخذ قراراً حاسماً نص على استبعاد أي شخص ثبت تعاونه مع الاحتلال البولندي أو بقية القوى الاجنبية الطامعة من تولي الحكم في روسيا، كما احبط المجلس مشروعاً تبناه مجموعة من البويار لترشيح ابن ملك بولندا (الأمير فلاديسلاف) للعرش الروسي. وبعد مداولات ومشاورات استمرت اسبوعين وقع الاختيار على(ميخائيل فيودوفتش رومانوف) وهو من الشخصيات التي تنتسب لإحدى الاسر النبيلة ويحظى بدعم وتأييد قادة الكنيسة الأرثذوكسية وكبار البويار(١٩٩)، وبذلك ابتدأت صفحة جديدة في تاريخ روسيا الحديث بتصدر اسرة رومانوف الحكم للفترة (١٦١٣-١٩١٧).

٣ـ أسرة رومانوف:

احدى الاسر النبيلة ذات الاصول الليتوانية وقد اصبح زعماء هذه الاسرة من كبار بويار روسيا بعدما استحوذوا على مساحات شاسعة من الاراضي الزراعية سواء عن طريق المال أو القوة، فيما برزت مكانتهم السياسية اثر زواج القيصر ايفان الرابع من (انتاسيا) ابنة رومانوف عام ١٥٤٧ حيث تعززت هذه المكانة ببروز ابن اخيها (فيدور) كأحد قادة الكنيسة الارثوذكسية الامر الذي مهد الطريق فيما بعد أمام ابنه ميخائيل لاعتلاء العرش الروسي [٢٠٠].

٣ـ١: القيصر ميخائيل رومانوف (١٦١٣ـ١٦٤٥)

ولد في موسكو عام ١٥٩٦ من أم المانية الاصل تدعى (كزينا شيستوفا)، تم انتخابه بالإجماع من قبل اعضاء مجلس الأقاليم الروسي (الزيمسكي) في الحادي والعشرين من شباط ١٦١٣ وذلك للأسباب الآتية[٢٠١]:

أولاً– الشعبية الواسعة التي كان يحظى بها بين سكان الريف والقوزاق الخدم.

ثانياً– لم تكن له اية صلة أو ارتباطات بالقوى الخارجية الطامعة ب روسيا.

ثالثاً– ان مقبولية وجود رومانوف على رأس هرم السلطة بالنسبة للأوساط الروسية سوف يفسح المجال امام البويار الذين اوصلوه إلى الحكم لاستغلال صغر سنه والهيمنة على القرار السياسي بما يتوافق مع مصالحهم الخاصة.

ورغم ان انتخاب رومانوف لاشغال العرش الروسي وضع حداً للاضطرابات الناشئة عن الصراع على السلطة بين مختلف الاجنحة والذي كاد يهدد وجود الدولة الروسية، الا ان القيصر الجديد واجه تحديات خطيرة مسّت استقلاليته في اتخاذ القرار السياسي بسبب هيمنة كبار البويار من اسرتي (ساليتكوف وتشيرسكي) على شؤون الدولة وممارستهم السلطة الفعلية في حكم البلاد، كما شكل النبلاء أدوات ضغط على القيصر بهدف الحفاظ على امتيازاتهم وضمان مصالحهم الخاصة[٢٠٢].

لم يكن وصول ميخائيل رومانوف إلى الحكم وتصديه لقيادة البلاد بالمهمة اليسيرة بسبب التداعيات والتعقيدات الناشئة عن المرحلة السابقة، فعلى الصعيد الداخلي استفحل نشاط العصابات المسلحة وانعدم الأمن وتدهور الاقتصاد بسبب تراجع التبادلات التجارية الامر الذي انعكس سلباً على المستوى المعاشي وارتفاع مستوى الفقر، اما على الصعيد الخارجي فان القوات البولندية مازالت تحتل مدينة سمولنسك وهي على اهبة الاستعداد لمهاجمة موسكو والمناطق المحيطة بها، كما ان الجيش السويدي احكم سيطرته على مدينة نوفغورود وتحصن فيها (٢٠٣).

وازاء هذه التحديات اتخذ رومانوف في سنوات حكمه الاولى عددا من القرارات المهمة الهادفة إلى اعادة هيبة الدولة وتعزيز مركزية السلطة الشرعية بعيداً عن تأثيرات وتدخلات القوى المتنفذة وفي مقدمتهم كبار البويار منها(٢٠٤):

أولاً– تأسيس جيش جديد موالٍ للبلاط القيصري باسم "**الكتائب العسكرية**" حيث تمكنت هذه الكتائب من القضاء على مظاهر الفوضى الناجمة عن الانفلات الأمني جرّاء ما قامت به العصابات المسلحة وقطاع الطرق.

ثانياً– اعادة النظر في نظام الضرائب ورسوم الكمارك وطرق جبايتها مما ساهم في سد جانب من العجز المالي الذي كانت تعاني منه الخزينة الروسية.

ثالثاً– اصلاح النظام القضائي وتشريع ما يعرف بـ "**القانون المدني الجديد**".

رابعاً– اعادة النظر في إدارة الاقاليم وتخويل الحكام المحليين صلاحيات واسعة بهدف القضاء على مظاهر الفوضى والاضطرابات حتى وان تطلب الأمر اللجوء إلى استخدام القوة.

خامساً– تطهير المؤسسة العسكرية من القيادات المشكوك في ولائها للقيصر، واختيار قادة اكفاء انيطت بهم مسؤولية وضع الخطط اللازمة لمواجهة القوى الخارجية واستعادة المدن الروسية المحتلة من قبضة القوات البولندية والسويدية.

سادساً– شمول المؤسسة الدينية بالإصلاح وذلك بالتأكيد على دور الكنيسة في ترسيخ العقائد الأرثوذكسية بعيداً عن المغالات، ودعوة رجال الدين إلى تطبيق التعاليم الصحيحة للإنجيل وعدم التمسك بالنسخ المحرفة.

سابعاً– الاستعانة بالخبرات الاجنبية في تطوير الصناعات الروسية لاسيما صناعة الاسلحة.

ثامناً– الاهتمام بالزراعة والثروة الحيوانية في خطوة لدعم الاقتصاد الروسي ومواجهة العجز الذي كانت تعاني منه خزينة الدولة بسبب زيادة الانفاق العسكري.

وفي الوقت الذي انشغل فيه الروس بتهيئة الاستحضارات العسكرية الخاصة باستعادة اراضيهم ومدنهم المحتلة قامت القوات السويدية تحت قيادة الملك غوستاف (١٦١١-١٦٣٢) بالتوغل في عمق الاراضي الروسية، ورغم ان هذه القوات اصبحت على مقربة من موسكو الآ ان الجيش الروسي نجح في صد الهجوم وتمكن من ابعاد الخطر عن العاصمة، ومما تجدر الاشارة اليه ان التجار والمستثمرين الانكليز والهولنديين طالبوا حكوماتهم بممارسة الضغوط على الملك غوستاف لسحب قواته من روسيا خشية تأثر مصالحهم التجارية هناك، وقد تمخضت هذه الضغوط عن موافقة الملك السويدي على توقيع " **اتفاق سلام** " في الثالث والعشرين من شباط ١٦١٧ تضمن احتفاظ السويد بمقاطعتي كاريليا وليفونيا الستراتيجتين للحيلولة دون وصول الروس إلى سواحل البلطيق مقابل الانسحاب من نوفغورود وسترايا ولادوغا وبعض المدن الصغيرة الاخرى[٢٠٥].

أما على صعيد المواجهة مع بولندا فقد أدرك الروس حينذاك ضرورة تفادي القتال ضد الجيش البولندي الذي مازال يحتل مدنا مهمة داخل الاراضي الروسية واللجوء إلى " **التسوية الدبلوماسية** " خاصة وان الامير فلاديسلاف ابن ملك بولندا سجسموند الثامن لم يتنازل عن مطلبه في عرش موسكو، لذا شرعت الحكومة الروسية بالتفاوض مع الحكومة البولندية حيث توصل الجانبان في مطلع عام ١٦١٨ إلى هدنة امدها (١٤) عاماً تضمنت شرطين اساسيين : (الأول): بقاء الجيش البولندي بالمناطق التي سبق وان احتلها في المدة

(١٦١٣-١٦١٧) ولاسيما مدينة سمولنسك الستراتيجية و(الثاني): تبادل الاسرى بين الجانبين على ان يشمل الاسقف (فيلارث) والد القيصر ميخائيل[٢٠٦].

تبنى الروس في المرحلة التي أعقبت توقيع الهدنة مع بولندا ستراتيجية قائمة على قاعدة " **التوسع نحو الشرق** " اذ اندفعت اعداد كبيرة منهم باتجاه سيبريا واستقرت في السهول الجنوبية والشرقية على امتداد الانهار المتشعبة في هذه المنطقة ومارسوا اعمال الزراعة والرعي، وقد ساهمت فصائل القوزاق (الدون، البتريك، الايك) في خدمة المشروع التوسعي الروسي اذ التحقوا بالروس وتوجهوا إلى سيبريا سعيا وراء الحصول على الثروة وبخاصة المتاجرة بالفراء . ورغم الاغراءات التي قدمها القيصر ميخائيل للقوزاق بان ينضووا اسميا تحت " **الراية الروسية**" الاّ انه لم يرغمهم على اداء الولاء له أو يكونوا رعايا مباشرين وبقوا كياناً مستقلاً تم التعامل معه ضمن الاطار الرسمي من خلال قسم السفارات المسؤول عن تنظيم الشؤون الخارجية الروسية [٢٠٧] . ومما تجدر الاشارة اليه ان الروس مارسوا ضغوطاً شديدة على القوزاق الدون وحالوا ثنيهم عن مهاجمة الممتلكات العثمانية في القرم تفاديا لاحتمالية تورط روسيا في حرب غير مستعدة لها، ولكن القوزاق لم يستجيبوا للنصائح الروسية اذ اقدموا في تموز ١٦٢٩ على مهاجمة الجيش العثماني المرابط هناك الأمر الذي اثار غضب القيصر ميخائيل وكذلك استياء بطريرك الكنيسة الارثذوكسية فيلارث الذي هددهم بالحرمان الكنسي، ونتيجة لنفاذ صبر القيصر قرر في اواخر عام ١٦٣١ ارسال مبعوث شخصي عنه ليبلغ قادة القوزاق الدون " **بأن يعلنوا الولاء التام واطاعة اوامر القيصر** " [٢٠٨]، غير ان هؤلاء القادة اقدموا على قتل المبعوث، ولم يكن بوسع الحكومة الروسية القيام باي اجراء انتقامي وقتذاك سوى قطع العلاقات الدبلوماسية اذ كان اهتمامها منصّبا على الحرب ضد بولندا مستغلة فرصة الصراع على العرش البولندي اثر الاعلان عن وفاة الملك سجسموند الثالث في شباط ١٦٣٢ [٢٠٩].

أصدر القيصر ميخائيل أوامره إلى القائد (لاشايين) بمهاجمة القوات البولندية المتمركزة في مدينة سمولنسك، ولكن هذه القوات بقيادة الامير (لاديسيلا) نجحت في صد

الهجوم وتمكنت من محاصرة الجيش الروسي وقطع طرق امداداته مما اجبر الروس على الاستسلام، ويبدو ممكنا القول ان هذه الهزيمة القاسية المبكرة قد حصلت بفعل عاملين اساسيين [٢١٠]:

الأول– تفوق الجيش البولندي من حيث العدد والتدريب واساليب التعبئة العسكرية.

الثاني– عجز القيادات الروسية عن ادامة زخم المعركة وفك الحصار عن الجيش الروسي الذي احاطت به القوات البولندية في محيط سمولنسك، فقد انشغلت تلك القيادات بالتصدي لتتار القرم الذين شرعوا بمهاجمة المقاطعات الجنوبية بالقرب من الحدود الروسية.

واثر هذه الهزيمة " **غير المتوقعة** " وبعد حرب متقطعة استمرت عامين امتثل الروس للشروط القاسية التي املاها البولنديين بموجب معاهدة (بوليانوف) في مايس ١٦٣٤، اذ اقرت روسيا بالتنازل النهائي عن مدينة سمولنسك ودفع غرامة حربية بنحو (٢٠) الف روبل مقابل اعتراف الحكومة البولندية بـ ميخائيل رومانوف قيصراً على العرش الروسي، هذا ولم يجد الاخير من تبرير لهزيمة بلاده سوى توجيه تهمة " **الخيانة العظمى** " للقائد لاشايين وتحميله مسؤولية الكارثة العسكرية التي حلت بالقوات الروسية[٢١١].

وعقب انتهاء الحرب مع بولندا ادرك القيصر ميخائيل ان من مصلحة روسيا تجنب أي صراع مسلح ربما يقود إلى مزيد من الانهيارات على الصعيدين العسكري والاقتصادي، لذا رفض عام ١٦٣٧ زج بلاده في حرب ضد الدولة العثمانية بسبب الهجمات التي قام بها رعاياه القوزاق على القلاع التركية في بحر آزوف، اذ قدم زعماء القوزاق اقتراحا تضمن ارسال قوة روسية تتولى مهمة فرض السيطرة على املاك الاتراك هناك، ولكن القيصر اعتقد جازما انه لا يمكن الخوض في هكذا "**مغامرة**" لاسيما وان تلك القلاع تحتل اهمية ستراتيجية في الحسابات العثمانية كونها منافذ رئيسية للوصول إلى آزوف، وازاء موقف القيصر المتشدد اضطر القوزاق إلى اخلاء القلاع وتدميرها وقرروا الانسحاب إلى داخل الاراضي الروسية[٢١٢].

وفي السنوات الاخيرة من حكم ميخائيل حقق الروس نجاحات مهمة في الوصول إلى المحيط الهادي عند بحر (اوخستك)، ونشطت تجارة الفراء واسست بعض المدن وفي مقدمتها (تومسك) في سيبريا الغربية، كما استولوا على نهر (لينا) واسسوا مدينة على هذا النهر عرفت بـ(ياكوستك) ، وبينما كانت جهود الروس منصبّة على اختراق اراضي نهر (آمور) وتعزيز تواجدهم في جهات سيبريا الشرقية فان المرض قد داهم القيصر وادى إلى وفاته في الثاني عشر من تموز ١٦٤٥ فخلفه على العرش ابنه (الكسس)[٢١٣].

٢-٣: القيصر الكسس ميخائيل (١٦٤٥-١٦٧٦):

ولد في موسكو عام ١٦٢٩ وتلقى تعليمه الديني مبكراً على يد جده الاسقف فيلارث فيما درس الآداب السلافية وفنونها وتعلم عدد من اللغات الاجنبية على يد معلمه ومربيه (مورزوف)، تأثر بالثقافة الاوربية وعرف بسعة اطلاعه على مختلف العلوم الطبيعية والانسانية لاسيما علم السياسة، ترك ارثا ادبيا مهماً في الشعر والنثر فضلاً عن مذكراته التي ضمّنها مراسلاته مع الاقرباء والاصدقاء حيث بلغت نحو (١٠٠) رسالة اتسمت بالفصاحة والاسلوب الادبي الرصين. وذكرت احدى الدراسات ان الكسس كان رجلاً مؤمنا حريصاً على حضور القداسات في المناسبات الدينية الأرثدوكسية فضلاً عن التزامه بأداء الفراض والعبادات[٢١٤].

واجهت القيصر الجديد تحديات داخلية خطيرة كان ابرزها تآمر البويار ومحاولاتهم الهادفة إلى تنحيته عن السلطة لذا سارع إلى اتخاذ عدد من القرارات أهمها[٢١٥]:

أولاً– تعيين استاذه وزوج اخته مورزوف مستشاراً له وذلك لما يتمتع به من مؤهلات سياسية وادارية بحكم صلته وقربه من البلاط.

ثانياً– حل مجلس الدوما القديم والمجيء بعناصر جديدة من ابناء النبلاء الموالين لأسرة رومانوف.

ثالثاً– اعادة النظر في تطوير المؤسسة العسكرية الروسية من حيث اختيار القادة وتحديث الاسلحة واعداد المقاتلين.

رابعاً– زيادة موارد الخزينة الروسية عن طريق فرض ضرائب جديدة ومنها **"ضريبة الملح"** التي اعتبرت بموجب القرار القيصري الصادر في ايلول ١٦٤٦ من الضرائب المباشرة التي تفرض على جميع الروس دون استثناء.

قادت السياسة الجديدة التي انتهجها القيصر إلى امتعاض مختلف طبقات المجتمع الروسي لاسيما الفقراء والمعدمين الذين طالتهم الضرائب المباشرة ومنها ضريبة الملح، كما برزت نزعة الصراع الطبقي بسبب سياسات البطش التي مارسها مستشاره مورزوف واعوانه ولجوئهم إلى مصادرة الأراضي الزراعية واحتكار تصدير المنتجات إلى الخارج . ويبدو ممكنا القول ان حالة التذمر التي عانى منها الروس آنذاك ادت إلى تأزم الاوضاع في موسكو وبقية المدن الروسية، ففي الثاني من حزيران ١٦٤٨ شهدت العاصمة خروج تظاهرات حاشدة مطالبة القيصر الذي عاد لتوه من حج الاماكن المقدسة بمحاسبة المستشار مورزوف واتباعه، غير ان الحرس القيصري بادر على الفور إلى اطلاق النار وتفريق المتظاهرين للحيلولة دون وصولهم إلى قصر الكرملين . وفي اليوم التالي تجددت التظاهرات مرة اخرى حيث قامت مجاميع المتظاهرين بمهاجمة بيوت البويار واولها بيت مورزوف، والقت القبض على صاحب مقترح ضريبة الملح المدعو (الاب نيستوي) فأقدمت على قتله والتمثيل بجثته ثم توجهت إلى الكرملين مطالبة القيصر بتسليم مورزوف ومساعديه، وبهدف احتواء الموقف وعد الكسس قادة التظاهرات بالاستجابة لطلبهم ولكنه في الواقع قام بتهريب المطلوبين إلى أحد الاديرة خارج العاصمة تفاديا للانتقام [٢١٦].

اتسعت التظاهرات فشملت بقية المدن الروسية حيث اجمع قادتها على تقديم لائحة مطالب للحكومة تضمنت ما يأتي [٢١٧]:

أولاً– عزل مورزوف وجميع مساعديه عن السلطة واعادة جميع الاراضي التي استحوذوا عليها إلى اصحابها الشرعيين.

ثانياً– اعادة النظر في مسألة الضرائب وتخفيض نسبها.

ثالثاً– وضع آلية لجباية مبالغ الضرائب ومعاقبة الموظفين المرتشين.

وازاء استمرار مظاهر الفوضى لم يعد أمام القيصر من سبيل سوى اعادة النظر في القوانين السائدة وتنقيحها لمواجهة التحديات القائمة وقتذاك، لذا دعا "**المجلس الوطني الاكبر**" برئاسة البطريرك (نيكون) إلى الانعقاد في كانون الثاني ١٦٤٩ لوضع خطة شاملة تختص بمراجعة القوانين وبما يضمن استقرار الدولة وهيبتها، وبعد نقاشات مستفيضة مع اللجنة القانونية التي شكلها القيصر برئاسة الامير (ادوفسكي) صادق المجلس على ما يعرف بـ "**نظام القوانين**" الذي ضم (٢٥) فصلا متخصصا و(٩٦٧) مادة، كما أوصى بإصدار (١١٧٣) نسخة منه لتوزع على كافة الاقاليم والمدن الروسية[٢١٨].

والواقع ان مسألة الاصلاح القانوني التي تبناها الكسس لم تفلح في حلحلت المشاكل الداخلية التي كانت تعاني منها بلاده، اذ سرعان ما تجددت التظاهرات مرة اخرى في موسكو ونوفغورود بسبب ارتفاع اسعار الحبوب نتيجة القحط الذي طال روسيا عام ١٦٥٠، وقد حمّل المتظاهرون الغاضبون الحكومة الروسية مسؤولية ما آلت اليه الامور آنذاك وذلك لسببين (الأول): عجز الحكومة في ردع التجار الذين استغلوا الازمة وتحكموا في زيادة الاسعار و(الثاني): استمرار الحكومة ذاتها بشراء الحبوب من الاسواق المحلية وتصديرها إلى السويد تنفيذاً لاتفاق سابق مبرم بين القيصر والملك السويدي في تشرين الاول ١٦٤٦ . ورغم التنسيق الذي جرى بين الحكومة وكبار رجال الدين لامتصاص نقمة المتظاهرين بالتلويح إلى "**سخط الرب ولعنة الكنيسة**" الا ان جموع الناقمين لم يأبهوا بذلك مما اضطر القيصر إلى تعليق الاتفاق المبرم مع السويد[٢١٩].

عرف عن القيصر الكسس تأثره بمظاهر الحضارة الاوربية في مجالات التعليم والثقافة والصناعة الامر الذي جعله يصطدم بمعارضة رجال الدين الارثذوكس "**للثقافة اللاتينية**" باعتبارها مفسدة لعقول الشباب حسب رأيهم ، ولكن القيصر لم يلتفت إلى اقوالهم بل سعى إلى تحجيم دورهم فامر بتنزيل المراتب الدينية لعدد غير قليل منهم وتم نفيهم إلى سيبريا وفي مقدمتهم البطريرك نيكون . وازاء هذا الخلاف حدد المجلس الكنسي العلاقة بين القيصر والبطريرك بان يمارس الاول سلطته الدنيوية بينما يختص الثاني بالسلطة الدينية مما

قاد إلى " **انشقاق الكنيسة الروسية إلى أرثذوكسية حاكمة وأرثذوكسية ذات طقوس دينية** " (٢٢٠).

أما على الصعيد الخارجي فقد استغلت بولندا حالة الفوضى والاضطرابات التي شهدتها روسيا فأقدمت بالتعاون مع ليتوانيا على احتلال بعض الاقاليم الغربية ومنها اوكرانيا وغاليسيا، وفي الوقت ذاته شرع البولنديون بتنفيذ مخطط كان يهدف إلى كثلكة سكان هذه الاقاليم عن طريق تقديم الدعم للآباء اليسوعيين وانشاء المدارس الدينية . ونظراً للظروف الصعبة التي كانت تمر بها روسيا اقتصادياً وتعبوياً ارتأى الروس التريث في مواجهة القوات المهاجمة ولكنهم انتهجوا سياسة تقوم على ركيزتين، (الاولى) تشكيل فصائل للمقاومة المسلحة و(الثانية) التصدي لعمل المبشرين الكاثوليك وذلك بترسيخ مبادئ الأرثذوكسية لدى سكان تلك المناطق حيث تولى الاميران (اوسترجسكي) و(كوبرنسكي) مهمة طباعة تعاليم المذهب الأرثوذكسي (٢٢١).

وبسبب الضغوطات التي مارستها قوات الاحتلال البولندي ضد الاوكرانيين شكل القوزاق بقيادة الامير (بوقدان) تحالفا مع تتر القرم عام ١٦٥٣ وتمكنوا من الحاق الهزيمة بالبولنديين واجبروهم على توقيع معاهدة تضمنت شرطين اساسيين: (الاول): اعتراف الحكومة البولندية بالقوزاق كجيش مستقل على ان لا يزيد عدد افراده عن (٤٠) الف مقاتل، و(الثاني) عدم السماح للجيش البولندي بدخول اوكرانيا الامر الذي اعتبره البولنديون " **اذلالا** " بسبب هذه الشروط المخزية . لذلك تجددت الحرب مرة اخرى اذ نجحت القوات البولندية في الحاق الهزيمة بالقوزاق الاوكرانيين بعدما تنصل التتر عن تحالفهم لقاء الرشاوى التي تلقوها من ملك بولندا (٢٢٢).

أدرك الاوكرانيون ان مواجهة اطماع بولندا تتطلب الانضواء رسمياً تحت سيادة الدولة الروسية لذا توصل زعماء القوزاق إلى اتفاق مع القيصر الكسس في الثامن عشر من كانون الثاني ١٦٥٤ عرف بـ " **اتفاق بيرياسلاف** " المتضمن البنود الآتية (٢٢٣):

١- حصول موافقة القيصر ومجلس الدوما على ضم اوكرانيا إلى دولة روسيا.

٢- تمتع اوكرانيا بحكم ذاتي تحت راية دولة القيصر.

٣- حق اوكرانيا في الاحتفاظ بجيش قوامه نحو (٦٠٠٠) مقاتل.

استغل ملك السويد تدهور الاوضاع الداخلية في بولندا مطلع عام ١٦٥٥ فأوعز إلى جيشه باجتياز الحدود البولندية واحتلال بعض المدن المهمة، الامر الذي حفز القيصر الكسس على اغتنام الفرصة واعلان الحرب ضد بولندا حيث تمكن الجيش الروسي من استعادة سمولنسك والاندفاع داخل الاراضي البولندية فاحتل مدن (ڤيلنا وكوفونو ولوبلين) ، وقد استمرت حالة الحرب " **المتقطعة** " بين الدولتين حتى عام ١٦٦٧ وانتهت بالتوقيع على معاهدة (آندرسوفو) وفقاً للشروط الآتية[٢٢٤]:

١- اعتراف بولندا بتبعية سمولنسك للدولة الروسية.

٢- تخلي بولندا عن اطماعها في كييف.

٣- تقسيم اوكرانيا إلى قسمين (الاول) ضفة غرب الدنيبر تعاد إلى بولندا و(الثاني) ضفة شرق الدنيبر تبقى موحدة تحت زعامة موسكو.

٤- يستمر سريان المعاهدة لمدة (١٣) عاماً.

توفي القيصر الكسس عام ١٦٧٦ وكان له من زوجته الاولى (ماريا ميلو سلافسكي) ولدان هما (فيودور) و(ايفان) اضافة إلى (٦) بنات وابرزهن الاميرة (صوفيا)، ومن زوجته الثانية (ناتاليا نارشيكين) ولد اسمه (بطرس) وابنة هي الاميرة (آن)، وقبل وفاته بعامين كان قد نادى بابنه البكر فيودور وليا للعهد فتولى الحكم وهو في سن (١٥) عاماً[٢٢٥].

٣-٣: القيصر فيودور الثالث (١٦٧٦-١٦٨٢)

ولد في التاسع من حزيران ١٦٦١ بموسكو وتلقى تعليما رفيعا اهله للخوض في مجالات الادب ولاسيما كتابة الشعر فضلاً عن اجادته اللغة اللاتينية بطلاقة، ولكنه كان " **سقيم الجسم ضعيف الارادة** " مما انعكس سلباً على ادائه في ادارة الدولة باستقلالية تامة الأمر الذي اتاح المجال أمام اخواله من أسرة ميلوسلافسكي للتدخل والتحكم في

مراكز السلطة، وقد اثار هذا التدخل حفيظة اسرة نارشيكين بزعامة (ماتفيف) التي سعت لتقاسم السلطات مما قاد إلى تفاقم الصراع بين هاتين الاسرتين . وبفضل المساندة التي تلقتها اسرة ميلوسلافسكي من لدن كبار الشخصيات المؤثرة في البلاط القيصري جرى ابعاد زوجة الكسس الثانية ناتاليا وابنها بطرس وابنتها آن وجميع المقربين منها عن الكرملين إلى قرية (برابرجينسكي) في اقصى ضواحي موسكو [٢٢٦].

ورغم قصر المدة الزمنية التي حكم فيها القيصر فيودور الا انها شهدت احداثاً مهمة منها[٢٢٧] :

- إيقاف التوسع العثماني في اوكرانيا.
- توتر العلاقات الروسية — البولندية بسبب امتعاض البولنديين من التسوية التي تضمنتها معاهدة (آندروسوفو) الموقعة عام ١٦٦٧.
- استمرار الصراع ما بين الارثذوكسية والكاثوليكية.
- تدخل اصحاب رؤوس الاموال في المفاصل الاساسية للاقتصاد الروسي.

توفي فيودور في السابع من مايس ١٦٨٢ ودفن في " **كاتدرائية الملائكة** " بقصر الكرملين دون ان يخلفه وريثاً للعرش كونه لم ينجب بسبب مرضه مما قاد إلى تأجيج الصراع بين الاسرتين مرة اخرى، اخوه ايفان فضّل الانزواء عن السياسة والحكم والانصراف إلى اعماله التجارية بسبب مرضه ايضاً ولكنه كان راغباً بان تتولى اخته (صوفيا) مقاليد السلطة، اما شقيقه من ابيه (بطرس) فقد امتاز بقوة الشخصية والطموح اللامحدود بهدف الاستيلاء على العرش[٢٢٨].

وتفادياً لانزلاق البلاد إلى حرب داخلية بسبب وراثة العرش القيصري ارتأى القادة والساسة الروس تسوية الخلاف سلمياً بالدعوة إلى اجتماع يرأسه بطريرك موسكو (واكيم)، فقرروا استبعاد ايفان (المريض) وتنصيب بطرس تنفيذاً لوصية القيصر المتوفى حسب زعمهم، ولكن الاميرة صوفيا رفضت الاذعان أو الرضوخ لهذا القرار واستغلت قاعدتها الشعبية فعقدت اجتماعا مشتركاً بحضور عدد كبير من النبلاء ورجال الدين والمثقفين والعلماء

والادباء وممثلين عن فئات الشعب الروسي، إذ اكدت على حقها في الدفاع عن اخيها ايفان وكذلك احقية الاخير في ارتقاء العرش مبدية مؤازرتها الشخصية له في ادارة الدولة ومؤسساتها، ورغم الجهود الحثيثة التي بذلتها الاميرة لكنها اخفقت في الحصول على دعم مؤيديها وانصارها الذين ادركوا جسامة الخطأ في حال تولي ايفان المريض عرش روسيا[٢٢٩].

ولأجل تفويت الفرصة على معارضيها أعدت الاميرة صوفيا سيناريو من شقين (الاول) تشكيل جناح عسكري خاص بها واستمالة قائد حرس الاستريليتش القيصري الامير (فاسيلي غالتزين) بهدف تصفية الخصوم، و(الثاني) تبني اسلوب للدعاية يصور ان اخاها القيصر فيودور لم تكن وفاته طبيعية انما اغتيل على يد طبيب هولندي مسموماً بمؤامرة خطط لها بطرس وامه، وان خيوط هذه المؤامرة اكتملت بإقدامهما على اغتيال الوريث الشرعي اخيها ايفان خنقاً . والواقع ان ما خططت له صوفيا كان يهدف إلى كسب تعاطف وتأييد مختلف فئات المجتمع الروسي في محاولة لإدانة " **المتهمين** " وتبرير مطالبتها بالسلطة [٢٣٠].

شرعت صوفيا بتنفيذ مخططها حيث اقدمت قوات الاستريليتش على قتل مجموعة من الاجانب في احد الاماكن العامة وتم الترويج لإشاعة مفادها "**ان الطبيب قاتل القيصر كان معهم** " ثم تحركت تلك القوات لمحاصرة الكرملين، وفي هذه الأثناء ظهر ايفان اضافة إلى ناتاليا وابنها بطرس في حدائق القصر الأمر الذي أحرج صوفيا إذ لم يعد امامها الاّ الطلب من قائد الحرس اقتحام الكرملين والقاء القبض على اقارب ناتاليا وايداعهم السجن . ويبدو ان الاميرة قد تحسبت لأي طارئ فبعد ساعات قليلة احاطت بالقصر تظاهرة نادت بـ ايفان كوريث شرعي للعرش، وفي الوقت ذاته مثلت صوفيا دور الحريص على مصالح الاسرة فطلبت من المتظاهرين التزام جانب الهدوء وعدم التعرض لأخويها، وطبقا للخطة التي رسمتها اعلن قادة التظاهرة " **المزعومة** " عدم مغادرة القصر واشترطوا تنصيب ايفان وان يكون بطرس مساعداً له، كما هددوا بالعصيان العام في حال عدم الاستجابة لمطلبهم هذا[٢٣١].

وازاء هذه التطورات الخطيرة وللحيلولة دون انزلاق البلاد إلى صراعات داخلية تهدد كيان روسيا سارع مجلس الدوما إلى عقد سلسلة من الاجتماعات المتواصلة في المدة (٢٨مايس — ٤ حزيران ١٦٨٢)، فقرر وصاية صوفيا على اخويها وتوليها العرش نيابة عن " **القيصرين الصغيرين** "[٢٣٢].

٤ـ٣: الوصية صوفيا (١٦٨٢ـ١٦٨٩)

ولدت عام ١٦٥٧ في موسكو وتلقت تعليمها على يد الراهب (سيمون بولوتسكي) المعروف بآرائه الليبرالية، تمكنت من تحقيق طموحها في الوصول إلى السلطة باستغلالها لما يأتي[٢٣٣]:

اولاً— مرض شقيقها ايفان وعدم اهليته للحكم فضلاً عن صغر سن اخيها غير الشقيق بطرس البالغ من العمر (١٠) سنوات.

ثانياً— استمالة عدد من قادة الحرس القيصري وفي مقدمتهم غالتزين واغراءهم بالمال والمناصب.

ثالثاً— ابداء التعاطف مع عناصر الجيش لاسيما (الرماة) منهم اذ وعدتهم بزيادة الرواتب واعادة النظر في نظام العقوبات العسكرية.

تعرضت صوفيا بعد شهرين من تسلمها السلطة إلى محاولة اغتيال من قبل عناصر الحماية الخاصة بالقصر، فاستقدمت على الفور عدد من وحدات الجيش الموالية لها وتم احباط هذه المحاولة بعد اشتباكات عنيفة اسفرت عن ابادة تلك العناصر في سابقة لم يشهدها الكرملين من قبل[٢٣٤] . ورغم الصعوبات التي واجهتها الوصية في ادارة الدولة بسبب وجود الجماعات المناوئة والمعارضة الا انها مارست دورها السياسي تسيير شؤون الحكم اذ سعت إلى تحقيق الاصلاحات وكان ابرزها الغاء نظام القنانة وتحديث المؤسسات الحكومية على النمط الغربي[٢٣٥].

ورغم التأييد الذي نالته صوفيا من لدن قادة الاسترليتش الا ان هؤلاء انتقدوا الطريقة التي اوصلتها إلى هرم السلطة فوصفوها بـ " **مغتصبة العرش** "، كما ساورتهم

الريبة والشكوك من تقريبها لدعاة الاصلاح الكنسي المحافظين وعلى رأسهم البطريرك (نيكون) مما قاد إلى اتساع نطاق المعارضة لتشمل كبار ضباط الجيش وفي مقدمتهم قائد الاستريليتش (خوفاليسكي) . وفي خطوة استباقية للقضاء على الأخير اعدت صوفيا مكيدة بادعائها وجود تمرد ضدها فالتجأت إلى (دير يوستا) واستدعت القائد خوفاليسكي بذريعة اطلاعه على خطورة الوضع واتخاذ الإجراءات الكفيلة لوأد " **مؤامرة وشيكة**"، ثم اقدمت على تنفيذ ما خططت له فأوعزت باغتياله قبل وصوله الدير مما اثار استهجان وغضب عناصر الحرس القيصري الذين اعلنوا التمرد في العاصمة . وعلى الفور اصدرت صوفيا امراً بتعيين (تشاموفسكي) قائداً جديداً لـ الاستريليتش وفي الوقت ذاته اختارته مساعداً لها إلى جانب (القائد السابق) غالتزين الذي اسندت اليه مسؤولية القيادة العامة للجيش الروسي، وبذلك تمكنت من احتواء الموقف اذ نجح غالتزين في اخماد حركة التمرد وملاحقة عناصر المعارضة وزجهم في السجون(٢٣٦).

وبهدف تصدير ازمات بلادها الداخلية إلى الخارج ارتأت الوصية صوفيا تشكيل تحالف اوربي صليبي يضم (بولندا، فرنسا، النمسا، فينيسيا) لمقاتلة العثمانيين، وفي اطار هذا المسعى وقعت روسيا معاهدة سلام مع بولندا بتاريخ الثالث عشر من تشرين الثاني ١٦٨٢، ولكن المشروع الروسي أجهض حينما رفضت حكومتا النمسا وفينسيا فكرة هذا الحالف لاعتقادهما انه يصب في مصلحة روسيا حسب، كما فشلت المباحثات التي اجراها الوفد الروسي برئاسة (دولوفسكي) في اقناع ملك فرنسا لويس الرابع عشر بسبب تحفظ الاخير ورغبته بقيام تحالف فرنسي – عثماني لمهاجمة فينسيا ومحاصرة لوكسمبورغ(٢٣٧).

ورغم فشل المساعي الروسية في الحصول على تأييد اوربي لمهاجمة الدولة العثمانية الا ان صوفيا وبتحريض من قادة الجيش مضت في تنفيذ "**مشروع روسيا التاريخي بالوصول إلى المياه الدافئة** "، ففي مايس ١٦٨٧ ارسلت حملة عسكرية بقيادة غالتزين لاحتلال جزيرة القرم ولكن الأخير اضطر إلى الانسحاب قبل احتدام المعركة بسبب التفوق العثماني براً وبحراً مبرراً قراره هذا بخيانة القائد القوزاقي (ساmolوفتش) . ويبدو ان رغبة

صوفيا بالوصول إلى القرم أصبح واحداً من اهم الاهداف الستراتيجية في السياسة الخارجية الروسية آنذاك، اذ قررت الوصية في مطلع عام ١٦٨٩ اعادة المحاولة ثانية غير ان الاسطول العثماني المتواجد في البحر الاسود تمكن من صد الهجوم وتكبيد الجيش الروسي خسائر كبيرة اضطرته للتراجع والانسحاب إلى داخل الحدود الروسية [٢٣٨].

حاولت صوفيا وكذلك قادة الجيش وفي مقدمتهم غالتزين التغطية على الهزائم المتكررة من خلال التظاهر بالانتصار والترويج لإشاعة مفادها " **ان قتال الروس في القرم ضمن خطط الحرب المقدسة** "، ولكن الرأي العام الروسي لم يقتنع بهذه الأقاويل وأيد ما ذهب اليه بطرس " **بأن صوفيا و(عشيقها) غالتزين هما من جلبا العار لروسيا ... وان الوصية قد اساءت إلى تفويض السلطة مما تسبب في زج الروس بمشاكل خارجية كان ينبغي تجنبها** ". وبهدف تفويت الفرصة على اعدائها ومنتقديها وفي مقدمتهم بطرس اصدرت اوامرها إلى قادة الجيش باجتياح وادي نهر آمور الخاضع لسيادة الصين في منتصف تموز ١٦٨٩ الا ان هذه المحاولة باءت بالفشل مما اوقعها بحرج شديد[٢٣٩].

اعتقدت صوفيا ان وجود بطرس في الحياة السياسية واستمراره بتوجيه الانتقادات اللاذعة لسياساتها أصبح يشكل خطراً حتمياً على مستقبلها السياسي فأعدت مخططا لاغتياله بالتنسيق مع عدد من قادة الاسترليتش، ولكن " **القيصر الصغير** " اكتشف خيوط هذه المؤامرة عن طريق بعض العناصر الموالية فغادر موسكو في الثاني عشر من آب ١٦٨٩ إلى قرية (برياجنسك) واتخذ من دير (تريوستا) مقراً له ولأنصاره حيث التحقت به احدى الفرق العسكرية التابعة للحرس القيصري [٢٤٠].

ولتلافي ردود الافعال الغاضبة جراء كشف مخطط الاغتيال سارعت صوفيا إلى ارسال وفد من النبلاء وآخر من رجال الدين برئاسة البطريرك (واكيم) في محاولة لإقناع بطرس بالعودة " **آمناً** " إلى قصر الكرملين، ولكن مهمة الوفدين فشلت الامر الذي

اضطرها للذهاب اليه شخصياً، وخلال اللقاء الذي جرى في السابع والعشرين من اب ١٦٨٩ اشترط بطرس تسليمه القادة المتورطين الا ان صوفيا رفضت هذا الشرط[٢٤١].

استغل بطرس حالة التعاطف الشعبي بعدما كشفت خيوط المؤامرة فقرر الانتقام من معارضيه حيث اوعز إلى انصاره بتطويق الكرملين والقاء القبض على جميع المتآمرين، وحينها لم يعد امام صوفيا الا الرضوخ للأمر الواقع إذ اضطرت إلى الاستسلام في السادس من ايلول ١٦٨٩ . وما ان تمت السيطرة على القصر اعلن بطرس نفسه قيصراً على روسيا وامر على الفور باحتجاز صوفيا وفرض عليها الإقامة الجبرية في دير (ديفنشي) كما رفض دعوة اخيه ايفان لإشراكه في السلطة، وفي الوقت ذاته اصدر امراً باعتقال "**رموز التآمر** " (تشاموفسكي، مفاييف، غالتزين) وبعد "**محاكمة صورية** " تقرر اعدام الاول والثاني بينما اعفي غاتزين من منصبه ونفي إلى قرية نائية تدعى (بوسنزرسك) [٢٤٢].

٣-٥: القيصر بطرس الاكبر (١٦٨٩-١٧٢٥)

اجمع المؤرخون على ان عهد بطرس يعد نقطة تحول في تاريخ روسيا الحديث على الصعيدين الداخلي والخارجي، اذ انتهج القيصر سياسة استندت إلى أهداف ستراتيجية تمثلت بـ [٢٤٣]:

اولاً- الارتقاء بالبلاد إلى مصاف الدول الغربية والشروع بنهضة اصلاحية شاملة في مجالات الإدارة والاقتصاد والمؤسستين العسكرية والدينية، اضافة إلى تطوير المجتمع الروسي بصورة ترقى إلى ما وصلت اليه المجتمعات الاوربية بالانفتاح على المدنية الغربية.

ثانياً- اقصاء جميع العناصر المعارضة للإصلاح والحيلولة دون مشاركتهم في ادارة مؤسسات الدولة.

ثالثاً- تصفية العناصر المناوئة ممن رفضوا اعلان الولاء للقيصر.

رابعاً- انعاش الاقتصاد الروسي وزيادة موارد الخزينة الروسية لتامين الاموال التي يتطلبها الاصلاح.

خامساً- تامين اتصال روسيا بالعالم الخارجي عن طريق البلطيق والبحر الأسود.

٣-٥-١: سياسته الداخلية:

طالت الاصلاحات التي سعى اليها القيصر بطرس المفاصل الرئيسية في ادارة الدولة والاقتصاد اضافة إلى النهوض بواقع المجتمع الروسي بما يتناسب والرقي الذي وصلت اليه المجتمعات الغربية، ففي مجال الادارة كرس بطرس جهوده لإيجاد نظام جديد تستند اليه مؤسسات الدولة بما يضمن انفراده بالسلطة وتثبيت ركائز " **الحكم المطلق** " وذلك باللجوء إلى الاجراءات الآتية(٢٤٤):

اولاً- حل مجلس دوما البويار وكذلك المجلس الوطني وتأسيس مجلس جديد يأتمر بأوامره اسماه بـ " **مجلس الشيوخ** "، إذ نجح ومن خلال المجلس الاخير في تمرير قانون نص على وصفه بـ " **القيصر المطلق** " و " **امبراطور عموم روسيا بكامل الصلاحيات** ".

ثانياً- اعتماد مبدأ " **المركزية** " في إدارة البلاد حيث أصدر القيصر في مطلع عام ١٧٠٨ امراً بتقسيم البلاد الروسية إلى (٨) أقسام وأسند إدارتها إلى حكام محليين يتلقون الاوامر من البلاط بصورة مباشرة.

ثالثاً- تأسيس " **مجلس السينات** "وهو مجلس رقابي اوجده بطرس عام ١٧١١ لمراقبة ومتابعة العمل في اجهزة الدولة والاشراف على تنفيذ اوامر ومراسيم القيصر فضلاً عن المسائل المالية المتعلقة بجباية الضرائب.

رابعاً- تشريع " **قانون الهيئات** " وهو قانون صدر عام ١٧١٨ اذ حلت الهيئات محل الدوائر واصبح لكل هيئة مكتب شؤون يدير فرعا من فروع الدولة، فعلى سبيل المثال اصبحت الهيئة العسكرية مسؤولة عن ادارة القوات العسكرية البرية والبحرية وهيئة الشؤون الخارجية مسؤولة عن ملفات السياسة الخارجية، وكانت كل هيئة تتألف من رئيس ونائب وعدد من المستشارين.

خامساً– تأسيس جهاز " **البوليس السري** " وهو جهاز استخباري مهمته الحفاظ على أمن الدولة وكشف وملاحقة المتآمرين وكان تحت اشراف القيصر نفسه، وقد اسند بطرس مسؤولية رئاسة الجهاز إلى القائد (فيدور رمدانوفسكي).

سادساً– استحداث مكتب خاص يتولى التحقيق مع المتهمين " **في قضايا التعدي على شخص القيصر كالشتم والتشهير وتوجيه الانتقاد** " واصدار الاحكام ضدهم.

اعتقد بطرس ان بناء دولة روسية قوية وموحدة لا يستند فقط إلى تحديث النظام المؤسساتي الاداري انما كان يتطلب النظر في تأهيل المؤسسة العسكرية لمواكبة التطورات التي طرأت في المجال العسكري، اذ شهدت هذه المؤسسة إصلاحات مهمة تمثلت بما يأتي(٢٤٥):

اولاً– اصدار مرسوم " **التجنيد الالزامي** " عام ١٧٠٥ حيث شمل جميع المواطنين الروس باستثناء النبلاء الذين كان لهم نظامهم الخاص، كما اعفى رجال الدين من الخدمة.

ثانياً– تطبيق نظام تعبوي جديد تضمن تقسيم التشكيلات العسكرية النظامية إلى فرق والوية وافواج وسرايا قتالية، وقد عرف هذا بـ " **نظام بطرس المعظم** " الذي ركز على تدريب الجنود وتأهيلهم لخوض الحرب في مختلف الظروف القتالية.

ثالثاً– تحديث الخطط العسكرية واعتماد صفحة الهجوم ومباغتة العدو في ارضه.

رابعاً– اختيار قادة الجيش وفقا لمبدأ الكفاءة اضافة إلى الولاء المطلق للقيصر.

خامساً– زيادة عدد افراد الجيش النظامي إلى (٢٠٠) الف مقاتل.

سادساً– انشاء اسطول حربي قوي قادر على مواجهة اساطيل القوى المجاورة وتعزيزه بقوات مقاتلة من مشاة البحرية، إذ بلغت قطع ذلك الاسطول نحو (٢٠٠) مركب وزورق توزعت على القواعد البحرية الروسية في البلطيق ومدخل خليج فنلندا.

سابعاً– التشديد على تطبيق النظام العسكري الصارم وتنفيذ عقوبة السجن مع الاشغال الشاقة بحق المتخلفين عن الخدمة الالزامية، وعقوبة الاعدام بحق المتخاذلين في ساحة المعركة.

وشهد الاقتصاد الروسي اصلاحات مهمة في ميادين الزراعة والصناعة والتجارة ونظام الضرائب كان ابرزها[٢٤٦]:

اولاً– تشجيع الفلاحين على استغلال المساحات الشاسعة في مناطق سيبريا والفولغا والاورال مما ساهم في زيادة الانتاج الزراعي وبخاصة محاصيل الحبوب والتبغ والكتان.

ثانياً– الاهتمام بالثروة الحيوانية والتشجيع على استثمار الاموال في مجال انشاء الحقول الكبيرة الخاصة بتربية الاغنام وكذلك الاصناف الجيدة من الخيل.

ثالثاً– التوسع الصناعي في مجالات التعدين وصناعة الاسلحة والمنسوجات والجلود والورق حيث بلغ عددها نحو (٢٠٠) ورشة ومعمل.

رابعاً– السماح لأصحاب رؤوس الاموال باستثمار اموالهم في مصانع الحديد والنحاس ومشاركة الدولة في إدارتها لاسيما في المناطق الغنية بهذه المعادن مثل اولوفتس، تولا، ليتبسك ، سيبريا والاورال.

خامساً– عدم ممانعة الدولة في قيام اصحاب المصانع بامتلاك القرى مع سكانها بعد شرائها من الملاك العقاريين.

سادساً– تشجيع المستثمرين على انشاء مصانع للتعدين في الاراضي التي تكتشف فيها الخامات الطبيعية.

سابعاً– ازالة القيود الكمركية بين مختلف الاقاليم الروسية الامر الذي ادى إلى انتعاش التجارة الداخلية وازدياد النشاط التجاري في اسواق المدن والارياف.

ثامناً– اتساع نطاق التبادل التجاري الخارجي مع دول غرب اوربا وكذلك بلدان الشرق متمثلة باسترخان وقازان والهند وبلاد فارس.

تاسعاً– حماية التجار الروس من منافسة التجار الاجانب داخل الاراضي الروسية حيث أُلزم الاجانب ببيع بضائعهم عند الحدود مما ساهم في تعزيز استقلال روسيا الاقتصادي.

عاشراً– الاهتمام بالموانئ والقنوات الملاحية لاسيما ميناء بطرسبورغ وقناتي لادوغا وفيشيني.

حادي عشر: تأسيس هيئة خاصة بالضرائب وفرض رسوم جديدة على الحانات ومخازن الحبوب ومناحل العسل وصناعة القبعات والأحذية، كما شملت تسجيل حالات الولادة والزواج اضافة إلى ضريبة الرأس التي طالت جميع المواطنين الروس باستثناء النبلاء ورجال الدين.

ثاني عشر: زيادة موارد الخزينة المركزية بفضل الخطط المالية التي اشرف عليها القيصر اذ ارتفعت ايرادات الدولة عام ١٧٦٠ إلى (٨,٥٠٠,٠٠٠) روبل بعد ان كانت لا تتجاوز عام ١٧٢٥ (١,٤٠٠,٠٠) روبل، خصص منها ٧٥% لدعم المؤسسة العسكرية واعادة بناء القوات البرية والبحرية.

أدرك بطرس الاكبر ان ادخال المؤسسة الدينية ضمن دائرة الاصلاح سوف يضمن له تحقيق هدفين اساسيين (الاول) تحجيم دور رجال الدين المتطرفين المناهضين والمنتقدين لفكرة التجديد والانفتاح على الغرب، و(الثاني) اخضاع هذه المؤسسة إلى سيطرته المباشرة لتسهيل عملية الاصلاح بعيداً عن التطرف ورموزه، وفي هذا الصدد اتخذ القيصر عدد من الإجراءات أهمها[٢٤٧]:

أولاً– اثر وفاة البطريرك (ادريانوس) عام ١٧٠٠ اعلن نفسه بطريركا لروسيا متجاهلاً بذلك جميع الاعراف الخاصة بتقلد هذا المنصب دينياً ورسمياً.

ثانياً– تشكيل لجنة من رجال الدين المعتدلين مهمتها الاشراف على اداء الكنيسة الأرثذوكسية الروسية.

ثالثاً– تخفيض عدد الكهنة والابرشيات والاسقفيات وحظر الترهب على الاشخاص الذين تقل اعمارهم عن (٣٠) سنة وذلك لقطع الطريق امام الشباب الذين استغلوا هذا الترهب للتحايل والهرب من الخدمة العسكرية الالزامية، وتم شمول الكهنة بالخدمة في الجيش وقت الحرب.

رابعاً- الاهتمام بالثقافة المسيحية الأرثوذكسية بالتاكيد على العقائد والتعريف بآباء الكنيسة، اضافة إلى واجبات المواطنين تجاه القيصر بوصفه صاحب السلطة العليا في البلاد.

خامساً- أصدر مرسوماً في شباط ١٧٠١ نص على قيام الرهبان والراهبات بالخدمة في دور الرحمة والاحسان.

سادساً- تخصيص جزءاً من واردات الكنيسة للأعمال الخيرية وانفاقها على المستشفيات وملاجئ العجزة والمسنين.

سابعاً- احالة رجال الدين المدانين بقضايا الفساد - على اختلاف مراتبهم الدينية- إلى المحاكم المختصة.

أما في المجال الاجتماعي فقد حاول القيصر بطرس الاكبر وبعد عودته من جولة اوربية قام بها في المدة (١٦٩٧-١٦٩٨) نقل التجارب الغربية الخاصة بالتحولات الاجتماعية التي طرأت على المجتمعات الاوربية في عصر النهضة إلى بلاده، معتقدا بضرورة خروج الروس من نمط الحياة الرتيبة التي عاشوها منذ قرون جراء الحروب وعدم الاستقرار " **وجعل روسيا جزءا من العالم المسيحي المتحضر**"، وقد تجسدت ابرز مظاهر التغيير التي سعى اليها القيصر بما يأتي[٢٤٨]:

اولاً- السماح باختلاط الرجال والنساء في الأماكن العامة.

ثانياً- منع ارتداء القفاطين أو الطيالس الطويلة من قبل العاملين في البلاط وأحل محلها ملابس البلاط الفرنسي، كما واجاز استخدام الضفائر والشعر المستعار وغيره من انواع الزينة.

ثالثاً- الزام الروس بحلق اللحى واوعز لعناصر الشرطة بمعاقبة المخالفين.

رابعاً- اجبار العاملين في الورش والمصانع وأجهزة الدولة على ارتداء الزي الاوربي الضيق بدلاً من اللباس الفضفاض لتجنب الإعاقة في العمل.

خامساً– حق المرأة بالمشاركة في النشاطات الاجتماعية.

سادساً– احترام حقوق الاخرين ومراعاة مشاعرهم في الطرق والاماكن العامة.

سابعاً– السماح للنساء بارتياد اماكن الحفلات الراقصة بالزي الفرنسي الضيق بعد ان كانت المرأة الروسية لا تخرج الا بحجاب تام، ويحول بينها وبين الجلوس مع الرجال.

ثامناً– أجاز للخطيبين الجلوس مع بعضهما البعض قبل الزواج بعد ان كان ذلك محرماً عليهما حسب الاعراف الروسية.

تاسعاً– تعميم اقامة " **الحفلات الراقصة** " على جميع النبلاء وفق شروط وضعها بطرس نفسه منها:

- تتولى لجنة خاصة في البلاط مهمة تنسيق مواعيد الحفلات وإبلاغ القيصر ظهر كل يوم بمكان الحفلة ليتسنى له حضورها مع بقية النبلاء.
- يبتدأ الحفل برقصة يؤديها احد افراد اسرة صاحب الدعوة.
- للجميع الحرية المطلقة في الرقص وتناول المشروبات ولعب الشطرنج داخل قاعة الحفل.
- عدم اجبار الضيوف على تناول الطعام والمشروبات وانما يترك ذلك للضيف نفسه.
- جلوس الرجال والنساء على طاولة واحدة.
- مراعاة الذوق العام وعدم التدخين بجانب النساء في قاعة الحفل.

ومما تجدر الاشارة اليه ان الاصلاحات التي شهدتها روسيا في عهد بطرس الاكبر قد طالت النواحي العلمية والثقافية والعمرانية، ففي المجال التعليمي تم انشاء مدارس عسكرية وطبية وهندسية وأكاديمية بحرية ومدرسة متخصصة بالترجمة في خطوة جادة لمغادرة التعليم الديني والتأسيس لنظام تعليمي مدني قادر على مواكبة التطورات العلمية وقتذاك . وفي المجال الثقافي شجع القيصر حركة التأليف وامر باستيراد المطابع بهدف نشر واشاعة الثقافة في المجتمع الروسي، ومن أبرز الكتابات التي تمت طباعتها هي مؤلفات الاديب باسيل تاستشيف (١٦٨٦-١٧٥٠) في الشعر والنقد والنص المسرحي، ومؤلفات الشاعر

والعالم اللغوي ميخائيل لوموسوف (١٧١١-١٧٦٥) في الادب الروسي . اما في المجال العمراني فان بطرس اولى اهتماماً خاصاً بالمسائل الفنية ذات العلاقة بتزيين الكنائس والقصور ولاسيما الكرملين، كما اشرف شخصياً على تصاميم وخطط عاصمته الجديدة بطرسبورغ ووجه بتشييد جميع المباني فيها من الحجر تحت اشراف معماريين وفنانين بارعين من ايطاليا وسويسرا وفرنسا والمانيا(٢٤٩).

رحلته إلى اوربا ١٦٩٧-١٦٩٨

قرر بطرس الاكبر عام ١٦٩٧ القيام برحلة إلى اوربا بهدف الاطلاع عن كثب على التجارب الحضارية التي عاشتها الدول الغربية والاستفادة منها في اعادة بناء الدولة الروسية طبقا للنموذج الغربي المتمدن، وقد ادعى القيصر الذي ارتأى التنكر بشخصية اخرى في هذه الرحلة ان هدفه الاساس هو حشد التأييد الاوربي واقامة " **حلف مسيحي مقدس** " ضد الدولة العثمانية، وذلك بعدما تمكن الروس عام ١٦٩٦ من الاستيلاء على قلعة آزوف التي شيدها العثمانيون عند مصب نهر الدون، فضلاً عن اكتساب الخبرة في مختلف المجالات العلمية والفنية والصناعات الحربية(٢٥٠).

رافق القيصر الذي تخفى باسم (بيتر ميخائيلوف) بعثة ضمت نحو (٢٠٠) شخصية سياسية وعسكرية وعلمية وثقافية، وكان في مقدمة تلك الشخصيات عدد من كبار مستشاري البلاط والجنرال (لوفورت) القائد العام للجيش الروسي و(الفيكونت الكسس) حاكم سيبريا و(دياك) أمين سر الكرملين(٢٥١) . ومما يجدر ذكره ان بطرس الاكبر كان قد خول صلاحياته إلى اثنين من اقرب اصدقائه لإدارة شؤون البلاد بالتشاور مع امراء الدولة والمجلس الاعلى في مدة غيابه، كما اتخذ اجراءً احترازياً بنشر قطعات من الجيش الروسي على حدود القرم لصد أي هجوم عثماني محتمل، اضافة إلى تامين العاصمة موسكو واسناد حمايتها إلى قوة عسكرية خاصة موالية(٢٥٢).

انطلقت البعثة من مدينة نوفغورد متوجهة إلى دول البلطيق ليتوانيا واستونيا ولاتفيا ثم غادرتها إلى المانيا وهولندا وانكلترا والنمسا، ووفقا لإجماع المؤرخين فان رحلة القيصر حققت نجاحات مهمة في مختلف المجالات ابرزها[٢٥٣]:

اولاً- التعاقد مع (١٠٠) من العمال والفنيين الهولنديين المتخصصين في صناعة السفن لتطوير البحرية الروسية.

ثانياً- فتح باب الاستثمار في مجال الصناعات التعدينية.

ثالثاً- تأسيس مدرسة متخصصة في العلوم الرياضية واخرى بعلم البحار.

رابعاً- الاستعانة بالخبراء المختصين لوضع خطط تهدف إلى ربط بحر قزوين بالبحر الاسود وآزوف.

ورغم النجاحات التي حققتها الرحلة الا ان البعثة فشلت في اقناع ملوك الدول الأوربية بتشكيل تحالف مسيحي ضد الدولة العثمانية وذلك بسبب التعقيدات الناشئة عن وراثة العرش الاسباني[٢٥٤].

٢-٥-٢: السياسة الخارجية الروسية في عهد بطرس الاكبر:

إثر اخفاق الروس في حشد التأييد الاوربي لمواجهة العثمانيين ادرك القيصر اهمية فتح باب الحوار والتفاوض مع الحكومة العثمانية لأجل الوصول إلى هدفين: (الاول) الحصول على موطئ قدم في سواحل البحر الاسود و(الثاني) تامين حرية الملاحة لسفن الاسطول الروسي في هذا البحر، وبعد مباحثات دامت ستة شهور توصل الجانبان إلى معاهدة في تموز ١٧٠٠ تضمنت " **موافقة السلطان العثماني على التواجد العسكري الروسي في آزوف، قيام روسيا بتعيين سفير لها في اسطنبول، ممارسة الضغط على امارة القرم للحيلولة دون الاغارة على الاراضي الروسية أو المطالبة بدفع الجزية** " .

وعقب التسوية التي تمت مع الدولة العثمانية ركز بطرس الاكبر جهوده على تأمين مصالح بلاده في الاراضي المتاخمة لبحر البلطيق محاولاً الوصول إلى " **منفذ بحري تجاري** " يربط

ما بين روسيا وبقية الدول الاوربية، ولكن هذه الرغبة اصطدمت بالمعارضة الشديدة التي ابدتها السويد فقرر اللجوء إلى خيار الحرب(٢٥٥).

سارع القيصر الروسي في ايلول ١٧٠٠ إلى التحالف مع ملكي بولندا والدنمارك، وقد ابتدأت الحرب التي عرفت تاريخيا بـ "**حرب الشمال العظمى ١٧٠٠-١٧٢١** " في الخامس من تشرين الاول حينما أقدم الاسطول السويدي وبمساندة الاسطول البريطاني على مهاجمة سواحل الدنمارك الامر الذي اضطر ملكها إلى الاستسلام، وفي الثامن من تشرين الثاني قرر ملك السويد (شارل الثاني عشر) ممارسة الضغط على ملك بولندا (اوغسطين الثاني) في محاولة لإجبار الأخير على التنصل عن تحالفه مع الروس، إذ نزلت قواته في حوض البلطيق واجبرت القوات البولندية على فك الحصار عن مدينة (ريغا) الستراتيجية وبذلك نجح الملك شارل في تفكيك التحالف " **الروسي- البولندي – الدنماركي**" (٢٥٦).

حدث أول اشتباك مسلح بين الروس والسويديين عند اسوار مدينة (نارفا) على الحدود الروسية – الاستونية في التاسع عشر من تشرين الثاني ١٧٠٠، إذ استغل الجيش السويدي ظروف الطقس المتمثلة بحالة الضباب الكثيف وباغت القوات الروسية بهجوم كاسح سريع، وانزل الهزيمة بها مما اضطر القادة الروس إلى الانسحاب غير المنّظم من ساحة المعركة تاركين ورائهم اسلحتهم الثقيلة وعدد كبير من الاسرى . ويبدو ان طرفي النزاع قررا الاستمرار في حرب استنزاف بعيدة الامد حيث سعت الحكومتان الروسية والسويدية إلى تحقيق التفوق العسكري وتعزيز القدرات القتالية براً وبحراً، ففي عام ١٧٠٣ تمكنت القوات الروسية من الوصول إلى شواطئ البلطيق بعدما الحقت الهزيمة بالجيش السويدي المتواجد عند مصب نهر (نيڤا) وقامت بفرض سيطرتها على منطقتي (نارڤا) و(دابريت)(٢٥٧).

أثار الانتصار الروسي هذا استياء الملك شارل الثاني عشر حيث اعرب عن غضبه واسفه " **لرؤية اسطول السفن الروسي وهو يجوب مياه البلطيق** "، لذا شرع بالتخطيط لغزو شامل كان يستهدف تفتيت الدولة الروسية إلى امارات صغيرة والقضاء على نظامها

السياسي، وذلك بتبني ستراتيجية تستند إلى مبدأ " **استنزاف العدو**" على الصعيدين العسكري والاقتصادي . وفي المدة (١٧٠٤-١٧٠٦) حدثت مواجهات عسكرية متقطعة على الحدود ولكن الجيش الروسي المدافع نجح في التصدي لتلك الهجمات، وفي عام ١٧٠٨ تمكن الجيش السويدي من دخول اراضي بيلوروسيا وحشد وحداته في مدينة سمولنسك استعداداً للزحف نحو موسكو، غير ان الخطة السويدية فشلت للأسباب الآتية (٢٥٨):

اولاً- نجاح الاجراءات التكتيكية التي اعتمدها " **مجلس الحرب الروسي**" في الانسحاب المنّظم ودفع القوات المهاجمة إلى التوغل في اراضي قتل منتخبة.

ثانياً- لجوء الروس إلى اسلوب " **نصب الكمائن** " لعرقلة تقدم القوات المهاجمة.

ثالثاً- تشكيل " **فصائل المقاومة الشعبية**" من الفلاحين الروس والبيلاروس مما ساهم في تعزيز الجانبين القتالي والمعنوي.

رابعاً- قيام الفلاحين الروس بطمر واخفاء الحبوب والمؤن للحيلولة دون استفادة الجيش السويدي منها.

وازاء المقاومة العنيفة التي أبداها الروس اضطر الملك السويدي إلى تغيير خطة الهجوم وفتح جبهة اخرى من جهة اوكرانيا بهدف الحصول على دعم ومساندة الاقطاعيين الاوكرانيين، ولكن هذه الخطة فشلت ايضاً حيث رفض الاوكرانيون الاستجابة لطلب شارل الثاني عشر وقرروا مساندة بطرس الاكبر بجيش قوامه نحو (٤٠) ألف مقاتل الأمر الذي اجبر ملك السويد على العدول عن مهاجمة موسكو(٢٥٩).

رغم اخفاق الجيش السويدي في الوصول إلى موسكو " **الاّ ان شارل الثاني عشر لم يتخل عن خططه في اذلال الروس واحتلال مدنهم المهمة**" اذ قرر في صيف عام ١٧٠٩ الهجوم على مدينة (بولتافا) بجيش قوامه نحو (٣٠) الف مقاتل، ففي السادس من حزيران تمكن السويديون من فرض الحصار التام على هذه المدينة مما أثار غضب القيصر بطرس الاكبر الذي تولى شخصياً قيادة العمليات العسكرية بجيش قوامه نحو (٦٠) الف

مقاتل، وفي السابع والعشرين من حزيران اشتبك الطرفان في معارك طاحنة استخدم فيها السلاح الابيض حيث تمكن الروس من الحاق الهزيمة بالجيش السويدي وتكبيده خسائر كبيرة بلغت نحو (١٠) الاف شخص ما بين قتيل وجريح واسير[٢٦٠].

اثارت الانتصارات الروسية هذه مخاوف وقلق الساسة العثمانيين من احتمالية قيام الروس بالتوسع في مناطق النفوذ العثماني لاسيما في البحر الاسود، لذا سارعت الحكومة العثمانية إلى مطالبة حكومة القيصر بالانسحاب من آزوف غير ان الاخيرة رفضت هذا الطلب وهددت بإعلان الحرب الامر الذي قاد إلى توتر العلاقات بين الدولتين . وقد رافق هذا التوتر حصول استفزازات من كلا الجانبين حيث انتهج العثمانيون سياسة تقوم على تحريض الرعايا المسيحيين الأرثوذكس في منطقة البلقان، فقابلهم الروس بحشد المزيد من قواتهم في آزوف فضلاً عن التحالف مع اميري ولاشيا ومولدافيا اللذان ابديا رغبتهما بتقديم الدعم المادي واللوجستي كرها بالعثمانيين . وفي تشرين الثاني ١٧١٠ قرر القيصر بطرس الاكبر خوض الحرب ضد الدولة العثمانية على رأس جيش قوامه نحو (٥٠) الف مقاتل عبر الاراضي المولدافية، ولكن الجيش العثماني البالغ عدده نحو(١٥٠) الف مقاتل نجح في عرقلة تقدم الجيش الروسي وتطويقه عند نهر (بروث) الذي يصب في نهر الدانوب مما اجبر الروس على التراجع والتنازل فيما بعد عن آزوف بموجب معاهدة عقدت بين الدولتين في شباط ١٧١١[٢٦١].

وبعد ان تمت تسوية الخلافات مع الدولة العثمانية بالتنازل عن آزوف تركزت جهود القيصر على التفرغ للحرب ضد السويد والتي تجددت مرة اخرى في المدة (١٧١٨-١٧٢١) حيث تمكن الروس من تحقيق انتصارات مهمة باختراقهم للأراضي السويدية، الأمر الذي اضطر الملك السويدي إلى توقيع معاهدة (نيستاد) التي انهت حرب الشمال العظمى في الثلاثين من آب ١٧٢١ بتنازل السويد عن (استونيا، ليفونيا، انجرا، وأجزاء من كاريليا) لصالح روسيا مقابل تنازل الاخيرة عن فنلندا باستثناء اقليم فيبودغ إلى السويد،

وبذلك نجح بطرس في تحقيق " **حلم روسيا التاريخي**" وأحد اهم أهداف سياستها الخارجية للوصول إلى البلطيق [٢٦٢].

أما بخصوص العلاقة مع بلاد فارس فقد تبنى بطرس الاكبر ستراتيجية كانت تستند إلى فرضية " **امكانية التوسع في الاراضي الفارسية وايجاد طريق يربط ما بين روسيا والهند عبر بحر قزوين** "، فارسل عام ١٧١٥ بعثة برئاسة المستشار (ڤولينسكي) حددت مهمتها بإعداد دراسة شاملة عن المنطقة والتفاوض مع كبار التجار لتحويل طرق تجارة الحرير عبر الاراضي الروسية . وفي عام ١٧٢٢ اعتقد بطرس ان الفرصة اصبحت ملائمة للشروع بتطبيق تلك الفرضية استناداً إلى عدد من المعطيات[٢٦٣]:

اولاً– التطور الذي شهدته المؤسسة العسكرية في المجال التعبوي وتحديث سلاح المدفعية وزيادة عدد سفن الاسطول الروسي.

ثانياً– انتعاش التجارة الدولية الذي اقترن بالمتغيرات التي واكبت التقدم الصناعي في اوربا.

ثالثاً– استغلال حالة التذمر لدى شعوب القفقاس الخاضعة للسيطرة الفارسية ومحاولة كسب تأييد هذه الشعوب وضمها إلى الدولة الروسية.

رابعاً– تدهور الاوضاع الداخلية في بلاد فارس نتيجة الغزو الافغاني آنذاك، وامكانية استغلال حالة التدهور في حصول الروس على موطئ قدم هناك.

انتهز القيصر الروسي دعوة الشاه حسين الاول (١٦٩٤-١٧٢٢) لطلب المساعدة العسكرية الروسية ضد الافغان فسار على رأس جيش قوامه نحو (٤٥) الف مقاتل واحتل استرخان في الخامس من تموز ١٧٢٢، ثم واصل زحفه باتجاه الساحل الشمالي الغربي لبحر قزوين ودخل مدينة (دربند) ومنها توجه إلى باكو الامر الذي اثار حفيظة الحكومة العثمانية التي كانت تدعي السيادة على مناطق القفقاس، فقد اعلن الساسة العثمانيون عن رفضهم القاطع " **لأي اجراء عدائي ربما يغير من توازن القوى**

في المنطقة " محذرين في الوقت ذاته من مغبة استمرار الروس في مشاريعهم التوسعية لأنها " **ستقود إلى حتمية الصراع العسكري بين الدولتين**"[(٢٦٤)].

أدرك بطرس الاكبر ان فتح جبهة جديدة للقتال ضد الدولة العثمانية سوف لن يصب في مصلحة بلاده لذا سارع إلى سحب جيشه من المناطق التي جرى احتلالها باستثناء مدينة دربند تاركا فيها نحو (٣) الاف مقاتل، مفضلاً اللجوء إلى "**ستراتيجية الدبلوماسية الهادئة لحلحة المشاكل مع العثمانيين** "، وقد تزامن ذلك مع وفاة الشاه حسين الاول وتولي طهماسب الثاني (١٧٢٢-١٧٣١) السلطة في بلاد فارس الذي بادر إلى فتح باب الحوار مع الروس وتقديم التنازلات لهم تجنبا للصدام العسكري (اولا) ولمواجهة التحديات الخطيرة المتمثلة بالأفغان والعثمانيين (ثانيا). وفي آب ١٧٢٣ توصل الحكومتان الروسية والصفوية إلى معاهدة تضمنت البنود الآتية[(٢٦٥)]:

١- موافقة القيصر الروسي على تقديم الدعم العسكري للشاه الصفوي والوقوف معه لصد الغزو الافغاني ومواجهة التهديد العثماني.

٢- يعترف الشاه مقابل ذلك بتبعية مدينتي دربند وباكو لسيادة القيصر الروسي والتنازل عن مدن مازندران واستراباد وكيلان لصالح روسيا.

٣- تعهد الشاه بتسهيل مهمة الجيش الروسي حال دخوله اراضي الدولة الصفوية وتزويده بالمؤن والخيل.

٤- اقامة علاقات ودية ثابتة وضمان حرية التجارة والتنقل بين الدولتين.

وتعمقت شقة الخلاف بين بطرسبورغ واسطنبول حينما طلب حاكم مدينة شيروان المساعدة العسكرية ضد الشاه طهماسب فتوترت العلاقات بين الدولتين، الا ان دخول فرنسا على خط الازمة ساهم في تقارب وجهات نظر كلا الجانبين بشأن مصالحهما في بلاد فارس، إذ توصلا في شباط ١٧٢٤ إلى معاهدة نصت على اقتسام هذه البلاد بحصول الروس على استرباد ومازندران وكيلان وقسم من شيروان بينما حصل العثمانيون على

كرمنشاه وتبريز وهمدان، اما الشاه فقد سمح له بأن يحتفظ ببقية المناطق شرط اعترافه بنصوص المعاهدة وبذلك ضمن الروس استناداً إلى هذه المعاهدة الوصول إلى سواحل بحر قزوين وضم الولايات الفارسية الشمالية حتى نهر اراس، ولكن وفاة بطرس المفاجئة عام ١٧٢٥ اضافة إلى ظهور القائد نادر شاه الذي كان رافضاً لأي تواجد روسي على الاراضي الفارسية قد حال دون ذلك(٢٦٦).

ومما تجدر الاشارة اليه ان العلاقات الخارجية الروسية في عهد القيصر بطرس الاكبر لم تقتصر على ما ورد في الصفحات السابقة حسب انما شملت استمرار التوسع الروسي في الساحل الغربي للمحيط الهادي وارسال البعثات الاستكشافية إلى جزر (اليوتان) وجزيرتي (كامتشاتكا وتشوكوتا)، وكذلك تسوية الخلافات مع الصين وزيادة حجم التبادل التجاري معها استناداً إلى معاهدة (نرتشنسك) الموقعة في السابع والعشرين من آب ١٦٨٩ التي تضمنت " **تعيين خط الحدود بين الإمبراطوريتين على امتداد مجرى نهر آمور من منبع الارغون باتجاه الشمال حتى نهر يودي** "، وبعقد هذه المعاهدة وجه الروس انظارهم نحو الباسفيك الامريكي والشرق الاقصى(٢٦٧).

وأخيراً لابد من التأكيد على ان بطرس الاكبر ترك وصية تاريخية ضمّنها مبادئ اساسية في ادارة شؤون الدولة الخارجية ومما جاء فيها(٢٦٨):

اولاً- على ملوك روسيا ملازمة حالة الحرب لتكون جيوشهم في حالة استعداد وتأهب دائم، وتربص فرصة الهجوم على الاعداء فالصلح والحرب يتناوبان حسبما تقتضيه الظروف والمواقف.

ثانياً- الاستعانة بالخبرات الاوربية والاستفادة من تخصصات العلماء في مختلف الميادين اوقات السلم أو الحرب.

ثالثاً- على ملوك روسيا التدخل في الشؤون الداخلية للدول الاوربية الاخرى لاسيما المانيا لقربها من روسيا.

رابعاً- ينبغي التدخل في شؤون بولونيا وانتخاب ملوكها لضمان سيرها في فلك روسيا، وارسال الجيوش الروسية لحماية الملك وتثبيت حكمه ومواجهة الدول التي تحاول النيل منه.

خامساً- العمل على ضم المزيد من اراضي السويد إلى الاملاك الروسية واثارة العداء بينها وبين الدنمارك لإشغالها عن التفكير بمهاجمة روسيا.

سادساً- لا يتزوج ابناء اسرتنا الا من بنات ملوك المانيا لتوثيق عرى الصداقة بين الدولتين.

سابعاً- يجب الاهتمام بمسألة التحالف مع انكلترا لحاجتها الماسة إلى الاشجار الروسية في بناء سفنها، وكذلك امكانية الاستفادة من خبرات الانكليز في تطوير الاسطول الروسي.

ثامناً- العمل قدر المستطاع على توسيع حدود روسيا في جهة الشمال وشواطئ البلطيق، وبذل المساعي لمد النفوذ الروسي إلى جهة الغرب وشواطئ البحر الاسود.

تاسعاً- ينبغي الاقتراب من القسطنطينية والهند ... وتفتيت مملكة الفرس ... وتنشيط التجارة ما بين الشام وجبل قاف ... نوجه اهتمامنا إلى الهند التي هي مخازن الدنيا فان تحقق ذلك فلا حاجة لنا بذهب انكلترا.

عاشراً- التأييد الظاهري لسياسة النمسا تجاه الولايات الالمانية مع الاستمرار في تحريض ملوك هذه الولايات ضد اسرة هابسبورغ.

الحادي عشر: مشاركة النمسا في المشروع الذي يهدف إلى اخراج الاتراك من اوربا، فاذا استولى الروس على القسطنطينية واظهر النمساويون معارضتهم لذلك فينبغي اثارة حرب ما بين النمسا واحدى الدول الاوربية، أو التنازل مؤقتا عن قسم مما تم الحصول عليه ثم استرجاعه لاحقاً.

الثاني عشر: العمل على دعم الاغريق والدفاع عنهم وجمعهم في بولونيا والنمسا ليكونوا سنداً لروسيا.

الثالث عشر: بعد ان يتم الاستيلاء على مملكة السويد والتغلب على الفرس والبولنديين والتسلط على الممالك العثمانية ودخول اسطولنا البلطيق والبحر الاسود نشرع في المفاوضات السرية مع فرنسا والنمسا، والهدف هو اقتسام العالم بيننا فاذا ارتضت احدى الدولتين ما نعرضه عليها نستعين بها على قهر الاخرى ثم نهجم عليها ونغلبها، ولا يصعب علينا ذلك حينئذ حيث يكون بيدنا ملك المشرق ومعظم اوربا.

الرابع عشر: اذا أبدت فرنسا والنمسا اعتراضهما على ما تقترحه روسيا – وهو امر مستبعد- فيجب اللجوء إلى تحريض احداهما ضد الأخرى، وينبغي انتهاز الفرصة للهجوم على الممالك الالمانية وكذلك ارسال اسطولنا إلى البحر المتوسط للاستيلاء على فرنسا، وفي حال قهر فرنسا والمانيا لا يصعب الاستيلاء على بقية اوربا.

٣-٦: القيصرة كاترين الأولى (١٧٢٥-١٧٢٧):

اسمها الحقيقي (مارتا سكافرونسكي) ولدت في اقليم (ليفلانديا) على ساحل بحر البلطيق الليتواني بتاريخ الخامس من نيسان ١٦٨٥، والدها (صموئيل شافروفسكي) وهو رجل بسيط كان يمتهن الزراعة وقد اجبرتها ظروف عائلتها على العمل كخادمة في منزل (ايرنست كولك) أحد القساوسة البروتستانت بمدينة (مارينبورغ) الليتوانية، واثر سقوط هذه المدينة في قبضة القوات الروسية تم اسرها وتسليمها إلى الكونت (شيرمنتفسكي) الذي اوعز بانضمامها إلى بقية الأسيرات للعمل في خدمة الجيش الروسي، وخلال تفقده للوحدات المقاتلة وقعت أنظار قائد الحملة الليفونية الامير منشيكوف على مارتا فاعجب بها واتخذها عشيقة له[٢٦٩].

وفي احدى الحفلات لفتت مارتا بجمالها القيصر بطرس الاكبر فقرر الزواج منها بعد ان اعتنقت الأرثذوكسية واطلق عليها اسم (كاترين)، وجرت مراسيم الزواج في التاسع عشر من شباط ١٧١٢ وذلك عقب طلاق زوجته (بروكيا) حيث انجبت منه (١١) طفلاً ماتوا جميعاً باستثناء بنتين هما (آن واليزابيث) . واثر فشل محاولة الانقلاب التي قادها ابنه من زوجته الاولى (الكسس) الذي اعدم بتهمة الخيانة العظمى ارتأى بطرس تسمية كاترين

وريثة للعرش في الرابع من ايلول ١٧٢٢، وفي الحادي والعشرين من مايس ١٧٢٤ قام بتتويجها كإمبراطورة لروسيا اذ جرت مراسيم التتويج في كاتدرائية (سبلنسكي) فقلدها تاجا مرصعاً ب(٢٥٦٤) حجراً كريماً " **تعلوه ياقوته حمراء وصليب مصنوع من الحجر المشع** ". ورغم الدسائس التي كانت تحاك ضدها من قبل بروكيا وانصارها الا ان بطرس ازداد تمسكاً لها ولم يتردد في قطع رأس احد جنود القصر المدعو (وليام) شقيق عشيقته (اناموس) وذلك حينما ترددت شائعات عن علاقة حميمة بين الأخير وكاترين[٢٧٠].

اعتلت كاترين عرش روسيا بعد وفاة زوجها بطرس الاكبر في الثامن والعشرين من كانون الثاني ١٧٢٥ بدعم سياسي وديني من قبل منشيكوف وقائد الحرس القيصري وكبار رجال الدين الارثذوكس وفي مقدمتهم الاسقف (ثودسيوس)، ولعب هؤلاء دوراً مهماً في اقناعها بتاسيس ما يعرف بـ " **المجلس السري الاعلى** " في الثاني عشر من شباط ١٧٢٦ بهدف تقليص صلاحيات مجلس الشيوخ الذي أسسه بطرس ابان مدة حكمه، وضم المجلس الجديد الذي ترأسه منشيكوف شخصيات انتهازية كانت تلهث وراء مصالحها الذاتية منهم (تولستوي، برانسكي، كولفونسكي) وآخرين غيرهم[٢٧١].

انتهجت كاترين سياسة داخلية كانت لا تخلو ملامحها من تدخلات المجلس السري الاعلى لاسيما في المجالين السياسي والعسكري، ووفقاً لما ذكرته المصادر فان تلك السياسة استندت إلى المعطيات الآتية[٢٧٢]:

اولاً– تأسيس جهاز استخباري سري لملاحقة العناصر المناوئة والكشف عن الدسائس التي كانت تحاك في البلاط.

ثانياً– اجراء التغييرات في مواقع القيادات العسكرية العليا واعادة عدد من كبار القادة الذين تم عزلهم في عهد بطرس الاكبر.

ثالثاً– إعادة النظر في التقسيمات الادارية واسناد جميع المناصب المهمة والحساسة إلى شخصيات موالية للمجلس.

رابعاً– منح امتيازات خاصة لعدد من المقربين وتخويلهم الصلاحيات الواسعة.

خامساً– تشريع عدد من القوانين الصارمة الخاصة بإدارة الدولة والتدخل في شؤون القضاء لمصلحة الطبقة الحاكمة.

سادساً– اعادة النظر في نظام الضرائب والرسوم الكمركية واستحداث ضرائب جديدة في مجال التجارة الخارجية.

أما في الشأن الخارجي فقد سارت القيصرة كاترين الأولى على خطى زوجها بطرس الاكبر في التعاطي مع الدول الاوربية اذ انتهجت سياسة ارتكزت على الأسس الآتية[٢٧٣]:

اولاً– توثيق اواصر الصداقة وآفاق التعاون مع النمساويين والالمان.

ثانياً– الاستمرار بمعاداة فرنسا وبريطانيا الأمر الذي يفسر انضمام روسيا إلى التحالف الاسباني – النمساوي الموجه ضد الانكليز عام ١٧٢٦، وذلك بسبب توتر العلاقات الروسية– البريطانية الناجم عن قيام كاترين بتزويج ابنتها من دوق هولشتاين (شارلس فردريك) وهو ما اغاض ملك بريطانيا (جورج الأول) الذي استغل حالة التوتر هذه فاقدم على ضم مقاطعة هانوفر.

ثالثاً– الوقوف إلى جانب النمسا في صراعها ضد فرنسا بسبب أزمة العرش البولندي حيث جرى التنسيق بين الروس والنمساويين وتم طرد نائب الملك الفرنسي في بولندا واعادة الملك (اوغسطين الثالث) مقابل تنازل الأخير عن مدينة (سابورزي) إلى روسيا.

رابعاً– امتداد التوسع الروسي إلى أراضي القفقاس وداغستان.

خامساً– استمرار حالة العداء مع الدولة العثمانية رغم التوقيع على معاهدتي (فلكزن) عام ١٧١٤ و(ادرنة) عام ١٧١٦.

أوصت كاترين قبيل وفاتها في السادس من نيسان ١٧٢٧ بانتقال السلطة إلى بطرس الثاني حفيد زوجها بطرس الاول من ابنه الكسس وذلك لقطع الطريق أمام المتآمرين على وراثة العرش الروسي، وان مات قبل بلوغه " **فتعتلي ابنتيها العرش على التوالي الاميرة (آن) زوجة دوق هولشتاين ومن ثم ابنتها (اليزابيث)، وان ماتت هي وبطرس**

لم يبلغ الثامنة عشر من عمره فانه يقع تحت وصاية مجلس يضم ابنتيها وصهرها الأمير منشيكوف وثمانية من أعيان الإمبراطورية ''[٢٧٤].

٣ـ٧: القيصر بطرس الثاني (١٧٢٧ـ١٧٣٠)

اعتلى العرش الروسي وعمره لا يتجاوز (١٢) سنة حيث خضع لوصاية المجلس الاعلى الذي هيمن عليه منشيكوف، وقد استغل أحد اعضاء المجلس المدعو (الكسي دولغوروكي) الظروف القائمة آنذاك فخطط للانفراد بالسلطة عن طريق المصاهرة مع اسرة ال رومانوف، اذ أقدم في الثامن من ايلول ١٧٢٧ على احتجاز منشيكوف ونفيه إلى سيبريا بذريعة التطاول على '' **شخص القيصر وتماديه في استعادة الهدية التي قدمها بطرس لأخته الاميرة اليزابيث بمناسبة عيد ميلادها حينما أصرّ على عدم قانونية التصرف بأموال الخزينة الا بموافقة مجلس الوصاية**'' . ولأجل الوصول إلى هدفه اقام دولغوروكي حفلة على شرف بطرس الثاني في الثلاثين من كانون الثاني ١٧٢٩ بحضور ابنته الفاتنة (كاترين) التي حظيت بإعجاب القيصر الصغير، وجرى الاتفاق على إعلان عقد القران في التاسع عشر من كانون الاول ١٧٣٠. ويبدو ممكنا القول ان اقصاء منشيكوف عن المشهد السياسي الروسي قد ولّد أزمات داخلية جديدة سببها تفاقم الصراع بين الاسر المتنفذة للاستيلاء على السلطة، اذ استحوذت اسرتا دولغوروكي وجولستين على المناصب الحساسة في البلاط وهيمنتا على المجلس الاعلى بعد ان جائتا بأعضاء جدد من الطبقة الارستقراطية، وفي خضم هذا الصراع اصيب بطرس الثاني في السادس من كانون الثاني ١٧٣٠ بمرض الجدري وفي التاسع عشر منه اعلن عن وفاته بسبب هذا المرض، وبموته انتهى صلب الذكور من اسرة رومانوف [٢٧٥].

٣ـ٨: القيصرة آن (١٧٣٠ـ١٧٤٠)

ابنة القيصر بطرس الاكبر وارملة دوق هولشتاين ولدت في السابع من شباط ١٦٩٣، رشحها '' **مجلس الشورى** '' أو ما يعرف بالمجلس الاعلى لتسلم السلطة ولكن بشروط نصت على '' **استشارة المجلس في جميع المسائل الخاصة بإدارة الدولة،**

تدخل اعضاء المجلس في اختيار الشخصيات التي ستتولى المناصب العليا، حق المجلس في نقض القرارات المتعلقة بالحروب والمعاهدات الدولية، عدم محاسبة الامراء والنبلاء أو مصادرة املاكهم الا من خلال المحاكم المختصة، لا يحق للقيصرة تعيين ولي للعهد الاّ بموافقة المجلس " . وبعدما ابدت آن موافقتها على الشروط التي حددها المجلس وقعت في الثامن والعشرين من كانون الثاني ١٧٣٠ تعهداً خطياً الزمت فيه نفسها بتنفيذ ما ورد في الشروط اعلاه " **وبخلاف ذلك يحق للمجلس عزلها عن العرش** " (٢٧٦).

ما ان وصلت القيصرة الجديدة إلى بطرسبورغ في الخامس عشر من شباط حتى بدأت تتعالى الاصوات المطالبة بالعودة إلى " **الحكم المطلق** "، ففي الثامن عشر منه تلقت آن رسالة بعث بها كبار قادة الجيش واعيان البلاد تطالب بإقصاء اعضاء المجلس والحيلولة دون تدخلهم في شؤون المؤسسات المدنية والعسكرية، وفي العشرين منه انطلقت في بطرسبورغ وبقية المدن الاخرى تظاهرات كبرى شارك فيها الالاف من مختلف فئات المجتمع الروسي مطالبة القيصرة آن بالتحرر من وثيقة التعهد التي امضتها مع المجلس الاعلى واكتساب شرعية وجودها في السلطة عن طريق تأسيس ما يعرف بـ " **مجلس الشيوخ** "، وفي اليوم التالي انظمت الفرقة الخاصة المكلفة بحماية القصر الحكومي إلى جموع المتظاهرين مما اثر في مسار الاحداث حيث تمت محاصرة اعضاء المجلس المتحصنين في القصر وارغموا على الاستسلام، فيما اقدمت آن على تمزيق التعهد أمام أنظار المتظاهرين، ثم جرى الاعلان عن انبثاق مجلس اعيان جديد طعن في شرعية التعهد وأجبر اعضاء المجلس الاعلى على مغادرة القصر ومنعهم من المشاركة في ادارة الدولة(٢٧٧).

بعد ان تخلصت القيصرة آن من سطوة المجلس الاعلى بفضل المساندة الشعبية الواسعة فإنها واجهت خطراً جديداً تمثل بـ " **الامراء الدوفريان**" الذين طالبوا باستعادة جميع الامتيازات التي صادرها المجلس، وللحيلولة دون حصول ذلك فإنها قررت الاستعانة

بأبناء جلدتها من الالمان لتسيير شؤون الدولة فعينت (عشيقها) جوهان بيرون رئيساً للوزراء، واسترمان وزيراً للخارجية، ليفولند رئيساً لشؤون البلاط، الكونت فون موينسس مشرفا عاما على الجيش الروسي اضافة إلى آخرين غيرهم . وقد بررّت آن سياستها هذه **"بالخشية من طموحات الطامعين بالعرش لاسيما النبلاء وكبار قادة الجيش الروسي اذ لم تعد تثق بأحد من رجال البلاط واتهمتهم جميعا بالتآمر حسب زعمها** " [٢٧٨].

انتهجت آن وتحت تأثير "**الجناح الألماني**" الذي كان يحيط بها سياسة داخلية صارمة تجسدت بما يأتي[٢٧٩]:

اولاً- الالتفاف على ارادة الشعب الروسي بتعطيل الدور الذي كان ينبغي ان يمارسه مجلس الشيوخ في الحياة السياسية.

ثانياً- تقييد حرية التعبير عن الرأي وملاحقة العناصر المطالبة بالإصلاح.

ثالثاً- عزل كبار قادة الجيش وتشكيل قوة خاصة من الالمان لحماية القصر الحكومي.

رابعاً- اصدار عدد من المراسيم الخاصة بزيادة الضرائب التي طالت المزارعين وأصحاب المهن الأخرى.

اثارت السياسات المتشددة التي انتهجتها آن ردود افعال غاضبة لدى فئات المجتمع الروسي كما ازدادت المخاوف من تنامي نفوذ الاجانب (الالمان) الذين انتدبتهم القيصرة في ادارة مفاصل الدولة الروسية، ففي منتصف تشرين الاول ١٧٣٠ اعلن في بطرسبورغ عن احباط محاولة انقلابية قادها الامير فولسكي وشارك فيها عدد من اعضاء البلاط، وفي السادس والعشرين منه شهدت العاصمة تظاهرة كبرى قام بتنظيمها اعضاء ما يعرف بـ "**الحركة التصحيحية**" مطالبة بالعودة إلى أسس بناء وقيادة الدولة التي ارسى دعائمها القيصر بطرس الاكبر، فيما شرع المثقفون والكتاب بتوجيه الانتقادات اللاذعة للقيصرة جرّاء تسليمها إدارة البلاد للأجانب. ويبدو ان القيصرة آن ازدادت اصراراً على تجاهل

مطاليب شعبها حيث أصدرت في شباط ١٧٣١ مرسومين نص (الاول) على محاكمة ونفي العناصر المعارضة وتضمن (الثاني) تقييد حرية النشر والصحافة [٢٨٠].

أما على صعيد السياسة الخارجية فقد استمرت الرحلات الاستكشافية الروسية إلى المحيط الهادي حيث توجه الروسيان (ايفان فيودروف) و(ميخائيل غوزديف) في الرابع من آب ١٧٣٢ نحو الساحل الشمالي الغربي واكتشفا احدى الجزر، الأمر الذي شجع القيصرة على ارسال بعثة اخرى في الثامن والعشرين من كانون الأول بهدف توسيع الممتلكات الروسية في الساحل الغربي للقارة الأمريكية، اذ اوصت بضرورة توطيد العلاقات مع سكان ساحل المحيد الهادي وعدم اللجوء إلى القوة في اخضاعهم لتعزيز مصالح روسيا التوسعية هناك[٢٨١].

واقحمت القيصرة آن بلادها في حربين خاسرتين استنزفتا خزينة الدولة (الأولى) المشاركة في حرب الوراثة البولندية عام ١٧٣٣، و(الثانية) اعلان الحرب ضد الدولة العثمانية في تشرين الأول ١٧٣٥ بذريعة وضع حد لغزوات تتر القرم للأراضي الاوكرانية والتي استمرت حتى عام ١٧٤٠، ونتيجة لذلك شهدت روسيا ازمة اقتصادية كبيرة رافقها ارتفاع الاسعار وانتشار المجاعة في عموم البلاد[٢٨٢].

وقبيل وفاتها في الثامن والعشرين من تشرين الاول ١٧٤٠ قررت آن تعيين ابن شقيقتها المدعو (ايفان) البالغ ممن العمر سنتين ولياً للعهد ؛ واوكلت مهمة الوصاية عليه إلى جوهان بيرون حتى بلوغه سن الرشد وذلك رغم المعارضة التي ابداها الروس كونه من الأجانب . وشهدت روسيا في المدة (كانون الأول ١٧٤٠—تشرين الثاني ١٧٤١) اضطرابات داخلية بسبب الصراع على السلطة لاسيما بين اقطاب الجناح الالماني، إذ استغل القادة الروس هذا الصراع واقدموا على تنفيذ مؤامرة في البلاط ليلة الخامس والعشرين من تشرين الثاني ١٧٤١ فأسفرت عن تصفية بيرون واحتجاز القيصر الصغير ايفان وامه ونفيهما إلى مقاطعة شلوسلبورغ الالمانية، فيما تم الاتفاق بين بعض الأسر الارستقراطية

المتنفذة على ترشيح اليزابيث الابنة الصغرى للقيصر بطرس الاكبر لتولي العرش الروسي (٢٨٣).

٣ـ٩: القيصرة اليزابيث (١٧٤١ـ١٧٦٢)

حال تسلمها لزمام السلطة لجأت اليزابيث إلى اجراءات تحول دون عودة تدخل " **الجناح الألماني** " في الشأن الداخلي الروسي مرة أخرى فأصدرت عدداً من المراسيم كان ابرزها(٢٨٤):

اولاًـ عزل القيادات العسكرية التي عينها بيرون واستبدالها بقيادات جديدة موالية للعرش.

ثانياًـ تطهير المؤسسات المدنية من العناصر التي ابدت الولاء لـ "**الاجانب الالمان**".

ثالثاًـ تشكيل قوة عسكرية خاصة انيطت بها مهمة حماية وحراسة القيصرة داخل وخارج القصر تحت قيادة تشولكوف.

رابعاًـ احالة أركان الجناح الألماني وهم المستشار (اوسترمان) والفيلد مارشال (مونيش) والفيلد مارشال (لوڤنفولد) والمارشال (غولوفكين) إلى محكمة عسكرية والتي قررت نفيهم إلى سيبريا.

خامساًـ تأسيس ما يعرف بـ " **جهاز الشرطة السرية** " لملاحقة العناصر المناوئة.

ورغم الاهتمام الكبير الذي اولته القيصرة اليزابيث في التصدي لمناوئيها إلا انها لم تغفل مسألة الانفتاح على الشعب الروسي اذ شهد عهدها اعمالاً مهمة منها(٢٨٥):

اولاًـ تقديم الدعم الحكومي للمزارعين والتجار الروس بتبني الدولة لسياسة الحماية التجارية، فضلاً عن اعادة النظر في نسب الضرائب والرسوم الكمركية وتقديم القروض المالية.

ثانياًـ تأسيس جامعة موسكو عام ١٧٥٥ وارسال البعثات العلمية التخصصية لدراسة العلوم التطبيقية في الجامعات الغربية.

ثالثاًـ انشاء " **مجمع الفنون الجميلة** " في بطرسبورغ عام ١٧٥٨ بهدف استقطاب اصحاب المواهب الفنية.

رابعاً- تشجيع الفن المسرحي وانشاء ما يعرف بـ" **مسرح التياترو**" الذي مثلت على خشبته روائع النصوص الأدبية الايطالية والفرنسية.

خامساً- الغاء عقوبة الاعدام ونفي مرتكبي الجرائم الكبرى إلى المناطق النائية في سيبريا.

أما على صعيد السياسة الخارجية فقد اقحمت اليزابيث بلادها فيما يعرف بـ "**حرب السنوات السبع**" التي نشبت عام ١٧٥٧ وشاركت إلى جانب النمسا وفرنسا في القتال ضد بروسيا، وذكرت بعض المصادر ان مخاوف المستشار الروسي (بيستوجيف) من احتمالية قيام الملك البروسي (فردريك الثاني) باختراق الأراضي الروسية قد حفزته على اقناع القيصرة بالتحالف مع النمسا، اذ نجح الجيش الروسي بقيادة (تشيرنشيف) في الاستيلاء على عدد من المقاطعات البروسية والزحف نحو برلين، الاّ ان وفاة اليزابيث المفاجئة في الخامس والعشرين من تشرين الثاني ١٧٦١ وضعت حداً لتدخل الروس في تلك الحرب . وتجدر الاشارة هنا إلى ان القيصرة كانت قد اختارت ابن شقيقتها (آن) المدعو (بطرس الثالث) دوق هولشتاين لولاية العهد بهدف قطع الطريق أمام الطامعين في الوصول إلى العرش الروسي[٢٨٦].

٣-١٠: القيصر بطرس الثالث (١٧٦١-١٧٦٢)

ولد في العاشر من شباط ١٧٢٨ بمدينة هولشتاين الالمانية وقد توفيت امه بعد ثلاثة شهور من ولادته، ولما بلغ (١١) عاماً مات ابوه (كارلوس فردريك) دوق هولشتاين فانتقل إلى وصاية عمه (اودلوف فردريك)، وبناء على رغبة خالته القيصرة اليزابيث في تأهيله لولاية العرش فإنها سعت جاهدة لتحقيق هدفين (الاول) تعليمه اللغة الروسية التي كان يجهلها لنطقه اللغة الالمانية و(الثاني) ادخاله المذهب الأرثوذكسي كونه معتنقاً للبروتستانتية على المذهب اللوثري، كما اختارت له زوجة من اصول المانية تدعى (كاترين اوغستا)[٢٨٧].

استهل بطرس الثالث حكمه بإصدار عدد من المراسيم التي مثلت نهجا شخصيا جديداً في إدارة السلطة كان اهمها[٢٨٨]:

أولاً– حل " **مجلس الشورى** " لأجل الانفراد التام بالسلطة.

ثانياً– عزل قائد الجيش الروسي الجنرال (يورانسكي) ومساعديه الجنرال (سيموفسكي) والجنرال (يموفسكي).

ثالثاً– تشكيل فرقة عسكرية خاصة من عناصر تنتمي إلى أصول ألمانية .

رابعاً– الغاء جهاز الشرطة السرية.

خامساً– استبعاد جميع موظفي البلاط من الدوفريان وزجهم بالوظائف العامة.

سادساً– العفو عن مرتكبي بعض الجرائم ووقف اعمال التعذيب بحق المدانين في السجون.

سابعاً– إعادة جميع المنفيين إلى سيبريا جَراء سياسات الاضطهاد الديني والقومي التي شهدتها العهود السابقة.

واجه القيصر معارضة قوية من قبل الأطراف التي تضررت مصالحها بسبب سياسة النهج الجديد التي طالت الصعيدين الداخلي والخارجي، إذ تمثلت هذه الأطراف بـ(٢٨٩):

اولاً– قادة الجيش الروسي الذين رفضوا سياسة الاقصاء والتدخل المباشر في شؤون المؤسسة العسكرية ، كما وقفوا بالضد من سياسة بطرس الثالث الخارجية ولاسيما تنصله عن التحالف مع النمسا وفرنسا ومؤازرة ملك بروسيا (فردريك الكبير)، الأمر الذي كان يعني اعادة جميع الأراضي البروسية التي استولى عليها الجيش الروسي في الحرب وكذلك العمل تحت امرة القادة البروس، لذا طالب اولئك القادة القيصر بعدم تجاهل التضحيات التي قدمتها روسيا في الحرب " **معتقدين بأن التغاضي عن مقتل (٣٠٠) الف جندي وانفاق نحو (٣٠) مليون روبل يعد خيانة عظمى بحق الروس** " .

ثانياً– النبلاء وكبار موظفي الدولة الذين كانوا يخشون من عودة حكم الأجانب إلى البلاط والتحكم بمقدرات روسيا مما يفضي إلى فقدان امتيازاتهم.

ثالثاً– قادة ورجال الكنيسة الأرثوذكسية الذين شعروا بالإهانة جراء التوجهات البروتستانتية لبطرس الثالث ومنها حلق اللحى الطويلة وارتداء الملابس المدنية ونزع الايقونات المقدسة باستثناء ايقونة المسيح وامه العذراء، كما رفضوا فكرة القيصر بتشييد كنيسة بروتستانتية في القصر الإمبراطوري.

وقد استغلت أطراف المعارضة سوء العلاقة العائلية ما بين القيصر وزوجته كاترين وجرى الاعداد لمؤامرة بالتنسيق مع الأخيرة والتي اسفرت عن الاطاحة بـ بطرس الثالث في الثامن والعشرين من حزيران ١٧٦٢ ومن ثم اغتياله في الثامن من تموز وبذلك مهد الطريق أمام كاترين لاعتلاء العرش الروسي(٢٩٠).

٣ـ١١: القيصرة كاترين الثانية (١٧٦٢ـ١٧٩٦)

ابنة الامير الالماني كرستيان اوغسطين ولدت في الثاني عشر من ايار ١٧٢٩ واعتنقت المذهب الأرثذوكسي قبيل زواجها من القيصر بطرس الثالث في التاسع من تموز ١٧٤٤ ، لقبها الروس بـ " **الكبيرة** " و " **العالمة** " و "**أم الوطن**" وقد علقت على هذه الالقاب بقولها : " **اني اترك للأجيال القادمة قضية الحكم عليّ فيما اذا كنت كبيرة اما (العالمة) فلقب لا استطيع ان اطلقه على نفسي لأن (العالم) هو الله وحده، واذا كنت (أم الوطن) فلأن واجبات التاج تدعوني إلى ان أحب اولئك الذين اختارهم الله ليكونوا رعاياي غير ان امنيتي الكبرى هي ان يحبوني كما أحبهم**"، كما خاطبت شعبها بأقوال مأثورة منها(٢٩١):

- ان الامة ليست لملكها ولكن الملك لأمته.
- انما تقوم المساواة بطاعة الشعب للقوانين.
- الحرية هي ان يباح لكل أحد ان يعمل مالا يحرمه القانون.
- الافضل ان ينجو من العقاب عشرة مجرمين خير من ان يعاقب بريء واحد.
- الحرية قوام الافكار والاعمال فاذا فقدناها فقدنا كل شيء.

- التعذيب الجسدي في السجن يحمل الضعيف على الاعتراف بذنب لم يقترفه اما القوي فينجو من العقاب ولو كان مذنباً.
- الصفح يدعو إلى نقصان الجرائم أما العقاب فيورث نيران الانتقام ويضاعف الآثام.
- يجب الخضوع لقرارات السلطة التشريعية لكني لا اريدكم ان تكونوا ارقاء.

أولت القيصرة كاترين الثانية منذ تسلمها الحكم مسألة الاصلاحات الداخلية، اهتماماً خاصاً اذ اعتقدت بأن قوة روسيا تنطلق من اعادة النظر في البناء الداخلي لذا شرعت بخطوات اصلاحية جادة شملت مختلف الميادين لعل ابرزها(٢٩٢) :

أولاً– صدور عدد من المراسيم الخاصة بإصلاح الاجهزة الادارية في الدولة منها:

- الغاء التقسيم الإداري الذي اوجده القيصر بطرس الاكبر القائم على أساس تقسيم روسيا إلى (١٥) ولاية أو مقاطعة واقرار قانون جديد زاد عدد الولايات إلى (٥٠) ولاية بالاستناد إلى قاعدة الكثافة السكانية البالغة نحو (٤٠٠) الف شخص لكل منها، وذلك لضمان تطبيق الأنظمة والقوانين والحفاظ على الأمن الداخلي.
- تشريع نظام ضريبي جديد يهدف إلى تنمية ايرادات الخزينة المركزية من خلال زيادة نسب الضرائب ورسوم الكمارك.
- تطهير القضاء من العناصر المرتشية والفاسدة للحيلولة دون استمرار الفوضى القضائية الناجمة عن فساد القضاة وسوء الائتمان على المصالح العامة لفئات المجتمع الروسي.
- احالة جميع الموظفين المقصرين إلى القضاء وقد تصل العقوبة إلى الطرد أو الحبس.
- تأسيس ما يعرف بـ " **المجلس الإداري**" و " **الديوان المالي**" و "**مجلس القضاء**" في جميع المقاطعات الروسية وذلك وفقاً للتقسيم الجديد، وتخويل مسؤولي هذه المجالس صلاحيات البت في القضايا المتعلقة بالضرائب والاملاك وتعداد السكان فضلاً عن الاشراف على التعليم والمستشفيات.

ثانياً– الاهتمام بالمؤسسة العسكرية وتطوير مهارات الجيش الروسي في مجالات التدريب والتعبئة والتسليح والتنظيم والخطط الحربية، إضافة إلى زيادة عدد افراده إلى نحو (١٥٠) الف مقاتل بعد ان كان لا يتجاوز عدده عام١٧٦٢ (١١٠) الف مقاتل.

ثالثاً– تنمية موارد الاقتصاد الروسي بتقديم الدعم للقطاع الصناعي وبخاصة التوسع في إقامة مصانع النسيج حيث بلغ عددها نحو (٣٠٠) مصنع، إضافة إلى تشجيع أصحاب رؤوس الاموال على استثمار اموالهم في مجال النشاط الخاص وفقاً لضوابط محددة تستند إلى تنظيم العلاقة ما بين أرباب العمل والعاملين وكذلك تحديد الاجور . وفي القطاع الزراعي تركز الاهتمام على استصلاح الاراضي الزراعية وحث المزارعين على الاستغلال الواسع للأرض لاسيما بعد القرار الذي اتخذته كاترين الثانية بإلغاء "**نظام القنانة**" . اما في القطاع التجاري فقد لجأت الحكومة إلى عدد من الإجراءات التي ساهمت في تنشيط التجارة الداخلية ومنها تقديم التسهيلات الكمركية للتجار وافتتاح القنوات النهرية لتسهيل نقل البضائع من بحر قزوين مروراً بالأراضي الروسية حتى شواطئ البلطيق.

رابعاً– تأسيس بنك مركزي من مهامه إصدار العملة الروسية.

خامساً– فتح باب الهجرة أمام جميع الاوربيين الراغبين بالاستيطان في روسيا ولاسيما الالمان وذلك لزجهم في مختلف ميادين العمل مع ضمان حرية ممارستهم لمعتقداتهم الدينية، ومنحهم قروضا تسدد في مدة حددت بـ (١٠) سنوات وعدم شمولهم بالضرائب لمدة (٣٠) سنة، وقد بلغ عدد المهاجرين في عهد القيصرة كاترين الثانية نحو (٣٥) ألف مهاجر.

سادساً– مصادرة أملاك الكنائس والأديرة واحالة جميع اوقافها إلى عائدية الدولة وبذلك تم تحرير نحو مليون شخص من الاقنان الخاضعين لتسلط رجال الدين، كما تمت اقالة ونفي رئيس اساقفة الكنيسة الأرثذوكسية (روستوف) الذي عارض وبقوة هذه السياسة . ولأجل ان تثبت القيصرة كاترين عزمها على تنفيذ خطتها في اخضاع

المؤسسة الدينية إلى سيطرة الدولة اجتمعت بأعضاء المجمع المقدس " **السينودوس**" وخاطبتهم صراحة بقولها: " **انتم خلفاء الرسل الذين القى الله عليهم مهمة التبشير بالزهد واحتقار الثروات وحطام العالم، كما اوجب عليهم ان يكونوا قدوة في زهدهم وفقرهم، مملكتكم ليست من هذا العالم فهل ادركتم ما اعنيه ؟ لقد سمعت هذه التعاليم من افواهكم مراراً عديدة فكيف تجرؤون بعد هذا على حشد الثروات الطائلة؟ وكيف تبيحون لأنفسكم اقتناء الاملاك الواسعة دون ان تسيئوا إلى ايمانكم ووجدانكم، فاذا كنتم تخضعون لتعاليمكم المقتبسة من الكتب المقدسة، واذا اردتم ان تكونوا رعاياي الاوفياء فلا ترددوا ان ترّجعوا إلى الدولة ما تملكونه باطلاً** " .

سابعاً– التوسع في قنوات التعليم ونشر الثقافة والعناية بالعلماء وتشجيع التأليف والترجمة والطباعة والصحافة.

ثامناً– الاهتمام بالمرأة وتشجيع الفتيات على التعلم حيث أمرت القيصرة بإنشاء مدرسة خاصة في العاصمة عرفت بـ " **مدرسة سمولني** " ضمت نحو (٥٠٠) تلميذة وكانت وجهة نظرها " .. **اننا نود ان لا تصير بناتنا من ذوات الغنج والدلال ولا من الراهبات المتبتلات** " .

تاسعاً– تأسيس جمعية خيرية تعنى بشؤون الايتام ومساعدة الفقراء وايواء المشردين من كبار السن، وقد ساهمت هذه الجمعية التي كان مقرها في موسكو بتقديم المساعدات لنحو (٥٠) ألف مواطن روسي.

أما سياسة روسيا الخارجية في عهد كاترين الثانية فإنها استندت إلى ثلاث أهداف ستراتيجية هي " **استعادة الاراضي البيلاروسية والاوكرانية التي استولى عليها الجيش البولندي، الحفاظ على المكاسب الأرضية التي حققها الروس في المناطق المتاخمة لبحر البلطيق، المضي في تحقيق الحلم التاريخي للوصول إلى شواطئ البحر الاسود**

والمياه الدافئة "، الأمر الذي كان يفضي إلى حتمية الصدام مع بولندا والدولة العثمانية . فقد استغلت كاترين حالة الفوضى السياسية والضعف العسكري والانقسام الاجتماعي الذي شهدته بولندا بعد وفاة الملك اوغسطين الثالث في الخامس والعشرين من تشرين الأول ١٧٦٣ واستدعت كبار قادة الجيش لإعداد الخطط الحربية الخاصة بمهاجمة الاراضي البولندية، ولكن هؤلاء القادة لم يشاطروا القيصرة الرأي خشية اثارت بروسيا والنمسا (٢٩٣).

أدركت كاترين الثانية ان سيناريو اجتياز الحدود البولندية لا يمكن ان يتم الا بالتفاهم مع الحكومتين البروسية والنمساوية، وبقي هذا السيناريو " **مشروعاً مؤجلاً** "حتى عام ١٧٧٢ حيث تم التوصل إلى تحالف ثلاثي " **روسي– بروسي– نمساوي**" تضمنت بنوده تقسيم بولندا بين الدول المتحالفة، وبموجبه حصلت روسيا على الجزء الشرقي الذي يضم مدن (بولتسك، فيتبسك، موكايفك) (٢٩٤).

أقدمت روسيا على تقسيم بولندا في الوقت الذي كانت تخوض فيه حربا طاحنة ضد الدولة العثمانية على جبهة امتدت من الدانوب والقرم وما وراء القفقاس وبحر ايجه إلى البحر الاسود، ففي عام ١٧٦٨ اعلن العثمانيون الحرب ضد الروس للأسباب الآتية(٢٩٥):

أولاً– اتهام روسيا بخرق المواثيق الثنائية وبخاصة " **معاهدة بلغراد** " الموقعة بين الدولتين عام ١٧٣٩، اذ اعتبرت الحكومة العثمانية قيام الجيش الروسي بإنشاء التحصينات العسكرية على الحدود الاوكرانية في المنطقة الواقعة بين البوج واوكرانيا مخالفا لما اشترطته المعاهدة بهدم جميع التحصينات التي اقامها الروس في آزوف ، لا بل عدت هذا الاجراء انتهاكا للسيادة العثمانية.

ثانياً– تمادي الروس في اثارة المشاكل بين العثمانيين والتتار ومحاولة مد النفوذ الروسي إلى الاراضي الواقعة بين البوج واوكرانيا للحيلولة دون أي اتصال عثماني – تتري في حال اندلاع حرب روسية – عثمانية.

ثالثاً– قيام الجيش الروسي باجتياز حدود اقليم (بَلطَه) الخاضع للسيادة العثمانية بذريعة تعقب وملاحقة العناصر البولندية المناوئة والرافضة لتواجد القوات الروسية في اراضيها، الأمر الذي فسره العثمانيون بـ " **الاستفزاز غير المبرر**".

رابعاً– دعم الحكومة الروسية للحركات الانفصالية ولاسيما التتار في شبه جزيرة القرم مما يهدد امن المنطقة ويخل بتوازن القوى فيها.

تمكن الروس وفق لمعطيات مجريات الحرب التي استمرت حتى عام ١٧٧٤ من تحقيق هدفين ستراتيجيين هما[٢٩٦]:

الأول: الحاق الهزيمة بالجيش العثماني المرابط في القرم وتأسيس دولة تترية تتمتع باستقلال ذاتي تحت اشراف مباشر من قبل الحكومة الروسية وذلك عام ١٧٧١ مما أثار استياء بريطانيا.

الثاني: استغلال حالة الانهيار العسكري العثماني والاقدام على احتلال ولاشيا ومولدافيا الخاضعتين للسيادة العثمانية عام ١٧٧٢ الأمر الذي اغاض النمسا.

ورغم النجاحات العسكرية التي حققها الروس الاّ انهم قرروا وقف الحرب لسببين (الاول) اندلاع ما يعرف بـ " **ثورة الفلاحين** " (١٧٧٣–١٧٧٤) وما رافقها من أعمال عنف ادت إلى زعزعة الوضع الداخلي في روسيا، و(الثاني) الاهتمام بالشأن البولندي اثر عملية التقسيم الذي جرت عام ١٧٧٢ . وبعد مفاوضات بين الدولتين المتحاربتين تم التوصل في الخامس عشر من تموز ١٧٧٤ إلى " **معاهدة تاريخية**" عرفت بمعاهدة " **كجك كينارجي**." حصلت بموجبها روسيا على مكاسب ارضية وامتيازات سياسية وتجارية ودينية يمكن اجمالها بما يأتي[٢٩٧]:

١. حصول روسيا على ميناء آزوف وقلعة كينبورن على مصب نهر الدنيبر في البحر الاسود فضلاً عن المنطقة المحصورة ما بين الدنيبر وبوج مقابل انسحاب الروس من ولاشيا ومولدافيا.

٢. موافقة السلطان العثماني على منح الاستقلال لخانية القرم.

٣. قيام روسيا بتعيين سفير لها في اسطنبول لرعاية مصالح بلاده في الدولة العثمانية.

٤. السماح للسفن الروسية بالملاحة في البحر الاسود فضلاً عن استخدام الموانئ العثمانية بحرية تامة.

٥. اقرار السلطان العثماني برعاية روسيا لمصالح المسيحيين الأرثذوكس في انحاء الدولة العثمانية، اضافة إلى موافقته على تشييد كنيسة أرثذوكسية في العاصمة اسطنبول وتقديم التسهيلات اللازمة للروس الذين يرومون زيارة الاماكن المقدسة في فلسطين.

وعملاً بالنصيحة التي اسداها كبار القادة الروس قررت كاترين الثانية في السادس والعشرين من آذار ١٧٨٧ ضم جزيرة القرم، وفي الثامن من نيسان صدرت الاوامر للقوات الروسية بالتمركز هناك بذريعة تامين الحدود الجنوبية حيث اسندت ادارتها إلى مستشارها الشخصي القائد (بوتيمكين)، ولم يتوقف الروس عند هذا الاجراء حسب انما شرعوا بتأسيس قاعدة بحرية روسية في البحر الاسود فأنشأوا ميناء (سيبستابول) مما اثار استياء الحكومة العثمانية(٢٩٨).

ورغم مناشدة السلطان عبد الحميد الاول للقيصرة كاترين بالتراجع عن احتلال القرم وفرض سياسة الامر الواقع لتجنب اثارة الحرب مجدداً، الا ان الأخيرة لم تكتف برفض الطلب العثماني حسب وانما سعت إلى اقناع ملك النمسا جوزيف الثاني (١٧٤١-١٧٩٠) بالتوصل إلى اتفاق (روسي- نمساوي) لاقتسام الاملاك العثمانية في اوربا، الامر الذي اعتبره السلطان " **استفزازاً صارخا وانتهاكا لهيبة الدولة**" فسارع إلى اعلان الحرب في الثالث عشر من آب ١٧٨٧ . رافقت مجريات الحرب والتي استمرت نحو (٥) سنوات تطورات عسكرية وسياسية خطيرة اذ تمكنت القوات الروسية بقيادة (سواروف) من احتلال ميناء (اوشاكوف) في الشمال الغربي من البحر الاسود وذلك في التاسع والعشرين من تشرين الثاني ١٧٨٧، فيما حققت تلك القوات وبمساندة من الجيش النمساوي انتصارات

كبيرة في الجبهة البلغارية تنفيذا للاتفاق المبرم بين الدولتين، اذ تم دحر العثمانيين في جبهة واسعة شملت المدن الواقعة على نهر التون ، بساربيا ، ولاشيا ومولدافيا وبلغراد في خريف عام ١٧٨٩[٢٩٩].

وبسبب التعقيدات الدولية الناشئة عن قيام الثورة في فرنسا عام ١٧٨٩ وخشية امتداد خطرها ومبادئها إلى الأراضي النمساوية قررت النمسا التنصل عن اتفاقها مع روسيا والخروج من الحرب، وفي الوقت ذاته سعت إلى تسوية بعض المسائل العالقة مع الدولة العثمانية وتم التوصل إلى معاهدة "سيستوفا" في الثاني والعشرين من آب ١٧٩١ التي نصت على انسحاب الجيش النمساوي من بلاد الصرب وتبعية بلغراد إلى سيادة السلطان العثماني[٣٠٠].

لم يثن انسحاب النمسا الحكومة الروسية من مواصلة الحرب اذ تمكن الجيش الروسي في المدة (١٧٩١-١٧٩٢) من الحاق الهزائم الكبرى بالقوات العثمانية في جبهتي الدانوب والتون وتكبيدها خسائر جسيمة بلغت نحو (٥٠) ألف قتيل، كما استولى الروس على مدينتي كليكيا وأكرامان فضلاً عن المواقع الستراتيجية المطلة على نهر التون مما اثار قلق الدول الاوربية لاسيما بريطانيا وبروسيا اللتان أدركتا خطورة استمرار الحرب ونتائجها السلبية على مصالحهما الحيوية، بالنسبة لبريطانيا كانت تخشى من اقدام روسيا على احتلال منطقة المضائق، اما بروسيا فكانت هي الاخرى تتحسب لتوسع الروس في بولندا وبحر البلطيق[٣٠١].

ونتيجة لازدياد الضغوط الدولية الرامية إلى وقف الحرب وبخاصة المساعي التي قامت بها الحكومتان البريطانية والبروسية اعلنت روسيا موافقتها على انهاء العمليات العسكرية والدخول في مفاوضات مع الدولة العثمانية، ففي التاسع من كانون الثاني ١٧٩٢ وقع الروس والعثمانيون على " معاهدة جاسي" وفقا للبنود الآتية[٣٠٢]:

١- تنازل الباب العالي عن جزيرة القرم وبسارابيا والاقاليم الواقعة بين بوج والدنيبر ليكون النهر حداً فاصلاً للحدود الروسية — العثمانية.

٢- موافقة الروس على اعادة وولاشيا ومولدافيا وقلعة اسماعيل وكليكيا إلى السيادة العثمانية شرط التنازل عن ميناء اوشاكوف واعفاء سكان هذه المناطق من الضرائب.

٣- تعهد الباب العالي بتامين الحماية للسفن التجارية الروسية المارة ب(تفليس وكاتالينا) على البحر المتوسط من هجمات القراصنة، وتعويض التجار الروس عن أية اضرار تحدث لتلك السفن حين مرورها في المناطق اعلاه.

٤- تشكيل لجان مشتركة تتولى مهمة تنظيم تبادل الاسرى واعادتهم إلى بلدانهم.

وفي خضم هذه الانجازات التي عززت تواجد الروس في السواحل الشمالية للبحر الاسود اعلن البلاط القيصري في السادس عشر من تشرين الثاني ١٧٩٦ عن وفاة كاترين الثانية بالسكتة القلبية، وقد خلفها على العرش ابنها البكر بول الأول[٣٠٣].

٣-١٢: القيصر بول الأول (١٧٩٦-١٨٠١)

استهل القيصر الجديد عهده بإحكام القبضة على الداخل الروسي وذلك بتبنيه لنظرية الحكم المطلق ووقوفه بالضد من الأفكار الثورية التي روجت لها الثورة الفرنسية، وفي هذا الصدد اتخذ عدد من القرارات كان أهمها[٣٠٤]:

<u>أولاً</u>- حصر ولاية العهد أو خلافة العرش في نجل القيصر البكر " **واذا لم يكن للقيصر المتوفى ذكر يخلفه فالإرث ينتقل إلى شقيق القيصر اما النساء فلا يحق لهن على الاطلاق أن يتبوأن العرش** " ، وهذا التشريع قد اتاح للقيصر فرصة لأن يلقب نفسه ب" **رئيس الكنيسة** ".

<u>ثانياً</u>- تقييد حرية الرأي وتشديد الرقابة على الصحافة ومنع استيراد وتداول المطبوعات القادمة من الخارج.

<u>ثالثاً</u>- تأسيس جهاز " **الشرطة السرية** " لملاحقة العناصر المناوئة للسلطة أو تلك التي تروج لأفكار الثورة الفرنسية.

رابعاً– خضوع المؤسسة العسكرية بجميع تشكيلاتها إلى سيطرة القيصر المباشرة، واقصاء كبار القيادات التي كان يشك في ولائها للسلطة.

خامساً– التدخل في شؤون القضاء واصدار الاحكام الخاصة بنفي المعارضين السياسيين إلى مناطق نائية في سيبريا.

سادساً– التشديد على تطبيق نظام القنانة ووضع نحو مليون مزارع تحت تصرف النبلاء من أصحاب الاملاك الزراعية العقارية وذلك لرفد الخزينة الروسية بمزيد من الاموال بما يخدم مخططات القيصر ويعزز وجوده في السلطة.

سابعاً– تطبيق سياسة " **الإدارة المركزية** " في تسيير شؤون الوزارات والمؤسسات بما ينسجم مع رؤى القيصر الشخصية في إدارة الدولة.

ثامناً– زيادة عدد الوحدات العسكرية المقاتلة وتجهيزها بأحدث البنادق والمدافع .

اما على صعيد السياسة الخارجية فقد أدرك پول الأول خطورة ازدياد النفوذ الفرنسي في الدولة العثمانية بعدما قررت حكومة الادارة غزو مصر عام ١٧٩٨، لذا سعى إلى فتح باب التفاوض مع العثمانيين لإيجاد تقارب روسي – عثماني هدفه التصدي للاحتمالات الناشئة عن ذلك الغزو لاسيما تهديد المصالح الروسية في البحر المتوسط، اذ نجحت الدبلوماسية الروسية في اقناع الباب العالي بعقد معاهدة تحالف بين الدولتين للوقوف بالضد من المشاريع الفرنسية . وتضمنت المعاهدة التي وقعت في الثالث من كانون الثاني ١٧٩٩ تعهد الروس بتقديم الدعم للعثمانيين ضد أي هجوم فرنسي يستهدف منطقة المضائق والعاصمة اسطنبول مقابل سماح الحكومة العثمانية للأسطول الحربي الروسي باستخدام البسفور والدردنيل في حال نشوب حرب روسية – فرنسية[٣٠٥] . وأشارت احدى الدراسات إلى ان هذا التحالف "**وان كانت اهدافه المرحلية تصب في مصلحة العثمانيين لإبعاد الخطر الفرنسي حيث تجلى ذلك بالدعم الذي قدمته البحرية الروسية للأسطول العثماني في طرد السفن الفرنسية المتواجدة في الجزر الايونية،**

ولكن في الواقع كانت ترافقه مخاطر جمة مرتبطة بطموحات ومشاريع روسيا في الوصول إلى منطقة المضائق والهيمنة على شعوب دول البلقان "(٣٠٦).

وبسبب التهديد الذي أصبح يشكله وجود هذه المعاهدة على مصالح بريطانيا في المضائق العثمانية والبحر المتوسط سارعت الحكومة البريطانية إلى احتلال جزيرة مالطا كإجراء استباقي لإحباط المشاريع التوسعية التي كانت تخطط لها كل من روسيا وفرنسا، الامر الذي حفز الروس على التفاهم مع الفرنسيين بخصوص انتزاع مالطا من السيطرة البريطانية والحاقها بـ روسيا، وقد نتج عن هذا التفاهم توصل الحكومتان الروسية والفرنسية إلى عقد معاهدة تحالف موجه ضد بريطانيا في كانون الثاني ١٨٠١ والتي نصت على " **قيام روسيا بمهاجمة المصالح البريطانية في الهند بينما تتولى فرنسا مهمة اخراج الاسطول البريطاني من الجزر التي يحتلها في البحر المتوسط** "(٣٠٧).

بادر القيصر پول الأول في الثاني عشر من كانون الثاني ١٨٠١ إلى ارسال جيش قوامه نحو (٢٢) الف مقاتل من قوزاق الدون تسانده كتيبة من سلاح المدفعية لغزو الهند، الا ان هذه الحملة لم تنجح في تحقيق اهدافها وعادت إلى ادراجها في مطلع نيسان للأسباب الآتية (٣٠٨):

أولاً– الافتقاد للخطط الحربية اللازمة بسبب جهل الروس لطبيعة ساحات القتال.

ثانياً– صعوبة تموين الجيش الذي " **قطع الوف الاميال في سهول جرداء مكسوة بالثلج وطرق وعرة واودية عميقة وغابات كثيفة** ".

ثالثاً– التوقيت غير المناسب لإرسال الحملة حيث تزامن ذلك مع اشتداد موجة البرد القارص والعواصف الثلجية.

ورغم جميع " **الوسائل القمعية** " التي لجأ اليها پول الأول للقضاء على مناوئيه الا انه وقع ضحية مؤامرة شارك فيها عدد من جنرالات البلاط الناقمين على سياساته في إدارة شؤون البلاد ومنهم الجنرال المعزول (بينيغسين) والجنرال (بلاتون زابون)، ففي ليلة (٢٣–

٢٤ آذار ١٨٠١) تمكن هذان الجنرالان برفقة قوة مسلحة من اقتحام الجناح الخاص الذي يتواجد فيه القيصر " **واعلماه بأنه سجين، ثم قدم اليه زابوف بيانا كانوا قد أعدوه سابقا وسأله ان يوقعه فلما عرف فحواه رفض ان يتخلى عن العرش واعلن بشدة انه لا يمضي بيانا كهذا، ثم اخذ يصرخ طالباً النجدة ... وقد خشي زابوف ورفيقه ان تمضي المؤامرة بالإخفاق فلم يسعهما الا الالتجاء للقوة، وعندئذ هجم عليه احد الضباط واسمه لا يزال مجهولا حتى الآن على ما يقول المؤرخون، فرمى القيصر على الارض وجثم على صدره ... فانتزع الضباط شقة من قماش حريري ووضعها في عنق بولس ثم ربطها واحكم شدها ... ومات خنقاً** ". وورد في الروايات ان الكونت (باهلين) حاكم بطرسبورغ العسكري وهو من المشاركين في المؤامرة ايضاً قد دخل على ابن القيصر وولي عهده المدعو (الاسكندر) واخبره بمصرع والده فاجهش الاخير بالبكاء، ثم اقتاده بعنف قائلاً: "**ان المجال لا يتسع للبكاء والعواطف المائعة تعال واحكم، إبرز امام الحرس ولا تنسى ان هناك الملايين من الارواح يتوقف على سلوكك وثباتك**"، ثم دفعه إلى باب القصر حيث احتشدت فرقة الحرس الإمبراطوري " **فلما وقعت عينه [الاسكندر] على الجنود استرد رباطة جأشه قائلاً ... مات ابي على اثر نوبة شديدة الوطأة، انني سأقتفي في ملكي خطوات جدتي المحبوبة كاترين ... فهتف الجنود ليحيى الامبراطور قيصرنا الاسكندر** "[٣٠٩].

٣ـ١٣: القيصر الاسكندر الأول (١٨٠١ـ١٨٢٥)

اعتلى الاسكندر الاول عرش روسيا في ظل اوضاع داخلية مضطربة جراء المؤامرة التي اودت بحياة والده ، غير ان قوة الشخصية التي عرف بها مكنته من التغلب على الصعاب التي رافقت تلك المرحلة، وقد شهد عهده صدور عدد من المراسيم والتشريعات المتعلقة بالشأن الداخلي الروسي كان ابرزها[٣١٠]:

اولاً- الاعلان عن انبثاق " **المجلس الاستشاري الامبراطوري** " في خطوة لإقناع الروس بنهجه الليبرالي الاصلاحي.

ثانياً– اعادة النظر في نظام " **مجلس الشيوخ الروسي**" ومنحه "**سلطة وهمية لا قيمة لها** " الأمر الذي يعني تغييب الدور الرقابي لهذا المجلس في منظومة إدارة الدولة.

ثالثاً– تكليف (نيكولاي نوفوسيلتسيف) وهو من كبار المسؤولين في الحكومة الروسية بإعداد " **مسودة الدستور الروسي** " الا ان القيصر قرر تأجيل اصداره.

رابعاً– تشريع ما يعرف بـ " **قانون الفلاحين الاحرار** " والذي أُقر عام ١٨٠٣ اذ حصل الملاكون العقاريون على حق تحرير الفلاحين والسماح لهم بشراء الارض.

خامساً– اعتاق الارقاء وتحرير الفلاحين في المقاطعات البلطيقية وقد خاطب الاسكندر الأول النبلاء الليفونيين قائلاً: " **لقد ادركتم ايها السادة ان المبادئ الحرة وحدها هي التي تستطيع ان تهيء اسباب السعادة للشعوب** " .

سادساً– اطلاق سراح السجناء السياسيين الذين تم احتجازهم في " **قلعة القدسيين بطرس وبولس** " بأوامر من والده واسقاط تهمة الخيانة عنهم.

سابعاً– العفو عن (٤٨٢) معارضا سياسيا تقرر نفيهم إلى سيبريا في فترة حكم بول الاول وسمح لهم بالعودة إلى مدنهم.

ثامناً– الغاء ما يعرف بـ " **فرقة الشرطة السرية** " وتأسيس جهاز استخباري جديد يُعنى بضبط الامن الداخلي وملاحقة المناوئين والمتآمرين.

تاسعاً– الاهتمام بالمؤسسة العسكرية وذلك باعادة النظر في المسائل التعبوية والخطط العسكرية والتدريب والتسليح لمواجهة الاحتمالات العسكرية الناجمة عن السياسات التوسعية لنابليون بونابرت في اوربا، فضلاً عن تحديث الاسطول الحربي الروسي وتعزيز قدراته القتالية.

عاشراً– منع نشاط المحافل الماسونية بعد ان اصبحت " **منظمة شبه حكومية** " في البلاد كما تم حظر نشاط الجمعيات السرية الاخرى.

حادي عشر– التوسع في التعليم الجامعي حيث تم افتتاح المعهد العالي للعلوم بمدينة ياروسلاف عام ١٨٠٣، وتأسيس جامعة قازان عام ١٨٠٤ وجامعة خاركوف عام ١٨٠٥.

ثاني عشر– تشكيل لجنة خاصة لمراقبة الكتب والمطبوعات التي يتم استيرادها من الخارج للحيلولة دون انتشار الافكار المضادة " **لحكم السلطة المطلق** ".

ثالث عشر– السماح باستيراد المطابع على ان تخضع منشوراتها إلى رقابة حكومية صارمة.

رابع عشر– تشريع عدد من القوانين الخاصة بتنمية موارد الاقتصاد الروسي في القطاعين الزراعي والتجاري ومنها التشديد على جباية الضرائب ورسوم الكمارك فضلاً عن تشجيع الاستثمار في القطاعات الخاصة.

ركزت السياسة الخارجية الروسية في عهد الإسكندر الاول على مسألتين أساسيتين: (الأولى) محاولة التأثير على المصالح البريطانية في الهند و(الثانية) التصدي لمشاريع نابليون بونابرت التوسعية في اوربا والشرق، بالنسبة للمسألة الاولى ادرك الساسة الروس ان الخطوة الاولى لتهديد المواصلات بين بريطانيا والهند كانت تتطلب الاسراع باحتلال بلاد فارس، لذا جاء قرار القيصر عام ١٨٠٤ بإرسال حملة عسكرية إلى هناك حيث تمكن الجيش الروسي من استثمار تفوقه في العدد والتجهيز والتسليح والتدريب والحق الهزيمة بالفرس، الامر الذي اثار حفيظة البريطانيين والفرنسيين على حد سواء مما اجبر الروس على التراجع وعقد معاهدة " **كلستان** " في الرابع والعشرين من تشرين الاول ١٨١٣ التي تضمنت البنود الآتية[٣١١]:

١. موافقة بلاد فارس على التنازل لروسيا عن مدن دربند، شكياه، كنجة، شيروان اضافة القسم الشمالي من تالش.
٢. الهيمنة المطلقة للأسطول الحربي الروسي على بحر قزوين.
٣. تعهد بلاد فارس بالتخلي عن المطالبة بـ(جورجيا، داغستان، شمال اذربيجان، جزيرة باكو).

٤. تنظيم العلاقات التجارية وتحديد نسبة رسوم الكمارك بما لا يزيد عن ٥% من قيمة البضائع المتبادلة بين الدولتين.

٥. السماح للمواطنين الروس من اصول فارسية بالتنقل والتجارة بين الدولتين.

أما بخصوص (المسألة الثانية) فان الاسكندر الأول قرر عام ١٨٠٥ الانضمام إلى التحالف الاوربي الرابع المناهض لسياسات نابليون وأطماعه التوسعية، غير ان القيصر الذي كان يخطط للاستيلاء على وولاشيا ومولدافيا ادرك تماماً " **ان ذلك لن يتم الا بموافقة فرنسية على اقتسام ممتلكات الدولة العثمانية ففضل التريث، وبالتالي فقد عقد معاهدة مع فرنسا ليرد على الاتفاق الفرنسي – البروسي الذي وافقت فيه بروسيا على مناصرة نابليون ضد أي اعتداء روسي على الإمبراطورية العثمانية**" (٣١٢). وفي الخامس والعشرين من حزيران ١٨٠٧ التقى الاسكندر مع نابليون على عوامة في نهر السين الذي كان يمثل الحدود بين بروسيا وروسيا وتم الاتفاق على " **عدم خسارة روسيا لأي جزء من اراضيها ومساعدتها من قبل فرنسا لتحقيق مصالحها في فنلندا مقابل اعتراف القيصر بكل التغييرات التي اجراها أو التي سيجريها نابليون في الأراضي الالمانية بموجب معاهدة الصلح مع بروسيا . وتعهد القيصر ايضاً بالانضمام إلى فرنسا في تنفيذ الحصار القاري قد انكلترا** " . وقد توج هذا اللقاء بالتوقيع على معاهدة " **تلست**" في الثامن من تموز التي شددت العقوبات على بروسيا واتاحت لنابليون فرصة اقامة مملكة ويستفاليا في اراضي غرب المانيا وتعيين اخاه (جيروم) ملكاً عليها، وضم دوقية (فرصوفيا) إلى حليفه ملك سكسونيا، فضلاً عن التعويضات الحربية الباهضة ومرابطة الجيش الفرنسي في الأراضي الالمانية حتى يتم تسديد تلك الغرامة (٣١٣)، ومما تضمنته المعاهدة في احد بنودها السرية بعد ان أُقر مبدأ الوساطة الفرنسية بين الروس والعثمانيين " **ان لم يقبل الباب العالي توسط فرنسا بسبب الحوادث الاخيرة التي حدثت بالاستانة، أو ان لم يتم المقصود بكيفية مرضية بعد قبول هذا التوسط بخمسة وثلاثين يوماً، فتتحد**

فرنسا مع روسيا على سلخ جميع الولايات العثمانية باوربا ماعدا الاستانة وما حولها وتقسيمها فيما بينهما مع ارضاء النمسا بجزء يسير وكيفية ذلك التقسيم: ان يكون لفرنسا بلاد البوسنة والبانيا وأبيروس وبلاد اليونان ومقدونيا، وللنمسا بلاد الصرب، ولروسيا الافلاق والبغدان (وولاشيا ومولدافيا) وبلغاريا واقليم تراس لغاية نهر ماريتزا "[٣١٤]. واشارت احدى الدراسات إلى ان "الامبراطورية الفرنسية وروسيا اصبحتا حليفتين ضد بريطانيا ... وكان نابليون يفكر في القضاء على بروسيا نهائيا ومحوها من الخارطة ولكن شفاعة القيصر لصديقه ملك بروسيا من جهة ورغبة نابليون نفسه في جعلها حاجزاً بينه وبين روسيا دفعته إلى ابقائها "[٣١٥].

اعتقد الاسكندر الاول فيما بعد " ان تحالفه مع نابليون سوف لا يجدي نفعا وان الأخير كان يضلله ويخدعه .. وان روسيا اصابها الكثير من الاضرار نتيجة للنظام القاري، ومما زاد من شكوك القيصر عملية المصاهرة التي تمت بين نابليون واسرة هبسبورغ" ، وفي الحادي والثلاثين من كانون الاول ١٨١٠ قررت روسيا رسميا الانسحاب من النظام القاري واستئناف العلاقات الاقتصادية مع بريطانيا الامر الذي وضع امام نابليون خيارين لا ثالث لهما " اما الاعتراف بالواقع وترك روسيا وشأنها وبهذا سيفقد منزلته الرفيعة في اوربا وتصاب هيبته بضربة قاصمة، أو حمل روسيا على العودة إلى النظام القاري بقوة السلاح "[٣١٦].

كان قرار نابليون اللجوء إلى خيار الحرب حيث سعى في المدة (١٨١١-١٨١٢) إلى حشد امكانيات فرنسا العسكرية استعداداً " لسحق الروس في عقر دارهم" ، وفي الوقت ذاته اراد القاء تبعة " الحرب القادمة " على روسيا جراء تنصلها عن الالتزام ببنود معاهدة تلست لاسيما الحصار القاري فكتب إلى الاسكندر الاول قائلاً: " انني سأظل صديقاً مخلصا لجلالتكم حتى ولو كان قدر اوربا ان يحمل ابناؤها السلاح ضد بعضهم البعض، انني لن ابدأ قط بالهجوم ولن تزحف جيوشي إلى أراضيكم الاّ اذا

مزقتم جلالتكم وثيقة تلست التي هي تتضمن معاهدة الوفاق بيننا، انني سأكون اول من يلقي السلاح اذا عادت ثقتكم بي مرة اخرى ". وقد رد القيصر الروسي على نابليون برسالة طالب فيها الاخير بالانسحاب من دانتزيج (وهي مدينة بولونية تقع على خليج دانتزيج) استولى عليها الفرنسيون عام ١٨٠٧، كما طالبه بإخلاء مدينة فرصوفيا من أي تواجد عسكري فرنسي، حينذاك ايقن نابليون بصورة تامة " **ان الحرب باتت قدراً ولا مفر منها** " (٣١٧).

استصدر نابليون بونابرت في الثالث والعشرين من كانون الاول ١٨١١ قراراً من مجلس الشيوخ الفرنسي بتفويض وزير الحربية الجنرال (الكسندر برتييه) تعبئة (١٢٠) الف مقاتل، ووضع نحو (٤٥٠) الف مقاتل في حالة التأهب القصوى، وفي السابع عشر من مايس ١٨١٢ استصدر قرارا آخر بتخصيص (٦٠) الف مقاتل لتامين الجبهة الداخلية في حال اندلاع الحرب . كما عزز موقفه بالتوصل إلى اتفاق وتحالف عسكري مع بروسيا في الرابع والعشرين من شباط ١٨١٢ وآخر مع النمسا في الرابع عشر من اذار . اعتقد الاسكندر الاول ان الإجراءات التي لجأ اليها نابليون " **تمثل استفزازاً صارخا لا يمكن التغاضي عنها** " فارسل انذاراً في الخامس والعشرين من نيسان طالب فيه الاخير بجلاء الجيش الفرنسي المرابط في الاراضي الالمانية، ولكن يبدو ان السيناريو الذي خطط له نابليون بان تكون روسيا الطرف البادئ في الحرب دفعه لاستفزاز الروس بصورة مباشرة اذ حمل مندوبه (ناريون) رداً تضمن " **اصراره على البقاء في تلك الاراضي مع امكانية فتح باب بين الدولتين** "(٣١٨).

عقد القيصر الروسي في الثلاثين من نيسان ١٨١٢ اجتماعاً مع كبار قادة الجيش وفيه تقرر حشد نحو (٢٠٠) الف مقاتل في الجبهات الآتية:

- جبهة ڤيلنا اسندت قيادتها إلى الجنرال (بركلاي ديتوللي) وتحت امرته نحو (١٢٦) الف مقاتل.

- جبهة فيلكسك عززت بـ(٤٨) الف مقاتل تحت امرة الجنرال (بيير بجراسيون).
- جبهة لوتسك خصصت لحشد قوات الاحتياط البالغ عددها نحو (٢٦) الف مقاتل.

تضمنت خطة الدفاع الروسية التي اشرف عليها الجنرال فون برنادوت **"بناء معسكر حصين في مدينة دريسّا على نهر نيفا – تبعد ٢٥٠ كم شمال نهر نييمن– يتسع لـ(١٢٠) الف مقاتل يصمدون جميعا هناك ويمنعون تقدم قوات نابليون نحو سان بطرسبورغ أو موسكو"** ، وحسب اعتقاد القادة الروس **" ان الفرنسيين ستتبدد قواهم عبر الطرق الوعرة المقفرة، وان على الجيوش الروسية ان تمتنع عن التصدي للفرنسيين وتستدرجهم إلى المناطق التي يغطيها الجليد، ومن ثم اذا ما وصلوا إلى دريسّا فلن يتمكنوا من اختراقها "** (٣١٩).

أما الاستعدادات الفرنسية فتضمنت حشد نحو (٥١٠) الف مقاتل وزعوا على (١٣) فيلقاً عُهد بقيادتها إلى المارشالات (دافو، جيروم نابليون ملك ويستفاليا، اودينو، ناي، يوجين، يونياتسكي، جوفيون، رينيه، فكتور مكونال ، بيير، اوجيرو، مورا، البرنس شوارتز نبرغ)، اما قادة الحرس الإمبراطوري الخاص فهم (المارشال ليفيفر، المارشال اودلف مورنييه، المارشال بيسيار)، كما شملت تلك الاستعدادات تأمين الاسناد اللوجستي عن طريق إقامة المستودعات الضخمة في المناطق القريبة من الحدود الروسية مثل (دانتزيج، ماريانبورغ، ثورن، مودلين، وارسو) . وكان نابليون قد امر قادته بتشكيل (١٦) كتيبة لنقل المؤن تضم (٦) الاف عربة تجرها الخيول والأبقار وتهيئة (١٠٠) الف من الخيل للفرسان والمدفعية منها (١٣٥٠) حصانا لسحب المدافع . وامر ايضا ان يحمل كل جندي ذخيرة تكفي لمدة (١٥) يوم وتزويده بحقيبة ظهر تحتوي على قميص و(٣) ازواج من الأحذية وسروالين وكيساً فيه (٤) كيلو من الطحين تكفي لمدة خمسة ايام وخبز يكفي لمدة اربعة أيام وبسكويت لمدة ستة ايام(٣٢٠).

أدرك نابليون أهمية كسب الوقت " **والاشتباك في اسرع وقت ممكن مع الجيوش الروسية قليلة العدد والانفراد بكل جيش على حدة وتدميره، ثم مواصلة الزحف إلى نهر نيمن ومهاجمة سان بطرسبورغ وموسكو، الامر الذي سيضطر القيصر الروسي إلى الاستسلام وطلب الصلح** "، لذا قرر في التاسع من مايس ١٨١٢ الخروج من باريس على رأس جيش جرار لغزو روسيا، وفي الثالث والعشرين من حزيران وصل بقواته إلى مدينة (كوفنو) على ضفة نهر نيمن وخطب في جنوده قائلاً: " **ان الاقدار تسوق روسيا سوقا ولا مهرب امامها من الهلاك المبين، اتظن روسيا اننا قد ضعفنا ؟ ألسنا رجال اوسترليتز ؟ اتريد منا ان نختار بين العار والحرب ؟ لن نتردد اذن في الاختيار** " . وأوردت احدى الدراسات " ... **في الرابع والعشرين من حزيران انتشر وباء Colic وهو مرض يصيب معدة الخيل وهكذا هلك ثلث خيول نابليون ... وكان الحر شديد فأصيب كثير من الجنود بضربة الشمس** " . وأشارت أيضاً إلى تمكن القوات الفرنسية من اقامة (٣) جسور على نهر نيمن مما اضطر الروس إلى التراجع وتدمير الجسر الرابط بين ضفتي نهر فيلنا لتجنب الاشتباك المباشر حسب الخطة الروسية، حينذاك قام نابليون بتحريك قوة ضاربة مؤلفة من (٦) فرق عسكرية بقيادة المارشال دافو لمهاجمة فلنا عاصمة ليتوانيا التي كان يقيم فيها القيصر وكبار القادة ومن ثم الالتفاف على الجيش الروسي المرابط في فيلكسك بقيادة الجنرال بجراسيوف، وعندما وصل الفرنسيون إلى مشارف فيلنا صباح السابع والعشرين من حزيران انسحب الروس من المدينة واحرقوا ما فيها من مؤن وذخائر، فدخلها نابليون وشكل على الفور حكومة مؤقتة وعين المسيو (بنيون) معتمداً امبراطوريا له . واثر ذلك ارسل الاسكندر الاول مندوبا عنه وهو الجنرال (بلاكوف) للتفاوض مع نابليون حيث أكد للأخير " **ان القيصر لم يبادره الهجوم وانه ما زالت هناك فرصة للتفاهم والسلام بشرط جلاء الفرنسيين عن الأراضي الروسية** "، ولكن نابليون رفض الاستجابة للطلب الروسي معتقدا ان هدف الاسكندر هو كسب

الوقت وانقاذ ما يمكن انقاذه من فلول جيشه المتراجع، لذا سارع إلى إصدار اوامره في التاسع والعشرين من حزيران إلى المارشال دافو بالهجوم على مدينة منسك غير ان الروس قرروا الانسحاب منها أيضاً(٣٢١).

غادر نابليون فيلنا في السادس عشر من تموز بعد أن أمر القائدين دافو وجيروم بتعقب الروس الذين انسحبوا باتجاه فيتبسك والحيلولة دون وصول القائد الروسي بجراسيوف إلى دريسّا حيث يقيم الاسكندر، فيما قام نابليون شخصياً بالإشراف على عملية الالتفاف حول غابة (بييسكي) لتمهيد الطريق أمام بقية القطعات للاندفاع باتجاه سمولنسك على نهر الدنيبر وتطويق الجيش الروسي المدافع هناك، الا ان هذه الخطة فشلت بسبب بطئ حركة الرتل الذي كان يقوده شقيقه جيروم في تعقبه لـ بجراسيوف مما جعل الاخير يسبقه مسافة مسير ثلاثة ايام، الامر الذي اغضب نابليون فكتب إلى جيروم معنفا: " **ان تحركاتك البطيئة الفاشلة كانت السبب في هذا الاخفاق، وانك بتصرفك هذا سوف تضيع ثمرة خططي التي وضعتها وستجعل فرصة من اثمن الفرص تضيع من يدي في هذه الحرب، ومن ثم امرك من الآن بضم قواتك إلى قوات دافو والانضواء تحت لوائه والتقيد بأوامره** "، وقد استجاب جيروم لأمر اخيه الإمبراطور ولكنه قرر ترك الحملة والعودة إلى فرنسا(٣٢٢).

وبصرف النظر عن الخوض في التفاصيل العسكرية فان نابليون قد ضمّن خطته تحطيم الجيش الروسي في معركة فاصلة ولكن هذا لم يحدث " **اذ ان القوات الروسية انسحبت إلى عمق اراضيها بل انها توارت عن نظر نابليون تماما فاضطر إلى التقدم ... وقرب موسكو تراءى الجيش الروسي لأول مرة لنابليون وحدثت موقعة بورندو** "، واثر هذه المعركة اعاد نابليون النظر في خطته الحربية وذلك حسبما كانت تقتضيه المتغيرات الميدانية فبدلاً من تركيز نيران المدفعية على أهداف منتخبة عمل على تشتيتها، وبدلاً من زج جميع قواته في معركة حاسمة استثنى هذه المرة الحرس الإمبراطوري من المشاركة

في القتال وذلك كإجراء احترازي" **تحسبا للهزيمة التي لو حدثت سوف تقضي عليه ومن بقي معه**"(٣٢٣).

ويبدو ممكنا القول ان ستراتيجية المواجهة التي اعتمدها الروس استندت إلى مسألتين (الأولى) الانسحاب العسكري المنّظم باتجاه الشرق في عمق الاراضي الروسية بهدف استنزاف الفرنسيين وانهاك قواتهم العسكرية، و(الثانية) اللجوء إلى اسلوب " **الارض المحروقة** " للحيلولة دون استفادة العدو من مخازن التموين في ادامة زخم المعركة . ففي اواخر آب ١٨١٢ تقدمت القوات الفرنسية نحو موسكو وخاضت قتالا عنيفا في اول مواجهة مباشرة مع الجيش الروسي عند مدينة سمولنسك في منتصف الطريق إلى العاصمة، ولكن الروس الذين كانوا قد اخلوا المدينة ودمروا ما فيها قرروا التراجع فدخلها نابليون في الرابع عشر من ايلول فوجدها خالية من السكان، وفي المساء " **اشعلت النيران في المدينة بأمر حاكمها**" مما اضطر نابليون إلى التراجع عند مشارف موسكو " **وبقي هناك مدة شهر كامل ينتظر ان يعرض عليه القيصر الصلح إلا ان هذا رفض كل صلح أو مفاوضة مع الفرنسيين** " . وفي مطلع تشرين الاول قرر نابليون الانسحاب والعودة إلى بلاده لسببين (الأول) الخشية من حدوث مؤامرة داخلية كان يخطط لها المناوئون والمعارضون، و(الثاني) قطع الطريق امام أي تدخل أو مساندة من قبل الدول الأوربية لروسيا، غير ان هذا الانسحاب كان بمثابة " **كارثة عسكرية** " حلت بالجيش الفرنسي اذ مات عشرات الالوف بسبب البرد والجوع نظراً لقساوة شتاء ذلك العام، فضلاً عن الخسائر التي لحقت به جراء هجمات المطاردة التي قام بها الجيش الروسي وفرسان القوزاق، ولم يصل إلى الحدود البروسية سوى (١٠٠) ألف مقاتل . استغل الروس فرصة الانهيار الذي حل بالجيش الفرنسي وانتقلوا من موقف الدفاع إلى صفحة الهجوم فاجتازوا الحدود البروسية واحكموا القبضة على دوقية فرصوفيا الموالية لفرنسا في هجوم صاعق مضاد مطلع كانون

الثاني ١٨١٣ وكبدوا الفرنسيين خسائر اضافية مما اثار الانتقادات لدى الاوساط الفرنسية " **جراء مغامرات نابليون الطائشة** " [٣٢٤].

وبعد انتهاء الغزو الفرنسي بالفشل سعى الاسكندر الأول إلى تأليب دول اوربا وحشد تأييدها للقضاء على نابليون، فعقد تحالفا مع بروسيا في الثامن والعشرين من شباط ١٨١٣، وفي السادس عشر من آذار اعلنت الدولتان الحرب ضد فرنسا حيث أقدمت بروسيا على احتلال مملكة سكسونيا الموالية لنابليون، ولكن الاخير سارع إلى إرسال حملة عسكرية في السادس من مايس فتمكنت من استعادة المملكة وتم التوصل إلى هدنة في العشرين من تموز بوساطة نمساوية، اذ كان مترنيخ يسعى لاستعادة الاملاك التي فقدتها النمسا جراء الحرب ضد نابليون في وقت كانت بريطانيا تخطط فيه لتوثيق تحالفها مع بروسيا ولجر النمسا إلى الحرب، ولكن فشل مساعي مترنيخ في ايجاد تسوية سلمية لمشاكل اوربا مع نابليون دفعت النمسا إلى تأييد خيار الحرب ضد فرنسا فانضمت إلى التحالف الروسي — البريطاني — البروسي وبذلك عقد التحالف الاوربي السادس الهادف إلى اسقاط نابليون وعودة آل بوربون إلى السلطة، إذ تمكنت جيوش الدول الحليفة من دخول باريس في السابع من تموز ١٨١٥ وقضت بصورة نهائية على امبراطورية نابليون وتم نفي الأخير إلى جزيرة سانت هيلان[٣٢٥].

ساهم الاسكندر الاول بصورة فعالة في صياغة قرارات مؤتمر فينا الذي تبنته الدول العظمى عام ١٨١٥ بهدف " **الاتفاق على وسائل واسس ترتيب الاوضاع في اوربا بشكل يضمن توازن القوى وتامين القضاء على المبادئ الفرنسية، واعادة خريطة اوربا ليس كما رسمها نابليون وانما بما يتوافق ومصالح الدول والحكام الرجعيين** " [٣٢٦].

وخلال جلسات المؤتمر اقترح القيصر الروسي على ممثلي الدول المشاركة فكرة قيام ما يعرف بـ " **التحالف المقدس** "، وحسب رأي بعض الباحثين فان هذه الفكرة كان يكتنفها الغموض اذ دعا فيها إلى " **قيام تحالف دولي اوربي ينظم العلاقات بين دول القارة وفق مبادئ وروح الديانة المسيحية، وقد برر دعوته هذه بكون دول اوربا وشعوبها**

تدين بأكثريتها بالمسيحية وبالتالي فان من واجبها ان تلتزم في علاقاتها مع بعضها البعض بما في رسالة السيد المسيح من محبة وسلام وتسامح، وبعبارة اوضح اراد ان يقيم رابطة جديدة بين دول اوربا تقوم على المحبة والعدل والسلام لتحل محل المحالفات السياسية والمواثيق العسكرية والمصالح المتبادلة التي كانت تحرك وتنظم العلاقات بين الدول . كما أراد ان يجعل من المسيحية القاعدة الاساسية للقانون الدولي تتعهد جميع دول القارة بان تخضع خلافاتها لها وان تحل مشاكلها وفق الروح المسيحية، ولضمان تنفيذ الغاية الاساسية من الحلف المقترح رأى ان يعتبر الملوك الموقعين عليه انفسهم وكأنهم مكلفين من العناية الالهية بالدفاع عن السلام والنظام العام، ثم باعتبار ان الانظمة الاجتماعية القائمة والفروقات بين الطبقات هي من صنع الخالق فان الملوك المتحالفين يلتزمون ايضا بالمحافظة عليها وبالدفاع عنها، وبذا يكون القيصر الروسي قد ربط بين السلام الاوربي والمحافظة على النظم التقليدية القائمة واقام ضمانة اوربية عامة لاستمرارها تستمد حيويتها وروحيتها من رسالة السيد المسيح " (٣٢٧).

وأشارت احدى الدراسات إلى ان فكرة التحالف المقدس في جانبها النظري " **جذابة وكلمات عاطفية رنانة اثارت ضجة كبيرة ... فالقيصر الاسكندر الاول كان يعتقد بان نصره على نابليون تم بموجب الارادة الالهية وهذه الارادة قد اختارته لأداء رسالة سامية وحسب قوله: حريق موسكو اضاء روحي، والعدالة الالهية فوق ميادين القتال المتجمدة اججت ايماني ... " (٣٢٨).**

رفضت بريطانيا المشاركة في هذا التحالف نظراً لاعتقاد الساسة الإنكليز بعدم واقعية هكذا تحالف في مواجهة المتغيرات التي أوجدها مؤتمر فينا من جهة والتشكيك بقدرة القيصر الروسي على الالتزام بالمبادئ المسيحية ومثلها في التسامح والعدالة من جهة أخرى، فضلاً عن عدم قناعة ملك بريطانيا الذي قرن ذلك بموافقة البرلمان، أما امبراطور النمسا فقد

صرح قائلاً: " **لا ادري لمن احيل المشروع لدراسته لوزرائي أو للقسسه** " ولكن مستشاره مترنيخ وجد فيه " **فائدة كبيرة** " معتقداً " **بان كل ثورة أو تمرد ضد السلطة القائمة ربما يمكن تفسيرها بانها ضد الدين وضد الارادة الالهية** " . فيما ابدا ملك بروسيا موافقته على الاقتراح الروسي ليس بسبب قناعته بجدية وجدوى هذا الاقتراح بل كان موقفه " **مجاملة سياسية** " لصديقه القيصر الروسي . وفي السادس والعشرين من ايلول ١٨١٥ وقعت كل من روسيا والنمسا وبروسيا على وثيقة التحالف المقدس اذ ورد في مقدمتها " **ان الملوك الثلاث سوف يتبعون في سلوكهم ما يرضي السيد المسيح، وعليهم جميعا ان يعتبروا انفسهم اخوانا في الله يرشدون شعوبهم إلى طاعته** " [٣٢٩].

اعتقد الساسة الانكليز ان الظروف الدولية في مرحلة ما بعد نابليون كانت تتطلب وجود تحالف اوربي يتعاطى مع المسائل الحساسة والخطيرة بصورة اكثر واقعية لضمان تطبيق مقررات مؤتمر فينا، لذا تقدمت بريطانيا باقتراح تضمن " **المحافظة على الوضع القائم وقتذاك ولو ادى الامر إلى التدخل المسلح لقمع الثورات الداخلية في أي بلد من البلدان** " ، وقد ابدت روسيا موافقتها على هذا الاقتراح كما ايدته كل من النمسا وبروسيا، وفي العشرين من تشرين الثاني ١٨١٥ وقعت الدول الاربعة على ما يعرف بـ " **الحلف الرباعي** " الذي حددت مدته بـ(٢٠) سنة والزمت المادة السادسة منه دول الحلف " **بعقد مؤتمرات دورية ولكنها غير ملزمة بالتدخل في حال قيام ثورة داخلية في بلد ما فيما عدا محاولة اتباع نابليون العودة إلى عرش فرنسا** " [٣٣٠].

وبناء على ما ورد في " **المادة السادسة** " التي تضمنها التحالف الرباعي بخصوص التزام الدول الموقعة بعقد مؤتمرات دورية للتداول في مستجدات القارة الاوربية اتفقت الدول الاربعة العظمى على عقد مؤتمر اكس لاشبيل عام ١٨١٨ للنظر في جلاء قوات الحلفاء عن الاراضي الفرنسية وامكانية ضم فرنسا إلى عضوية التحالف، وبعد ان تمت الموافقة على ذلك طالب الاسكندر الاول باسم الحلف الرباعي والحلف المقدس ملوك

اوربا بالاتحاد ضد الثورات مقترحا على شركائه في التحالف ارسال قوة عسكرية مشتركة لمساندة ملك اسبانيا واخضاع مستعمراته الثائرة في امريكا، ولكن وزير الخارجية البريطانية (كاسلريه) عارض هذا الاقتراح ونبذ فكرة استخدام القوة في أي إجراء من هذا القبيل، معتقدا ان مبدأ التدخل في شؤون الدول الاخرى يندرج في اطار ما يضمره القيصر من نوايا استعمارية لتحقيق اهداف روسيا في الوصول إلى البحر الاسود ومنطقة المضائق وفرض الهيمنة عل دول البلقان (٣٣١).

اتسم موقف الاسكندر الاول بالتشدد من " **الثورة العسكرية** " التي حدثت في اسبانيا عام ١٨٢٠ وعرضّت حياة الملك الاسباني للخطر واجبرته على اعادة العمل بدستور عام ١٨١٢، اذ أصدر بيانا دعا فيه الدول الاوربية إلى "**حتمية استنكار ما حدث في اسبانيا** " مقترحاً " **ارسال جيش من الحلفاء لإلغاء دستور عام ١٨١٢ بالقوة اذا لزم الامر** " . ورغم تحفظ كاسلريه على ما ورد في بيان القيصر الروسي الاّ ان مترنيخ تحمس لفكرة الاسكندر بسبب قيام ثورات مماثلة في نابلولي وبيدمونت والبرتغال " **طالبت بإقرار الدساتير** " مناشداً الحلفاء "**بالتحرك السريع لقمع تلك الثورات** ". اتفقت الدول المعنية في كانون الاول ١٨٢٠ على عقد مؤتمر في تروباو " **ولما كان كاسلريه لا يزال متردداً في حضور المؤتمر ارتأى تخويل بعض مرؤوسيه لتمثيل بريطانيا** " الامر الذي أثار امتعاض القيصر، وقد تمكن الاخير من حمل ممثلي النمسا وبروسيا على إصدار بيان يؤكد "**اصرار- الدول الثلاث على قطعية عدم الاعتراف بحق أي شعب في الحد من سلطة الملكية وان تطلب ذلك شن حرب لمصلحة الملوك** " ، الاّ ان كاسلريه رد على هذا البيان بقوله " **ان بيان تروباو يفتقد إلى الادراك السليم** " (٣٣٢).

ومما يجدر ذكره ان الثقة تباعدت بين كاسلريه من جهة والاسكندر الاول ومترنيخ من جهة ثانية اذ اتفقت روسيا وبروسيا والنمسا على عقد مؤتمر جديد في ليباخ عام

١٨٢١، وأقرت مبدأ استخدام القوة للقضاء على الحركات الثورية مما اتاح الفرصة امام النمسا للتدخل في الشأن الايطالي فأعادت ملك نابولي إلى عرشه وسحقت التمرد في سردينيا [٣٣٣] .

وحينما اندلعت الثورة في اليونان ضد الاتراك (١٨٢١-١٨٢٢) اعتقد مترنيخ ان الاسكندر الاول ربما يستغل الموقف ويعلن الحرب ضد الدولة العثمانية " **بذريعة الدفاع عن اخوانه المسيحيين** "، لهذا اجتمع بـكاسلريه في هانوفر واتفقا على تسوية خلافاتهما مؤقتا ودعا إلى مؤتمر آخر لحل المشاكل العالقة بين الحكومة اليونانية والباب العالي. ولما انعقد المؤتمر في فيرونا عام ١٨٢٢ انشغلت الوفود المشاركة بالمشكلة الاسبانية بدلاً من اليونان، فقد عارض وزير الخارجية البريطاني كاننج الذي خلف كاسلريه مبدأ استخدام القوة بعدما عرضت فرنسا استعدادها للتدخل والقضاء على الثورة في اسبانيا، الا ان ذلك لم يثن فرنسا من القيام بإجراء منفرد اذ تدخلت عسكريا واعادت ملك اسبانيا فرديناند إلى العرش في نيسان ١٨٢٢، وبذلك فشل المؤتمر مما دفع الاسكندر الاول إلى الدعوة لمؤتمر جديد لبحث مسألة الثورة في اليونان، ولكن كاننج رفض الدعوة كما تباينت وجهات نظر بقية الدول، الامر الذي كان يعني " **فشل دبلوماسية المؤتمرات** " في ظل تناقض المصالح والأهداف[٣٣٤] .

واجه الاسكندر الاول انتقادات عديدة من قبل انصار الجامعة السلافية وكذلك رجال الدين الأرثذوكس " **بسبب موقفه السلبي امام ثورات البلقانيين وتقاعسه عن نصرتهم بعدما وعدهم بالمساعدة** " ، ففي الوقت الذي قرر فيه جلاء جيشه من بولندا والاعتراف بها كدولة مستقلة " **ينكر على اليونانيين الأرثذوكس ثورتهم الاستقلالية** " . لذا تشكلت جمعية سرية كان تهدف إلى اقصاء الاسكندر عن العرش ولكن ما لبثت ان انقسمت على نفسها إلى جناحين : (جناح اليمين) الذي تزعمته" **كتلة الاتحاد السلافي** " وقد طالبت بإقامة حكومة مركزية اتحادية تضم تحت لوائها جميع الشعوب

السلافية في روسيا ومولدافيا ودلماسيا وكرواتيا والمجر وترانسلفانيا وصربيا والجبل الاسود وبلغاريا والبوسنة والهرسك، و(جناح اليسار) الذي طالب بنظام ملكي دستوري يتبنى منهجا اصلاحيا يرتقي بـ روسيا إلى مصاف الدول المتقدمة . وفضلاً عن هذه الضغوط التي واجهت القيصر فان الفيضان المدمر لنهر النيفا في السابع من تشرين الثاني ١٨٢٤ والذي اودى بحياة المئات وتشريد الالاف من سكان بطرسبورغ قد ساهم في ارباك الوضع الداخلي وحدوث الفوضى، وتزامن ذلك مع وفاة احدى بناته الامر الذي انعكس سلبا على حالته النفسية فأوكل إلى مستشاره (اراكشيوف) تسيير شؤون الدولة وغادر العاصمة إلى منتجع (تاغنروغ) على شاطئ بحر آزوف في ايلول ١٨٢٥ لغرض الاستجمام والراحة، ولكن بعد مضي شهرين داهمته المنية هناك في الاول من كانون الاول ١٨٢٥ لإصابته بمرض الحمى ودفن في كاتدرائية بطرس وبولص . وتجدر الاشارة إلى ان الاسكندر لم يترك ولداً يرثه العرش وكان خليفته اخيه الاكبر قسطنطين الذي لم يحظ بتأييد الطبقة الارستقراطية الروسية بسبب زواجه من اميرة بولندية " **لا تجري في عروقها دماء ملكية** " فتنازل عن ولاية العرش بصورة غير رسمية عام ١٨٢٣ لأخيه الاصغر نيقولا " **الذي كان اكثر كفاءة ومقدرة**" دون علم الاخير، اذ أصدر الاسكندر " **امراً قيصريا** " نص على "**تسمية اخيه الاصغر نيقولا خليفة له** " ولكنه ارتأى ان يكون هذا الامر طي الكتمان ويُحتفظ به في (كاتدرائية اوسبينسكي) ولا يتم اشهاره الا بعد موته [٣٣٥] . اخيراً وحسب قول الكاتبة (ماري بيير) فان الاسكندر الاول " **شغل مكانة خاصة في تاريخ روسيا القيصرية كما كان اكثر الشخصيات السياسية في التاريخ الروسي كله إثارة لمجموعة من الآراء المتناقضة لدى معاصريه** " ، وتنقل الكاتبة عن المؤرخ السويدي (لاجير ريبلك) قوله: " **كان الاسكندر الاول في السياسة دقيق مثل رأس الدبوس، حاد مثل الشفرة، مزيف مثل زبد البحر** "، فيما شهد له نابليون بقوله " **يمكن ان يذهب بعيداً ... واذا وافتني المنية فسيكون هو وريثي الحقيقي في اوربا**" [٣٣٦].

٣-١٤ : القيصر نيقولا الاول (١٨٢٥-١٨٥٥)

بعد وفاة القيصر الاسكندر الاول في الاول من كانون الاول ١٨٢٥ بجزيرة القرم وصل الخبر إلى أخيه الاكبر ونائبه في وارشو الملك قسطنطين في اليوم السابع لوفاته، ثم شاع الخبر في بطرسبورغ حيث كان الأخ الاصغر نيقولا يقيم في احد القصور الحكومية بالعاصمة، وقد قام الأخير بتوجيه الدعوة لكبار رجال الدولة لأداء يمين الولاء لـ قسطنطين وفي الوقت ذاته اعلن قسطنطين من وارشو ان اخاه نيقولا سيتولى حكم البلاد، وفي الرابع والعشرين منه تلقت سان بطرسبورغ انباء موثوقة تؤكد تنازل قسطنطين عن حقه في ولاية العرش " **وان القيصر الوحيد هو نيقولا لا غيره** " (٣٣٧).

وازاء هذه الملابسات وجدت جماعة من الضباط الذين تأثروا بالأفكار الغربية وممن سبق لهم ان كونوا جمعيات سرية مناهضة لحكم آل رومانوف الفرصة المناسبة للتمرد، اذ استغلوا مسألة القسم الذي ينبغي ان يؤديه عناصر الجيش وطلبوا منهم الامتناع عن مبايعة نيقولا واصفين ما حصل في المشهد السياسي بـ "**المؤامرة والخيانة** " . كانت الغاية من الخطة التي رسمها اولئك الضباط هي " **تحريض الجيش المتواجد في العاصمة على التمرد ضد نيقولا الامر الذي سوف يضطره إلى التنازل عن العرش، مما يتيح الفرصة امام الضباط المتآمرين لتشكيل مجلس عسكري وجمعية وطنية في ظل حكومة مؤقتة تمهد لوضع دستور للبلاد** "، وفي السادس عشر من كانون الاول خرجت جموع الجيش في العاصمة بطرسبورغ هاتفة بحياة قسطنطين بتحريض من ضباطهم (٣٣٨).

كان امام " **حركة الضباط الديسمبريين** " فرصة للنجاح لولا ان قيادات الحركة ومناصروها استغلوا حالة الارتباك التي عاشها البلاط في تلك اللحظة وتعجلوا الإحاطة بالقصر الإمبراطوري ، فتجمعوا في الساحة الرئيسية بالعاصمة وشغلوا انفسهم بالهتاف طويلا الامر الذي واجهه نيقولا بهدوء تام حيث خاطب من كان معه في القصر قائلاً: " **لو قدر ان اكون قيصرا لساعة واحدة فسوف اكون كذلك بعزة وشهامة** ". وفي الوقت

ذاته تجمع الضباط والجنود الموالون للقيصر واشتبكوا مع المتمردين في مواجهة عنيفة قتل فيها محافظ بطرسبورغ الجنرال (ميخائيل ميلو رادفتش) — وهو من المقربين لـ نيقولا — حينما طلب من الضباط الثوار " **الانصراف واداء القسم للإمبراطور** " ، حينذاك امر القيصر قادة الحرس الخاص بتطويق المحتجين والقضاء عليهم فحدثت مجزرة كبيرة " **انتهت بحلول الليل تاركة مئات القتلى في شوارع وساحات العاصمة، وسقط معظم الضحايا نتيجة الزحام الناجم عن الفوضى التي عمت بين سكان العاصمة، وقد اسفر التمرد العسكري عن مقتل (١٢٧١) شخصا بينهم (٩) نساء و(١٩) طفلاً، واثر فشل هذا التمرد تم القاء القبض على (٦٤٨) عسكريا و(٦٢) بحارا وحبسهم في قلعة باڤلوڤسكايا ، ثم اقتيد الضباط المحتجزون المتورطون في التمرد إلى القصر الشتوي حيث مقر القيصر وجرى التحقيق معهم فأحيل (١٢٣) ضابطا إلى المحاكمة وصدر حكم الاعدام بحق (٣٦) منهم، كما ادين (٥) من ضباط النبلاء لدورهم في التحريض على الانتفاضة وصدر حكم الاعدام شنقا بحقهم، فيما حكم على (١٧) نبيلا بالإقصاء السياسي وتجريدهم من كافة الحقوق والامتيازات الخاصة بفئة النبلاء ونفيهم إلى سيبريا** " [٣٣٩].

ووصفت احدى الدراسات احداث ديسمبر ١٨٢٥ بـ " **الثورة الدستورية الديمقراطية الاولى في تاريخ روسيا الحديث** " نظراً لمشروعية المطالب التي نادت بها ومنها[٣٤٠]:

- رفض حكم التسلط والاستبداد والدعوة للعمل بالدستور.
- القضاء على مظاهر العبودية والسخرة والمساواة امام القانون.
- تخفيض عدد افراد الجيش في حالة السلم.
- تقليص سنوات الخدمة العسكرية التي حددت بـ(٢٥) عاماً.

- الدعوة للحكم الملكي الدستوري الذي يمنح الملك صلاحيات كبيرة ولكن ضمن محددات يقرها الدستور على شاكلة الصلاحيات الممنوحة لرئيس الولايات المتحدة الأمريكية.

وفي ظل هذه الاوضاع المضطربة جرى تتويج نيقولا قيصراً لروسيا في العشرين من كانون الاول ١٨٢٥ بحضور كبار رجال الدولة من مدنيين وعسكريين اضافة إلى سفراء الدول الاجنبية، إذ ألقى خطابا جاء فيه: " **اني ادشن ملكي في جو مكفهر مضطرب وارى امامي واجبات ثقيلة، ولكني سأقوم بمهمتي خير قيام وسأكون رحيما شفوقا متسامحا متساهلا ... بيد ان الزعماء والمحرضين على الفتنة سيلقون قصاصهم القاسي ولن اصفح عن واحد منهم ابدا** " . كما اصدر القيصر الجديد بيانا أمر بتعميمه وقراءته في جميع الكنائس ومما ورد فيه: " **بالنظر إلى الانحطاط الديني والمدني في اوربا وللحؤول دون انتشار الدعوات الغربية فان الوطن يحتاج إلى دعائم قوية يرتكز عليها في انظمته السياسية وهي: ١-الأرثذوكسية هي الديانة الروسية الرسمية، ٢- الحكم المطلق الاوتقراطي هو الشرط الرئيس للكيان السياسي في روسيا. ٣- مبدأ الجنسية الوطنية، ان كل عاصفة تحمل روح التمرد على السلطة لا تلبث ان تتحطم امام التخوم الروسية لأن الله معنا** " [٣٤١].

استهل نيقولا الاول حكمه بالتشديد على مركزية السلطة وتثبيت دعائم سيادة الملكية المطلقة لإحكام السيطرة على انحاء البلاد الروسية، فشهد عهده اتخاذ عدد من القرارات التي تصب في هذا الهدف منها[٣٤٢]:

اولاً- تخصيص نسبة ٤٠% من خزينة الدولة لدعم المؤسسة العسكرية وبناء جيش روسي قادر على مواجهة التحديات الداخلية والخارجية.

ثانياً- زيادة عدد القطع البحرية للأسطول الروسي لتصل إلى نحو (١٥٠٠) سفينة صغيرة ونحو (٤٠٠) سفينة كبيرة مزودة بالمدافع المتطورة.

ثالثاً– تطبيق نظام التجنيد الاجباري وتعبئة نحو نصف مليون مقاتل وملاحقة الهاربين وتنفيذ اقسى العقوبات بحقهم.

رابعاً– انشاء الثكنات العسكرية الثابتة لأغراض التعبئة والتدريب.

خامساً– اعادة تنظيم ما يعرف بـ " **الدائرة الثالثة** " أي الشرطة السرية لملاحقة العناصر المناوئة.

سادساً– حظر تأسيس الجمعيات التي تتخذ من الافكار الحرة شعاراً لها ومنعها من ممارسة أي نشاط معاد لنظام الحكم القيصري.

سابعاً– فرض الرقابة الصارمة على الصحافة ومنعها من الترويج للأفكار الحرة والديمقراطية.

ثامناً– اخضاع الجامعات ومؤسسات التعليم كافة للرقابة الحكومية.

تاسعاً– ملاحقة اليهود ومنعهم من المساهمة في الانشطة الاقتصادية.

ورغم النهج الاستبدادي الذي اختطه نيقولا الاول في ادارته للحكم الاّ ان عهده شهد ايضاً انجازات مهمة على الصعيد الداخلي ابرزها[٣٤٣]:

أولاً–تشريع ما يعرف بـ " **مجموعة القوانين الزراعية** " عام ١٨٣٥ بهدف تحسين المستوى المعاشي للمزارعين والعاملين في الاراضي المملوكة للدولة دون ان تمس هذه القوانين مصالح النبلاء.

ثانياً–اصدار التشريعات الخاصة بمعالجة " **نظام الرق الزراعي** " ولكن حسب قول القيصر نفسه " **انصرفت لمعالجة قضية الفلاحين ثلاث مرات وكل مرة كنت اصطدم بالعقبات فانكص** " .

ثالثاً– اعادة النظر بالقوانين المدنية وتنقيحها واضافة مواد جديدة عليها.

رابعاً– تشجيع الصناعات الوطنية والتوسع في انشاء مصانع سكك الحديد، إذ تم مد سكة حديد بطرسبورغ – موسكو لمسافة تقدر بنحو (١٠٠٠) كم تحت اشراف المهندس (ستيفنسون).

خامساً–الاهتمام بالملاحة النهرية والتوسع في صناعة السفن حيث جرى الربط ما بين نهري الدون والفولغا، فضلاً عن تهيئة الوسائل اللازمة لتسهيل الملاحة في نهر الدنيبر.

سادساً– حماية الصناعات الروسية وذلك بزيادة نسبة الرسوم الكمركية على البضائع المستوردة.

سابعاً– التوسع في انشاء الجامعات والمعاهد العلمية مثل جامعة كييف، معهد البحرية، معهد الصناعات والفنون، معهد تربية الاطفال، معهد هندسة الطرق، معاهد الزراعة.

ثامناً– تشجيع النهضة الادبية والفنية التي شهدتها روسيا آنذاك إذ برز عدد من كبار عباقرة الادب الروسي امثال (بوشكين، غوغول، ليرمونتوف، جوكوفسكي، كرامزين، ديستوفسكي، سولياڤياف، تورغنيف، غومتشاروف، اليكسي تولستوي، كوستاروف)، فضلاً عن مجموعة اخرى من الموسيقيين والملحنين وفي مقدمتهم الموسيقار (دارغو) والملحن (غليتكا) مؤلف انشودة " **الحياة فدى القيصر** ".

واصل نيقولا الاول نهج اسلافه في توجيه السياسة الخارجية الروسية بما ينسجم وتطلعات الروس في مد نفوذ بلاده باتجاه الجنوب، اذ حاول الاقتراب مرة اخرى من بلاد فارس وفرض هيمنة روسيا على نهر اراس والمناطق المحيطة به فحدثت الحرب الروسية – الفارسية الثانية عام ١٨٢٦ التي انتهت بانتصار الروس والتوقيع على معاهدة جديدة في الثاني والعشرين من شباط ١٨٢٨ لتحل بدلاً من معاهدة كلستان وفقاً للبنود الآتية[٣٤٤]:

١– عقد الصلح وانهاء حالة الحرب بين الدولتين.

٢– الغاء البنود الواردة في معاهدة كلستان.

٣– تعيين لجنة مختصة لترسيم الحدود في المناطق الواقعة إلى الغرب من بحر قزوين والتي اصبحت خاضعة للسيادة الروسية.

٤– تنظيم العلاقات الدبلوماسية والتجارية بين الدولتين عن طريق تبادل السفراء والقناصل.

٥– الاتفاق على تبادل اسرى الحرب بين الجانبين.

وبالعودة إلى العلاقات الروسية – العثمانية في بداية عهد نيقولا الاول فإنها اتسمت بالتوتر لسببين: (الاول) تدخل الروس في الشأن العثماني بتحريضهم الصرب على التمرد ودعمهم عسكريا و(الثاني) دخول روسيا على خط الازمة فيما يعرف بـ **"المسألة اليونانية"** وتحالفها مع بريطانيا ضد الدولة العثمانية، لذا ارتأى الساسة الاتراك اللجوء إلى التفاوض حيث توصلت الحكومتان الروسية والعثمانية عام ١٨٢٦ إلى عقد معاهدة (آق كرمان) وفقاً للبنود الآتية [٣٤٥]:

١- حصول روسيا على حق الملاحة في البحر الأسود والسماح لأسطولها البحري بالمرور في منطقة المضائق استثناء من أي تفتيش.

٢- موافقة الباب العالي على عدم الفصل بين ولايتي وولاشيا ومولدافيا والسماح للسكان المحليين باختيار حكامهم دون أي تدخل من جانب السلطة العثمانية.

٣- منح صربيا استقلالا ذاتيا وجلاء الوحدات العسكرية العثمانية من الاراضي الصربية إلى خارج الحدود.

٤- تعهد الروس بإعادة ما احتلوه من الحصون والقلاع العثمانية، وتعيين لجنة مختصة بترسيم الحدود بين الدولتين.

٥- حصول التجار الروس على تعويضات مناسبة جّراء ما لحق بهم من ضرر بسبب الاعمال العسكرية البحرية.

٦- تعهد الباب العالي بتقديم التسهيلات اللازمة للسفن التجارية التي تحمل العلم الروسي، وضمان الامتيازات التامة وحرية التنقل الكاملة للتجار الروس.

٧- عدم السماح لسفن الدول الصديقة للدولة العثمانية بالدخول إلى مياه البحر الاسود الا بعد استحصال موافقة روسيا.

ويبدو ان الروس استغلوا هذه المعاهدة لتعزيز تواجدهم في امارتي الدانوب اذ اقدموا على ارسال تعزيزات عسكرية إلى وولاشيا ومولدافيا الامر الذي اعتبره العثمانيون خرقا للاتفاق المبرم ما بين الدولتين . وفي الوقت ذاته قامت الحكومة الروسية في الحادي

والعشرين من تشرين الثاني ١٨٢٦ بإرسال مذكرة إلى الباب العالي طالبت فيها بجلاء الحاميات العسكرية العثمانية المرابطة في هاتين الولايتين، محذرة الساسة في اسطنبول من مغبة استمرار ملاحقة العناصر الأرثذوكسية ممن ليس لهم علاقة بحركة التمرد الصربي . ولكن الحكومة العثمانية ادانت ورفضت بشدة ما ورد في هذه المذكرة وعدت ذلك تدخلا سافراً في شؤونها الداخلية، فتوترت العلاقات بين الدولتين وكادت تندلع الحرب لولا تدخل بريطانيا وفرنسا اللتان خشيتا من اقدام روسيا على تحريك اسطولها واحتلال منطقة المضائق[٣٤٦] .

أما موقف روسيا من المسألة اليونانية فإنها ساندت مساعي بريطانيا وفرنسا الهادفة إلى ممارسة الضغوط الدولية لحلحلة هذه المسألة، اذ تبنت حكومات هذه الدول بموجب " **اتفاق لندن** " في السادس من تموز ١٨٢٧ مشروع وساطة لحث الباب العالي على " **اعلان الهدنة ووقف الاعمال الحربية في الجبهة اليونانية ثم الشروع بالمفاوضات ومنح الاستقلال الذاتي لليونان** " ، الا ان الحكومة العثمانية رفضت وبشدة هذا المشروع معتقدة بقدرتها على اخماد الثورة اليونانية من خلال التنسيق والتعاون العسكري القائم مع الحكومة المصرية . ففي الثامن من ايلول ١٨٢٧ وصل الاسطول المصري إلى (نافارينو) لمساندة الاسطول العثماني المرابط هناك مما اثار قلق روسيا وبريطانيا وفرنسا، اذ قررت حكومات هذه الدول وعلى الفور تحريك اساطيلها نحو سواحل اليونان فتمت محاصرة الاسطولين العثماني والمصري في خليج نافارينو والحاق الهزيمة القاسية بهما في العشرين من تشرين الثاني ١٨٢٧ بعد معركة بحرية فاصلة استمرت لبضعة ساعات، تمكنت خلالها الاساطيل الاوربية من تدمير الاسطول العثماني المؤلف من (١٢٠) قطعة بحرية تدميراً كاملاً . وازاء هذه الكارثة التي حلت بالبحرية العثمانية بعث السلطان محمود الثاني (١٧٨٥-١٨٣٩) بمذكرة استنكار وشجب إلى "**ملوك بريطانيا وفرنسا وروسيا طالبهم بسحب اساطيلهم من السواحل اليونانية، وتحمل تبعة التعويضات التي ينبغي دفعها للدولة العثمانية** " ، ولكن الحلفاء رفضوا الاستجابة لمطالب السلطان وقرروا قطع العلاقات

الدبلوماسية مع اسطنبول " **ردأً على الموقف العثماني المتشنج واللامسؤول في التعاطي مع المسألة اليونانية** " (٣٤٧).

اثر الكارثة البحرية التي لحقت بالأسطول العثماني في نافارينو قرر نيقولا الاول في كانون الاول ١٨٢٧ الإيعاز لقواته " **التي كانت في حالة تأهب قصوى** " باختراق الأراضي الواقعة على نهر (بروت) الفاصل بين الحدود الروسية — العثمانية وفرض السيطرة على جميع المناطق الخاضعة لسيادة السلطان العثماني حتى نهر الدانوب، وقد نجح الجيش الروسي بقيادة القيصر نفسه في محاصرة واحتلال مدن (وارنه، شوملة، ياشي، اسكي) ، ثم اندفع شرقاً واستولى على قلعة قارص والمناطق المحيطة بها . ويبدو ان " **ردود الفعل العثماني الخجولة التي لا تتجاوز الاشتباكات الخاطفة والاستنكار ، فضلاً عن موقف الصمت الذي التزمته الدول الاوربية** " شجعت القيصر نيقولا على اجتياز الدانوب، إذ اصدر اوامره إلى قادة الجيش الروسي في مطلع نيسان ١٨٢٨ موعزاً باختراق جبال البلقان وتوسيع مسرح العمليات العسكرية ليشمل الجبهتين القفقاسية والبلقانية، حينذاك اضطر السلطان محمود الثاني إلى اعلان الحرب في الثامن والعشرين من نيسان بعد استصدار فتوى الجهاد . ومع ذلك لم يتمكن العثمانيون من الدخول في مواجهة حاسمة بسبب التفوق العسكري الروسي مما مهد الطريق امام الروس للتقدم والاستيلاء على مدينة (ادرنة) الستراتيجية دون مقاومة تذكر في العشرين من آب ١٨٢٩، فاصبحوا على مقربة من اسطنبول " **الامر الذي ولّد المخاوف لدى الدول الاوربية من احتمالية قيام نيقولا الاول بمغامرة رعناء لاحتلال العاصمة العثمانية والسيطرة على منطقة المضائق** ". لذا سارع ملوك اوربا إلى " **احتواء الخطر الماثل بعرض الوساطة لوقف الأعمال الحربية وعقد الصلح بين الدولتين** " ، وربما يمكن القول ان طرفي النزاع كلاهما كان مجبراً على القبول بالوساطة الدولية لإنهاء الحرب، فالسلطان العثماني كان يخشى اقدام الروس على مهاجمة اسطنبول والاندفاع باتجاه الاراضي البلقانية " **تحت ذريعة تامين الحماية**

للشعوب السلافية " ، اما القيصر الروسي فقد انتابته المخاوف من التداعيات الدولية الناشئة عن اقتراب جيوشه من العاصمة اسطنبول ولاسيما المواجهة مع بريطانيا، فضلاً عن تفشي وباء الطاعون الذي حصد ارواح المئات من الجنود الروس آنذاك (٣٤٨).

اثمرت جهود الوساطة الاوربية عن اتفاق الروس والعثمانيين على تعليق الاعمال العسكرية والشروع بالمفاوضات، وفي الرابع عشر من ايلول تم عقد الصلح والتوقيع على ما يعرف بـ " معاهدة ادرنة " التي تضمنت البنود الآتية (٣٤٩):

١- انسحاب القوات الروسية من امارتي الدانوب وبلغاريا والروميللي وبقية المناطق البلقانية التي تم الاستيلاء عليها في الحرب الاخيرة واعادتها إلى السيادة العثمانية.

٢- الاتفاق على ان يكون نهر بروت هو الحد الفاصل للحدود بين الدولتين حتى التقائه بالدانوب، ثم يمتد خط الحدود من الدانوب حتى البحر باستثناء بعض الجزر المتشكلة هناك واستثناءات اخرى تتعلق بالاستيطان وحرية الملاحة .

٣- يحكم الروس للأبد المنطقة الاسيوية من البحر الاسود الممتدة من مصب نهر قوبان حتى ميناء ماري نقولا وبضمنها منطقة الميناء نفسه، اما مدينة قارص وولايات بايزيد وارضروم وغيرها فمن المحتمل ان تقوم روسيا بإعادتها إلى سيادة الدولة العثمانية وتعدل الحدود بينهما في اسيا.

٤- احتفاظ ولاشيا ومولدافيا – طبقا للامتيازات السابقة – بالحرية الدينية والحكم الذاتي وحرية التجارة.

٥- تعهد الباب العالي بتنفيذ نصوص بعض المعاهدات السابقة الخاصة بالصرب.

٦- تمتع الروس بحرية التجارة براً وبحراً دون ادنى اعاقة من السلطات العثمانية، اما بشأن الرعايا والتجار والسفن فان لها الحماية التامة والتقاضي امام قنصلهم.

٧- اعطاء حرية المرور التامة لجميع السفن التجارية التابعة للدول التي هي في حالة صلح مع الباب العالي والمتوجهة نحو الموانئ الروسية على البحر الاسود أو المغادرة

اليها، ومنح الروس حق التأكد من الضمانات ، وفي حالة حصول عمل عدائي فانه يقابل بالمثل.

٨- موافقة الباب العالي على دفع تعويض مالي مقداره مليون وخمسمائة دوكا هولندية يسدد خلال مدة لا تتجاوز (١٨) شهراً.

٩- تعهد الباب العالي بدفع تعويض للحكومة الروسية عن نفقات الحرب نقداً، كما يتنازل عن اراض في اسيا مقابل ذلك ايضا.

١٠- يبدأ جلاء القوات الروسية بعد التنفيذ السريع والتام للبنود الخاصة بإمارات وولاشيا ومولدافيا وصربيا.

١١- العفو العام عن جميع رعايا الطرفين والسماح لهم بالتنقل والتصرف بأموالهم الخاصة في مدة لا تتجاوز (١٨) شهراً.

١٢- اطلاق سراح الاسرى دون فدية.

١٣- وقف جميع الاعمال العسكرية حال التوقيع على المعاهدة ودخولها حيز التنفيذ.

١٤- استمرار العمل بالمعاهدات السابقة باستثناء البنود المخالفة للمعاهدة الحالية.

١٥- تعهد الباب العالي بإزالة التحصينات التي اقامها العثمانيون في وولاشيا ومولدافيا.

١٦- تعهد الباب العالي بعدم السماح لرعاياه المسلمين بالاستيطان في الشاطئ الايسر للدانوب، ولا يحق للمسلم ان يتخذ مسكنا ثابتا في أية بقعة منه.

١٧- اعفاء ولايتي الدانوب بصورة نهائيا من تقديم الغلال والمواشي والمحاصيل كما كانتا ملزمتين سابقا، ولا يطالب سكانهما بتقديم اعمال السخرة مقابل قيامهما بدفع مبلغ من المال إلى السلطة العثمانية باسم " **الخراج**" اضافة إلى ضريبة الجزية.

١٨- منح اليونان استقلالاً ذاتياً تحت السيادة العثمانية.

وفي الوقت الذي سعى فيه نيقولا الاول إلى المضي قدما في نهجه التوسعي شهدت بولندا بتاريخ الحادي والعشرين من تشرين الثاني ١٨٣٠ اندلاع ثورة مسلحة خطط لها مجموعة من ضباط الاكاديمية العسكرية التابعة للجيش الامبراطوري الروسي بقيادة الجنرال

(بيتر فستوفسكي)، وقد أوضح الأخير في خطاب وجهه للشعب البولندي "ان هدف الثوار يكمن في مسألتين اساسيتين: (الاولى) الرغبة في التخلص من السيطرة الروسية التي فرضتها قرارات مؤتمر فينا ١٨١٥، و(الثانية) الوقوف بوجه القيصر والحيلولة دون تنفيذ نواياه باستخدام الجيش البولندي كأداة لقمع الثورات القومية لاسيما تلك التي شهدتها فرنسا وبلجيكا في النصف الأول من عام ١٨٣٠. انطلقت شرارة الثورة حينما قام الثوار بإجبار نائب الملك (ممثل القيصر) على مغادرة الاراضي البولندية، واعقبه تشكيل حكومة وطنية مؤقتة تبنت "**دعوة البولنديين لحمل السلاح والوقوف بوجه الطغاة الروس**" . ورغم محاولة قادة الثورة اللجوء إلى التفاوض لاسترداد استقلال بلادهم بعيدا عن التبعية لـ روسيا الا ان نيقولا الأول توعد " **المتمردين بالموت والهلاك** " رافضاً الاستماع لمطالب الثوار، كما رفض استقبال وفد الوطنيين المعتدلين الذي قدم إلى العاصمة الروسية " **للتفاوض بشان ايجاد تسوية عادلة ومقبولة للقضية البولندية** " (٣٥٠).

تباينت ردود الافعال الرسمية في الدول الاوربية من الثورة في بولندا ولكن لم يرغب أي من ملوك هذه الدول التورط في حرب ضد القيصر الروسي، اذ رفضت فرنسا طلبا بولنديا بتقديم المساعدة العسكرية، واعتقد الساسة البريطانيون ان الحكمة كانت تقتضي عدم التدخل خشية الانجرار إلى صدام مباشر مع الروس، بينما وقفت كل من النمسا وبروسيا موقفا سلبيا لتخوفهما من امتداد الثورة إلى اراضيهما (٣٥١).

اعد الثوار البولنديون اقصى ما في استطاعتهم لمواجهة الجيش الروسي فتمكنوا من حشد جيش قوامه نحو (٤٥) الف مقاتل، ولكن نيقولا الاول باغتهم الهجوم بجيش بلغ عدده نحو (١٢٠) الف مقاتل تحت قيادة الجنرال (ايفان باسكيفتش). وبعد حصار استمر لبضعة ايام اقتحم الروس العاصمة وارسو وتم القضاء على جيوب المقاومة هناك، واثر ذلك اعلن القيصر في خطاب وجهه إلى اباطرة وملوك اوربا " **ان النظام عاد ثانية إلى بولندا** " . وعقب السيطرة على الموقف أصدر نيقولا الاول اوامره بملاحقة العناصر المتهمة بالتمرد وزجهم في السجون الروسية، كما قرر الغاء الدستور الذي منحه لبولندا عام ١٨١٥ ووضع

المؤسسات الحكومية البولندية تحت ادارة السلطات الروسية، فضلاً عن اجراءات أخرى شملت مصادرة حرية الرأي وتشديد الرقابة على الصحافة وحظر جميع المنظمات التي تتبنى المنهج القومي الاستقلالي . وقد خضع البولنديون لقرارات الروس سنوات عديدة عاشوا فيها " **وطأة الارهاب العسكري** " وذلك في ظل تهديدات القيصر المستمرة " **بجعل بولندا جزءا من الإمبراطورية الروسية** " [٣٥٢].

عاد الصراع الروسي – العثماني إلى واجهة الاحداث الدولية مرة اخرى عام ١٨٥٢ بسبب اثارة ما يعرف بـ " **قضية حماية الاماكن المقدسة** " حينما طلب نابليون الثالث من السلطان عبد المجيد الثالث اصدار وثيقة مكتوبة تتضمن المعاملة الفضلى لرعايا الدولة العثمانية من الكاثوليك الذين يتمتعون بنظام الحماية، وتفعيل العمل بالامتيازات الاجنبية السابقة التي لم يتمتع بها رجال الدين الكاثوليك في الوقت الذي منحت فيه للرهبان الأرثذوكس . وقد اثار هذا الموضوع وبخاصة "**تسليم مفاتيح الابواب الثلاثة الرئيسية لكنيسة بيت لحم إلى الكاثوليك** " امتعاض القيصر نيقولا الاول الذي حاول ثني السلطان عن ذلك متعهداً بتقديم الدعم العسكري للدولة العثمانية اذا ما تعرضت لأي هجوم من جانب فرنسا، طالبا منه عدم الرضوخ لتهديد نابليون بإرسال الاسطول الفرنسي إلى مضيق الدردنيل [٣٥٣].

عمقت قضية حماية الاماكن المقدسة شقة الخلاف بين روسيا وفرنسا مما دفع بـ نيقولا الأول إلى التفكير بمشروع يهدف إلى التفاهم مع بريطانيا لتقسيم الدولة العثمانية في اطار سيناريو يضمن قيام الروس باحتلال اسطنبول " **احتلالاً مؤقتاً** " بينما تقوم بريطانيا بالاستيلاء على مصر وكريت، ومن ثم العمل سوية على انهاء الوجود العثماني في اوربا، ولكن الحكومة البريطانية وقفت بالضد من هذا المشروع لما يشكله من خطر على مصالح بريطانيا في الشرق والبحر المتوسط . لذا توجهت انظار القيصر هذه المرة إلى العثمانيين انفسهم حيث اوفد الادميرال (منشيكوف) مندوبا عنه لبحث امكانية عقد معاهدة ثنائية

روسية – عثمانية " **للوقوف بالضد من محاولات التقسيم التي تخطط لها بقية الدول العظمى** " طبقا للنقاط الآتية[٣٥٤]:

١- سحب جميع الامتيازات الممنوحة للرهبان الكاثوليك في فلسطين واعطائها للرهبان الأرثذوكس.

٢- الاعتراف لروسيا بحق حماية الرعايا الأرثذوكس في الإمبراطورية العثمانية.

٣- عقد تحالف دفاعي مع روسيا.

وفي اللقاء الذي تم بين المبعوث الروسي والسلطان العثماني بتاريخ التاسع من آذار ١٨٥٣ ابدا الاخير رفضه القاطع لاقتراح القيصر ففشلت المفاوضات الامر الذي اثار استياء نيقولا الاول . وفي محاولة اخرى لممارسة الضغط على الباب العالي بعث وزير الخارجية الروسية (نيسلورد) بمذكرة إلى نظيره العثماني رشيد باشا في الحادي والثلاثين من ايار امهل فيها الحكومة العثمانية ثمانية ايام لقبول الاقتراح الروسي وبخلافه " **سوف تضطر روسيا إلى الشروع باحتلال وولاشيا ومولدافيا كإجراء وقائي ضد أي هجوم محتمل قد يقدم عليه العثمانيون** " [٣٥٥].

أعلنت الحكومة العثمانية صراحة عن رفضها الخضوع لأية ضغوط تمارس عليها من قبل الساسة الروس وأصدرت بيانا في الرابع من نيسان ١٨٥٣ وصفت فيه التحذير الروسي بـ " **الخطوة الاستفزازية اللامبررة** " ، ثم سارعت إلى اطلاع الحكومتين البريطانية والفرنسية على تفاصيل الموقف مطالبة باتخاذ " **اجراء عاجل** " لثني روسيا عن القيام بأية " **مغامرة حمقاء** " . وبعد اتصالات ومداولات مكثفة اجرتها الحكومتان البريطانية والفرنسية قررتا في الثامن عشر من حزيران ارسال اسطوليهما إلى خليج (بسيكا) بالقرب من مدخل مضيق الدردنيل تحسبا لأي اجراء عسكري ربما تقدم عليه روسيا في منطقة المضائق، الامر الذي قابله نيقولا الاول بتوجيه قواته في الرابع من تموز لاحتلال وولاشيا ومولدافيا . وازاء ذلك احتجت الحكومة العثمانية على قيام روسيا باحتلال امارتي الدانوب

وسارعت إلى ارسال مذكرة مؤرخة في الرابع عشر منه إلى الدول الاوربية اوضحت فيها عدم شرعية أي تدخل خارجي في الشأن الداخلي العثماني وينبغي على جميع الدول احترام السيادة العثمانية في اطار القواعد الدولية المتعارف عليها " (٣٥٦) .

ولأجل تفادي الصدام العسكري بين الروس والعثمانيين تبنت الدول الاوربية في بدايات الأزمة الأسلوب الدبلوماسي لانتزاع فتيل التوتر بين الجانبين حيث اعدت الحكومة النمساوية بالتشاور مع سفراء بريطانيا وروسيا وبريطانيا المعتمدين لدى فينا مشروعا ضمنته عددا من الاقتراحات صيغت في مذكرة عرفت بـ " مذكرة فينا " التي ارتكزت على النقاط الآتية (٣٥٧):

١- تثبيت الحقوق والامتيازات الخاصة بالمسيحيين الأرثذوكس في الدولة العثمانية.

٢- التزام الباب العالي بجميع البنود التي تخص حماية الجماعات المسيحية استناداً لما ورد في معاهدتي كوجك كينارجي وادرنة.

٣- التزام الباب العالي بعدم اجراء أي تغيير في الوضع القائم الا بالتشاور مع الحكومتين البريطانية والفرنسية شرط ان لا يؤدي ذلك إلى الحاق الضرر بالطوائف المسيحية المختلفة.

أعلن القيصر الروسي موافقته على ما ورد في المبادرة النمساوية الا ان السلطان عبد المجيد ابدا رفضه المطلق للقبول بها ما لم تتضمن اعترافا دوليا صريحا "**بثوابت حقوق السيادة العثمانية دون مراوغة أو استفزاز** "، وقد رفض القيصر تقبل وجهة نظر السلطان مما مهد لقرع طبول الحرب، ففي الرابع من تشرين الاول ١٨٥٣ أرسل السلطان العثماني " **انذاراً** " إلى نيقولا الاول طالبه فيه بالانسحاب من ولايتي الدانوب في مدة لا تتجاوز (١٥) يوما وبخلاف ذلك سيتم اللجوء إلى خيار القوة وإعلان الحرب . وربما يمكن القول ان السلطان عبد المجيد وفي ظل تعنت القيصر قد ادرك تماما حتمية الصدام العسكري مع الروس فامر بتعبئة الجيش واعداد الخطط الحربية اللازمة لعبور الدانوب (٣٥٨).

أعلنت الدولة العثمانية الحرب ضد روسيا في الرابع من تشرين الاول ١٨٥٣ على جبهتي الدانوب وما وراء القفقاس، وجاء الرد الروسي حينما امر نيقولا الاول الادميرال (نشيموف) بالتحرك ومهاجمة الاسطول العثماني المرابط في قاعدة (سينوب) البحرية على الساحل الجنوبي من البحر الاسود، وفي مطلع تشرين الثاني تمكن الأسطول الروسي من مباغتة السفن العثمانية الراسية هناك ودمرها جميعا في معركة حاسمة عرفت بـ " **معركة أو مذبحة سينوب** " . وقد اثارت هذه " **الكارثة البحرية** " التي لحقت بالعثمانيين قلق الحكومتين البريطانية والفرنسية من احتمالية اندفاع الروس نحو منطقة المضائق واحتلال اسطنبول واتفقتا على خوض الحرب ضد روسيا، ففي السابع والعشرين من اذار ١٨٥٤ اعلنتا الحرب رسميا إلى جانب الدولة العثمانية، وفي التاسع من نيسان توصلت بريطانيا وفرنسا والنمسا وبروسيا إلى اتفاق تعهدت فيه حكومات هذه الدول بعدم عقد اتفاقيات منفردة مع روسيا[٣٥٩].

ونظراً لحراجة الموقف في جهة الدانوب سارعت بريطانيا وفرنسا إلى انزال جيوشهما التي تقدر بنحو (٧٠) الف مقاتل قرب مدينة (فارنا) لفك الحصار الروسي عن مدينة سلستيريا الستراتيجية ، غير ان القوات الروسية اضطرت إلى التراجع قبل تقدم جيوش الحلفاء وفك الحصار عن المدينة بسبب انتشار وباء الكوليرا في صفوفها دون صدام أو قتال . وقد استغل الإمبراطور النمساوي هذا الموقف فطالب نيقولا الاول بسحب جيوشه من ولايتي الدانوب، ولما كان الاخير يخشى انضمام النمسا إلى التحالف البريطاني – الفرنسي فانه قرر في آب ١٨٥٤ الانسحاب من هاتين الولايتين لتجنب القتال ضد النمساويين، بيد ان الحكومة النمساوية سارعت على الفور إلى ارسال جيش لاحتلال ولاشيا ومولدافيا بذريعة الحماية ريثما تنتهي الحرب[٣٦٠] . وفي الرابع عشر من ايلول ١٨٥٤ قامت القوات الحليفة بالإنزال في ميناء (ايباتوريا) إلى الشمال من سيباستيبول وبذلك تحول القتال إلى شبه جزيرة القرم، ونجحت في اختراق دفاعات الروس والحقت الهزيمة بهم في معركة (الما) مما مهد الطريق امام الجيوش البريطانية والفرنسية والعثمانية لمواصلة تقدمها نحو ميناء

سيباستيبول الستراتيجي . ورغم محاولة القائد الروسي منشيكوف استعادة زمام المبادأة واختراق خطوط الجيش البريطاني الا ان جيوش التحالف تمكنت مرة اخرى من الحاق الهزيمة بالروس في الرابع من تشرين الثاني في معركة (انكرمان) وكبدتهم خسائر كبيرة بلغت نحو الفي قتيل وجريح . وفي المدة الواقعة بين (تشرين الثاني ١٨٥٤- شباط ١٨٥٥) استمرت المعارك بين طرفي الحرب دون ان يتحقق انتصار حاسم، ويبدو ان القدر لم يتح للقيصر نيقولا الأول فرصة لرؤية ما ستسفر عنه الحرب إذ وافته المنية في الثاني من آذار ١٨٥٥ فخلفه على العرش ابنه الاسكندر الثاني [٣٦١].

٣-١٥: القيصر الاسكندر الثاني (١٨٥٥-١٨٨١)

تسلم الاسكندر الثاني السلطة في روسيا والحرب مازالت قائمة وكان عليه التصدي للمستجدات الدولية التي رافقت استمرارها ولاسيما تبدل موقف النمسا وسردينيا ورغبتهما بخوض الحرب إلى جانب الحلفاء، واشارت احدى الدراسات إلى ان القيصر الجديد كان ميالا إلى السلم بعد ان انهكت الحرب بلاده واستنزفتها عسكريا واقتصاديا، لذا فضل البحث عن حل سلمي وتهيئة الرأي العام الروسي للقبول ببنود الانذار الذي تقدمت به النمسا في الثامن والعشرين من كانون الأول ١٨٥٥ المتضمن [٣٦٢]:

١- وضع نظام جديد للمقاطعتين الدانوبيتين بضمانة اوربية مشتركة.

٢- حرية الملاحة في الدانوب.

٣- اعادة النظر في معاهدة المضائق الموقعة عام ١٨٤١.

٤- تنازل روسيا عن مطلبها في حماية نصارى الإمبراطورية العثمانية.

وجهت النمسا في مطلع كانون الثاني ١٨٥٦ انذارا نهائياً إلى روسيا طالبت فيه الاسكندر الثاني بالاستجابة الفورية والموافقة على البنود التي وردت في الانذار دون أي قيد أو شرط وبخلافه سوف تعلن الحرب إلى جانب الحلفاء، وقد ادرك القيصر خطورة الموقف اذا ما اضطرت روسيا إلى القتال على الجبهة النمساوية لذا اعلن عن رغبته بإنهاء الحرب،

إذ اتفقت الاطراف المتحاربة على عقد مؤتمر في العاصمة الفرنسية وتم التوقيع على معاهدة الصلح المعروفة بـ " **معاهدة باريس** " في الثلاثين من اذار ١٨٥٦ وفقا للبنود الآتية[٣٦٣]:

١- اعتراف الدول الاوربية بالسيادة العثمانية على المضائق، وعدم السماح لروسيا ببناء اسطول حربي وانشاء معامل حربية أو اقامة تحصينات في شواطئ البحر الاسود.

٢- حرية الملاحة في نهر الدانوب وتشكيل لجنة مختصة من ممثلي الدول المجتمعة في باريس للإشراف على ذلك.

٣- منح وولاشيا ومولدافيا استقلالاً ذاتياً تحت سيادة السلطان العثماني.

٤- تخلي روسيا عن اقليم بسارابيا لصالح امارة مولدافيا.

٥- حيادية البحر الاسود ومنع روسيا والدولة العثمانية من حيازة أكثر من (٦) سفن تجارية شرط ان لا تتجاوز حمولة كل منها (٨٠٠) طن، و(٤) سفن اخرى لا تتجاوز حمولة كل منها (٢٠٠) طن.

٦- اعادة قارص إلى الحدود العثمانية ومنح روسيا سيباستيبول فضلاً عن بعض المواقع في شبه جزيرة القرم.

٧- في حال حدوث أي نزاع بين الدولة العثمانية والدول الاوربية الموقعة على هذه المعاهدة ينبغي عدم اللجوء إلى خيار القوة واتاحة الفرصة امام الوساطة الدبلوماسية لحلحة النزاع.

٨- منح صربيا استقلالا ذاتيا ضمن اطار السيادة العثمانية.

٩- اعتراف السلطان العثماني بالمساواة بين رعاياه على اختلاف اديانهم ومذاهبهم ولا يحق للدول الاخرى التدخل في هذا الشأن.

١٠- اعلان العفو العام واعادة الاسرى.

١١- اعادة النظر في الاتفاقيات السابقة الخاصة بالمضائق.

أدرك الاسكندر الثاني ان بلاده وبعد سلسلة الحروب التي خاضتها كانت بحاجة ماسة للقيام بالإصلاح، لذا تركزت جهوده على ترصين الجبهة الداخلية لتلافي ومعالجة التداعيات الناجمة عن تلك الحروب عبر سلسلة من الإصلاحات المتمثلة بالآتي(٣٦٤):

اولاً– الغاء القنانة واصلاح نظام الارض وتحديد العلاقة بين المالك من جهة وعبيد الارض من جهة اخرى، ففي شباط ١٨٦١ صدر " **قانون الغاء القنانة الاقطاعي** " الذي منح الفلاحين حرياتهم الشخصية، اذ لم يعد الفلاح يباع ويشترى مع الارض التي يمتلكها النبيل الاقطاعي، واصبح له حق الزواج دون اخذ موافقة الملاك العقاري، كما سمح له بالتملك والمشاركة في جميع الأنشطة الاقتصادية والخدمة في الجيش الروسي ودخول المدارس والجامعات.

ثانياً– اصدار مرسوم " **المجالس المحلية** " عام ١٨٦٤ الذي نص على اجراء انتخابات محلية في جميع الاقاليم الخاضعة للإدارة الروسية وهي تتألف من ممثلي النبلاء وسكان المدن والارياف، وقد منحت هذه المجالس المسماة بـ(الزميستفو) استناداً للمرسوم صلاحيات مهمة منها فرض الضرائب المحلية والإشراف على المستشفيات والمشاريع العامة.

ثالثاً– اصلاح النظام القضائي وتنظيم عمل المحاكم وذلك بإعادة النظر في القوانين السارية المفعول والتي تختص في الجنايات والميراث والوصايا والغرامات، فضلاً عن اناطة مهمة الحكم في القضايا المدنية والجزائية إلى المحاكم بدلاً من السلطات المحلية، فيما صار البت في القضايا الجنائية يجري في حضور المحلفين وبصورة علانية.

رابعاً– الاهتمام بالتعليم في مختلف مراحله والتوسع في انشاء المدارس الحديثة اذ ارتفع عدد المدارس في عهد الاسكندر الثاني إلى (٢٥) الف مدرسة بعد ان كان لا يتجاوز عام ١٨٥٦ (٨) الاف مدرسة، كما حظي التعليم النسوي بتشجيع القيصر حيث ارتفع عدد المدارس الخاصة بالفتيات من (٢٦) مدرسة عام ١٨٥٦ إلى (٢٥) مدرسة عام ١٨٧١.

خامساً- تشكيل لجنة مختصة برئاسة الجنرال(ديمتري ميليوتين) لإصلاح الانظمة العسكرية، وقد اوصت اللجنة بعدد من الاقتراحات التي وافق عليها القيصر كان اهمها تشريع قانون الخدمة الالزامية في مطلع كانون الثاني ١٨٧٤ شُمل بموجبه جميع الرجال ممن بلغوا عشرين عاما بالخدمة في الجيش الروسي، اذ حددت مدة الخدمة بـ(٦) سنوات في صنف المشاة اضافة إلى (٩) سنوات كخدمة احتياط، فيما حددت مدة الخدمة في صنف البحرية بـ(٧) سنوات اضافة إلى (٣) سنوات كخدمة احتياط . وجرى ايضاً تحديث الاسطول الحربي الروسي وإعادة النظر في تسليح الجيش بأنواع حديثة من الأسلحة ، فضلاً عن اعداد برنامج تدريبي شامل كان يهدف إلى تعزيز قدرات المقاتلين بدنيا وعسكريا بما يؤهلهم للقتال في مختلف الظروف.

سادساً- التوسع في انشاء المصانع الحديثة ولاسيما في مجال سكك الحديد ففي المدة الواقعة بين(١٨٥٥-١٨٨١) مدت نحو (٢٢٥٢٥) كم من الخطوط الحديدية بعد ان كانت لا تتجاوز قبل ذلك (٩٦٥) كم.

سابعاً- انتهاج سياسة التسامح مع اليهود بما يضمن اندماجهم مع بقية فئات المجتمع الروسي، فقد الغى الاسكندر الثاني المرسوم الذي اصدره نيقولا الثاني عام ١٨٢٧ المتضمن تحديد مدة دراسة اطفال اليهود بـ(٦) سنوات فقط في المدارس الحكومية الروسية، وامر بفتح عدد من المدارس العلمانية اليهودية وسُمح لخريجيها بمواصلة تعليمهم الجامعي، كما منح الطلبة اليهود الذين تجنبوا الانخراط في التعليم الديني امتيازات خاصة كان ابرزها الاعفاء من الخدمة الاجبارية مما شجع الأُسر اليهودية على ارسال ابنائها طواعية إلى المدارس الامر الذي ساهم في ظهور طبقة من المثقفين اليهود. وفي عام ١٨٥٩ سمح القيصر لبعض فئات اليهود من كبار التجار والمهنيين والاطباء والمحامين والمهندسين وخريجي الجامعات بالإقامة خارج حدود الاستيطان اليهودي الذي حددته الحكومة الروسية . وحسبما ذكره الباحث الانكليزي Edward فان حاكم المناطق الجنوبية الغربية في روسيا ارسل مذكرة في كانون

الاول ١٨٧٠ إلى القيصر "اطلعه فيها على آخر تطورات مسيرة الاصلاح واثرها على اليهود في تلك المناطق، فاخبره ان اليهود اصبحوا قوة اقتصادية كبيرة، وانهم لم يتخلوا عن عاداتهم وتقاليدهم ، وان التغيير اقتصر على الطبقات العليا من اليهود " . واثر وصول هذه المذكرة شكل القيصر لجنة خاصة لمعرفة تأثير الاصلاحات على المجتمع اليهودي داخل الدولة الروسية، وقد خلصت اللجنة إلى " ان الإصلاحات اضرت بالمجتمع الروسي ودفعته للانخراط في الحركات الثورية المناهضة للقيصر، وان فقراء اليهود باتوا يشكلون عبئا ثقيلا على الحكومة القيصرية، وان رأس المال تركز بشكل كبير في ايدي فئة قليلة من اليهود فشكلوا خطرا على اقتصاد الدولة وتجارتها ومصارفها، ولم يسمحوا للأغنياء الروس بالظهور كما ازدادت شكاوي الفلاحين منهم " .

أما على صعيد العلاقات الخارجية فقد ركزت الدبلوماسية الروسية مساعيها على الغاء القيود التي فرضتها معاهدة صلح باريس عام ١٨٥٦، وكذلك استعادة النفوذ الروسي في منطقة البلقان لأجل ان تثبت روسيا مرة اخرى " انها لا زالت دولة قوية فاعلة ومؤثرة في رسم مستقبل اوربا " . وفي الوقت ذاته اتجهت انظار القيصر نحو اسيا الوسطى حيث تمكن الروس من مد نفوذهم إلى مناطق مهمة ابتداء من بحر قزوين إلى الاورال حتى الحدود الافغانية، كما توغلوا في أراضي امارتي قوقند وبخارى عام ١٨٦٠، وفي عام ١٨٦٥ سيطرت القوات الروسية على طشقند التي تعد من أهم المراكز التجارية آنذاك، وفي عام ١٨٦٨ اعترفت قوقند وبخارى بتبعيتهما إلى روسيا وكذلك فعلت امارة خيوه عام ١٨٧٣ [٣٦٥].

كما نجح القيصر في القضاء على التمردات التي شهدتها بولونيا وليتوانيا وبيلاروسيا عام ١٨٦٣، اذ تمكنت قواته من مطاردة قادة الانتفاضة البولونية التي خطط لها " حزب دومبروفسكي " ، ولاحقت ايضا اعضاء " جمعية الارض والحرية الليتوانية " بقيادة

(سيراكوفسكي) ، فيما اجهضت الانتفاضة الفلاحية في بيلاروسيا واعتقلت ابرز قادتها المدعو (تشيرنيشفسكي) الذي صدر حكم نفيه إلى سيبريا [٣٦٦].

لم يقف الاسكندر الثاني متفرجاً ازاء الاحداث التي شهدتها منطقة البلقان في السنوات (١٨٧٥-١٨٧٧) اذ ساند وبقوة تطلعات الشعوب البلقانية في البوسنة والهرسك وصربيا وبلغاريا والجبل الاسود الرامية للتحرر من السيطرة العثمانية لأجل ان يثبت لتلك الشعوب مصداقية روسيا في تزعمها لمشروع الجامعة السلافية، وقد اتضح ذلك حينما تمكن الجيش العثماني من الحاق الهزيمة بالقوات الصربية وتهديد العاصمة بلغراد حيث اوعز إلى قواته " **على الفور**" باجتياز ولايتي الدانوب لتأمين وصول الامدادات الحربية إلى دول البلقان، ففي الثاني والعشرين من نيسان ١٨٧٧ اصدر القيصر اوامره إلى الجنرال (ستروكوف) بعبور جسر (باربوشكي) على نهر بروث مما اثار استياء السلطان العثماني الذي احتج وبشدة على " **الخرق الروسي** " بوصفه صاحب السيادة على هاتين الولايتين . ويبدو ممكنا القول ان الاسكندر الثاني كان قد عقد العزم على خوض الحرب ضد العثمانيين، ففي الرابع والعشرين من نيسان اعلنت روسيا الحرب رسميا ضد الدولة العثمانية " **وفقا للخطة التي اعدتها رئاسة الاركان الروسية المتضمنة مشاغلة الجيوش العثمانية في الجبهتين الشرقية والغربية والاندفاع السريع باتجاه منطقة المضائق ثم الشروع بالهجوم على اسطنبول واحتلالها** " . وفي الاول من مايس تكامل وصول القوات الروسية التي تقدر بنحو (٢٠٠) الف مقاتل وبصحبتها نحو (٦٨٢) مدفعا إلى وولاشيا ومولدافيا، وفي الرابع عشر منه وبتدخل من جانب روسيا دمجت الولايتان في دولة مستقلة سميت بـ رومانيا وتم تعبئة نحو (٩٠) الف مقاتل من سكانها للقتال إلى جانب الروس [٣٦٧].

تمكنت القوات الروسية في المدة (١٥ مايس -٣٠ حزيران) من تحقيق انتصارات مهمة في الجبهة البلغارية مما اضطر السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩) إلى إرسال جيش قوامه نحو (٤٠) الف مقاتل بصحبتهم نحو بـ(٦٥) مدفعاً تحت امرة القائد

(عثمان باشا) للتحصن في مدينة (بلفينا) بهدف عرقلة تقدم الجيش الروسي والحيلولة دون مهاجمته للعاصمة اسطنبول . ورغم محاولة القائد الروسي (تودلبين) اقتحام دفاعات بلفينا في العشرين من تموز إلا ان الجيش العثماني تمكن من احباط هذه المحاولة وكبد الروس خسائر جسيمة بلغت نحو (١٠) آلاف قتيل وجريح، أما في جبهة القوقاز فقد انهارت المقاومة العثمانية امام الهجمات الصاعقة التي قام بها الروس حيث سقطت مدن بايزيد واردهان وقارص بيد القوات الروسية . وبالنظر لأهمية بلفينا الستراتيجية قرر تودلبين محاصرة المدينة وقطع خطوط الامداد عن القوات العثمانية المدافعة هناك، الامر الذي اضطر عثمان باشا إلى الاستسلام في الرابع والعشرين من تشرين الثاني ١٨٧٧ بعد معركة عنيفة تكبد فيها الجيش العثماني خسائر بلغت نحو (٢٠) الف مقاتل ما بين قتيل وجريح بينما تكبد الروس نحو (٥٠) الف مقاتل بين قتيل وجريح . وفي الرابع عشر من كانون الاول ١٨٧٧ اتفق الاسكندر الثاني مع الامير الصربي (ميلان) على احتلال بلغاريا والروميللي الشرقية حيث شرعت القوات الروسية وبمساندة وحدات عسكرية صربية باجتياز الاراضي البلغارية واحتلت العاصمة صوفيا في الرابع من كانون الثاني ١٨٧٨، وفي اليوم التالي سيطرت على مدينة (فيليبه) وفي العشرين منه استولت على مدينة ادرنه واصبحت على مسافة (٥٠) كم عن اسطنبول . وفي الوقت ذاته اقدمت قوات الجبل الاسود على طرد الحامية العثمانية المرابطة في مدينة (انتيفاري) والسيطرة على مينائها الستراتيجي وتمركزت بالقرب من ضواحي مدينة (اشقوردة)، بينما استولى الصرب على مدينة (نيش) [٣٦٨].

وازاء هذه الانتكاسات التي تعرض لها الجيش العثماني في مختلف الجبهات اضطرت الحكومة العثمانية إلى طلب الهدنة للحيلولة دون سقوط إسطنبول، وشرعت بالتفاوض مع الحكومة الروسية لوقف العمليات الحربية براً وبحراً، وقد توصل الطرفان المتحاربان في الحادي والثلاثين من كانون الثاني ١٨٧٨ إلى عقد معاهدة (سان ستيفانو) وفقا للبنود الآتية[٣٦٩]:

١- انسحاب الجيش العثماني من الأراضي البلغارية وإبقاء بلغاريا تحت السيادة الاسمية للسلطان العثماني على ان تشكل حكومة محلية اعضاؤها من المسيحيين البلغار ويكون لها جيش وطني تحت اشراف روسيا.

٢- تعهد الباب العالي بمنح حرية الاعتقاد الديني في الدولة العثمانية، وان لا تكون عقيدة المواطن العثماني عقبة امامه في سبيل التمتع الكامل بالحقوق السياسية والدينية.

٣- تعهد الحكومة العثمانية بدفع نفقات الحرب وتعويض روسيا عن خسائرها المادية التي قدرت بنحو مليار و(٤١٠) مليون روبل أو التنازل عن قسم من الاراضي الخاضعة لسيادة السلطان العثماني في اسيا عوضا عن ذلك.

٤- استئناف العمل بالمعاهدات الموقعة بين الدولتين والتي علقت بسبب الحرب.

٥- وضع الترتيبات اللازمة لتبادل الاسرى بين الدولتين.

٦- قيام الجيش الروسي باحتلال مدينتي (بورغوس وميديا) على البحر الاسود لتسهيل مهمة وصول المؤن إلى الوحدات العسكرية الروسية المرابطة هناك.

اثارت معاهدة سان ستيفانو المخاوف لدى الدول الاوربية من حتمية تأثر مصالحها في البلقان ومنطقة المضائق جرّاء مساعي روسيا لإيجاد " **دولة بلغاريا الكبرى** " تخضع لنفوذها وتأتمر بأوامرها لا بل وتقاتل نيابة عنها، اذ اعربت تلك الدول عن رفضها وممانعتها لانفراد الروس في فرض الهيمنة على الشعوب البلقانية والتحكم بالمضائق العثمانية مما يفضي إلى الاخلال بتوازن القوى في المنطقة، وقد اسفرت تلك المواقف عن تأزم في العلاقات الروسية – الاوربية وخيم عليها شبح الحرب . ويبدو ممكنا القول انه لولا ادراك قادة اوربا وفي مقدمتهم المستشار الالماني بسمارك لخطورة الموقف لانحراف مسار الأحداث باتجاه الصدام العسكري ، لذا صار لزاما على هؤلاء القادة احتواء الازمة والدعوة لعقد مؤتمر دولي يهدف إلى اعادة النظر في بنود سان ستيفانو، وبعد مباحثات مكثفة جرت في

المدة (٤ حزيران –١٣ تموز ١٨٧٨) توصلت الدول الاوربية الكبرى إلى عقد " **معاهدة تاريخية** " عرفت بـ معاهدة برلين طبقاً للبنود الآتية[٢٧٠]:

١- منح بلغاريا استقلالا ذاتيا تحت السيادة الاسمية للسلطان العثماني على ان تشكل فيها حكومة محلية مسيحية وجيش مستقل.

٢- تنازل الباب العالي عن اردهان وباطوم وقارص إلى روسيا.

٣- وضع البوسنة والهرسك تحت الادارة النمساوية والابقاء على الادارة العثمانية في سنجق نوفي بازار.

٤- الاعتراف باستقلال امارة الجبل الاسود استقلالاً تاماً.

٥- منح صربيا الاستقلال التام.

٦- ضمان حرية الملاحة في نهر الدانوب وازالة جميع التحصينات العسكرية التي اقيمت على ضفتيه.

٧- تعهد الباب العالي بتنفيذ الاصلاحات المطلوبة في بقية الولايات الاوربية التي لا زالت تحت سيادة السلطان العثماني.

٨- حصول رومانيا (وولاشيا ومولدافيا) على الاستقلال التام وضم اقليم دوبرجا اليها مقابل تنازلها عن بسارابيا إلى روسيا.

٩- موافقة روسيا على اعادة مدينتي اشقودرة وبايزيد إلى الدولة العثمانية.

القت معاهدة برلين بظلالها السلبية على الوضع الداخلي الروسي اذ حمّلت جماعات المعارضة الاسكندر الثاني مسؤولية ما انتزعه مؤتمر برلين من ثمار النصر الذي دفعت من اجله روسيا دماء غزيرة، وقد عبرت تلك الجماعات عن غضبها بأساليب مختلفة منها التحريض ضد السلطة واللجوء إلى العنف وتنفيذ الاغتيالات التي طالت القيصر نفسه، ففي الثاني من نيسان ١٨٧٩ تعرض الاسكندر الثاني إلى محاولة اغتيال فاشلة عند مغادرته قصره الشتوي حين اقدم الزعيم المعارض (سولوفياف) على اطلاق النار من مسدسه ولكنه اخطأ الهدف، كما امتدت ايدي المعارضة لتصل إلى القصر

الإمبراطوري، ففي مساء الخامس من شباط ١٨٨٠ سُمع دوي انفجار شديد في بطرسبورغ ناجم عن تفجير قنبلة وضعت في صالة الطعام الخاصة بالضيوف حيث كان القيصر اعد مأدبة على شرف الامير (الاسكندر دي هيسين)، ولكن شاء القدر " **ان ينهمك الاثنان بالحديث في مكتب الامبراطور ثم خرجا متجهين إلى بهو الطعام وقبل ان يصلا بقليل انفجرت القنبلة** " فنجا القيصر وضيفه وقتل وجرح نحو (٧٠) شخص . واثر هذه الحادثة قرر الاسكندر الثاني " **استئصال شأفة الثوار** " فاستحدث دائرة باسم " **اللجنة العليا للدفاع عن النظام الاجتماعي** " واسند رئاستها إلى الجنرال (لويس مليكوف) وهو من اصول ارمنية، غير ان رد فعل زعماء المعارضة جاء سريعا اذ اقدم احدهم المدعو (ميودتسكي) فاطلق من مسدسه الرصاص على الجنرال مليكوف واصابه بجروح بسيطة، بيد ان الاخير تمكن من الامساك به وسلمه إلى جهاز الشرطة لمحاسبته قضائياً، وبعد محاكمة صورية حكم على ميودتسكي بعقوبة الإعدام وتم تنفيذ الحكم في ساحة (سيمينوفسكي) امام مرأى آلاف المواطنين على خلاف ما كان معهوداً "**حيث ان السلطة العليا ابطلت ومنذ خمسين سنة خلت اسلوب شنق المحكومين علنا امام الجماهير، واختارت قلعة القديسين بطرس وبولس لتنفيذ هذه الاحكام سراً**" [٣٧١].

وازاء تعالي اصوات المعارضة المطالبة بتشريع دستور جديد للبلاد اقترح مليكوف على الاسكندر الثاني تأسيس مجلس نيابي يضم ممثلين عن المقاطعات الروسية كافة، وذلك في الوقت الذي اكدت فيه التقارير الاستخبارية عن نية الجماعات المعارضة المسلحة القيام بأعمال شغب والتحريض ضد السلطة، وقد صادق القيصر على هذا الاقتراح في الثاني عشر من اذار ١٨٨١، الا انه لم يأذن بنشره الا بعد انتهاء مراسيم الاستعراض العسكري الذي كان من المقرر ان يقام صبيحة اليوم التالي . ويبدو ان الاسكندر الثاني لم يأبه لتحذير الجنرال مليكوف بعدم الحضور إلى ساحة الاستعراض بسبب تأزم الوضع الداخلي، اذ قامت عناصر مسلحة من اعضاء " **جمعية ارادة الشعب** " بالانتشار في الشوارع التي

ينبغي ان يسلكها الموكب الإمبراطوري وتمكنت من اغتياله ظهيرة الثالث عشر من اذار مع مجموعة من مرافقيه [٣٧٢].

٣-١٦: القيصر الاسكندر الثالث (١٨٨١-١٨٩٤)

الابن الثاني للقيصر الاسكندر الثاني ولد في العاشر من آذار ١٨٤٥ بمدينة بطرسبورغ وسنحت له الفرصة لأن يكون ولياً للعهد أثر وفاة أخيه الأكبر نيقولا عام ١٨٦٥، وقد اثرت حادثة اغتيال والده على نهجه في إدارة شؤون البلاد إذ اتبع سياسة استبدادية تقوم على كبح جماح الخصوم وترسيخ مبادئ الحكم المطلق متجاهلاً بذلك تطلعات الروس في إدخال الاصلاحات الدستورية والحكم الديمقراطي، ويبدو ممكنا القول ان تلك السياسة تجسدت بما يأتي [٣٧٣]:

أولاً– رفض اقرار مشروع " **المجلس النيابي** " الذي سبق وان صادق عليه والده قبل يوم واحد من اغتياله بهدف صرف أنظار الشعب عن المطالبة بالدستور، إذ اجرى تعديلاً على فقرة تضمنها خطاب اعتلاء العرش الذي أعده الجنرال مليكوف " **... اني ساحترم كل الاحترام مشيئة والدي...** " واستبدلها بالعبارة الآتية: " **في وسط حزننا العميق يأمرنا صوت الله بان نتولى إدارة الحكومة معتمدين على العناية الإلهية، مؤمنين بالقوة والسلطة المطلقة التي دعانا الله إلى اثباتها والمحافظة عليها كاملة لما فيه خير الشعب** ".

ثانياً– تنفيذ حكم الاعدام في ساحة سيمينوفسكي بحق المتهمين في حادثة اغتيال القيصر الإسكندر الثاني وذلك في الثالث من نيسان ١٨٨١.

ثالثا– صدور مرسوم قيصري في الثامن عشر من نيسان ١٨٨١ بتنحية (١٣) جنرالاً من مناصبهم القيادية.

رابعاً– شن حملة كبيرة ضد اليهود ومطارتهم لضلوعهم في حادثة اغتيال والده، وقد استمرت تلك الحملة نحو تسعة شهور (٥ نيسان– ٢٩ كانون الأول ١٨٨١)

ارتكبت فيها مجازر كبيرة في مدن (كياف، بورسيبول، نياجين، فرسوفيا، بورسينا، لوبوري، تزيركوف).

خامساً– محاربة الأفكار الداعية للدستور فالحكم الدستوري من وجهة نظر الاسكندر الثالث هو السبب الرئيس في فقدان ملوك أوربا لعروشهم وعدّ الأنظمة الدستورية " **مدعاة إلى سخط الله الذي هيأ لهم بنعمته هذه السلطة فالقوا عن عواتقهم هذه التبعة الربانية وحكموا شعوبهم بالدساتير المكتوبة بدلاً من ان يحكموها بنعمة الله**" مؤكداً في الوقت ذاته على " **أن منزلة الملك الدستوري ليست جديرة بالكرامة**".

سادساً– حظر كافة التنظيمات والجمعيات السرية التي تتخذ من الاصلاح شعاراً لها وإحالة مروجيها إلى المحاكم.

سابعاً– تشكيل حكومة من وزراء لا تتعارض توجهاتهم مع أفكار القيصر الرجعية ولا تتقاطع مع ركائز النظام الاوتوقراطي.

ثامناً– تقييد الحريات العامة ومنع إقامة المهرجانات الخطابية أو توزيع المنشورات.

تاسعاً– تشديد الرقابة على الصحف ومنع دخول المطبوعات الخارجية لاسيما تلك التي تروج للأفكار الثورية الحرة.

عاشراً– وضع الجامعات تحت الرقابة الحكومية وتشكيل لجان سرية بهدف الكشف عن التوجهات الفكرية للطلبة والأساتذة وإحالة المخالفين منهم إلى المحاكم المختصة، بينما أخضعت المدارس الابتدائية لإدارة الكنيسة الارثذوكسية الروسية.

حادي عشر– حرمان ابناء الطبقة الدنيا من دخول المدارس العامة وذلك استناداً إلى المرسوم القيصري الصادر في الثامن عشر من حزيران ١٨٨٧ المتضمن "**حظر دخول أبناء الغسالات والطاهيات والخادمات في المدارس الحكومية**"، وحسب رأي

الاسكندر الثالث فان ارسال الفلاحين أولادهم إلى المدارس مسألة لا تبعث على الارتياح.

ثاني عشر- منح القادة العسكريين صلاحية الرد السريع والفوري على أية تظاهرة مناهضة للنظام القيصري وان تطلب ذلك الاستخدام المفرط للقوة، دون الخضوع لأوامر السلطات المحلية والمحاكم والنيابة العامة.

ثالث عشر- تشكيل وحدات خاصة لمداهمة الأماكن التي تمارس فيها النشاطات المحظورة مثل الاجتماعات والمطابع السرية.

رابع عشر- تطبيق " **سياسة الترويس**" إذ كان نموذج القيصر السياسي "**أمة ذات قومية واحدة ولغة واحدة ودين واحد، تخضع لإرادة واحدة** "، وتم فرض اللغة الروسية على كامل الأراضي التي كان يعدها ضمن ممتلكات الروس كما فرض الارثذوكسية بالقوة.

خامس عشر- إلغاء جميع المؤسسات ذات الطابع الديني والاجتماعي والثقافي في روسيا والأراضي التي ألحقت بها.

سادس عشر- إخضاع إدارات الجمعيات الفلاحية المستقلة لإشراف مُلاك تُعينهم الحكومة.

سابع عشر-خضوع المناطق التي تسيطر عليها روسيا في آسيا والقفقاس لإدارة مركزية تحت اشراف القيصر شخصياً.

ثامن عشر- تعطيل دور المجالس المحلية ومصادرة صلاحيات مجلس الدوما وفقاً لما يرتأيه القيصر.

تاسع عشر: منح السلطات في الأقاليم الروسية صلاحية تهجير الأشخاص غير المرغوب فيهم وإغلاق المؤسسات التعليمية والصحفية، إضافة إلى المؤسسات الصناعية

والتجارية، الأمر الذي يعني في واقع **الحال " فرض الاحكام العرفية"** التي ظلت سارية المفعول حتى عام ١٩١٧ رغم أن الإعلان عن تلك الإجراءات كان مؤقتاً.

ورغم السياسات الدكتاتورية التي انتهجها الاسكندر الثالث إلاّ أن عهده شهد نمواً اقتصادياً كبيراً نتيجة تجاوز العجز المالي في الأعوام (١٨٨١-١٨٨٧)، إذ عمدت الحكومة إلى سلسلة من الإجراءات كان أهمها [٣٧٤]:

- تشجيع المواطنين الروس على الاقتراض من المصارف الحكومية بفوائد ميسرة لغرض استثمارها في مشاريع القطاع الخاص.
- التوسع في افتتاح المصارف الخاصة بهدف تسهيل تداول العملة في الداخل والخارج.
- الاهتمام بإقامة المشاريع الحيوية وبخاصة في مجال سكك الحديد حيث تم ربط بطرسبورغ بسواحل الباسيفيك الغربية.
- افتتاح القنوات الرابطة ما بين الأنهار لانعاش التجارة الداخلية في الأقاليم الروسية.
- التركيز على صناعة السفن ورفد الاسطول الحربي بالقطع البحرية المتطورة حيث تم صنع (١١٤) سفينة حربية منها (١٧) سفينة مدمرة و(١٠) طرادات.

عرف عن الاسكندر الثالث ميله للسلام وتفضيله سياسة الدبلوماسية الهادئة في تعاطيه مع ملفات العلاقات الخارجية، وقد اتضح ذلك من خلال مساعيه الرامية للحصول على بعض الامتيازات في بلاد فارس والدولة العثمانية على غرار ما حصلت كل من بريطانيا والمانيا في مجالات الصيرفة والبنوك وسكك الحديد[٣٧٥]. كما ابدا رغبته بالتفاهم مع الالمان والنمساويين وتجديد العمل بمعاهدة تحالف عصبة الاباطرة الثلاثة الموقعة عام ١٨٧١، اذ ادرك القيصر ان مصلحة روسيا في المرحلة التي اعقبت مؤتمر برلين كانت تتطلب تحييد كل من المانيا والنمسا – المجر لأجل ضمان تطلعات بلاده في منطقة البلقان اذا ما حاولت الدخول في حرب جديدة ضد الدولة العثمانية . ففي الثامن عشر من حزيران ١٨٨١ توصلت الدول الثلاثة إلى اتفاق يقضي بسريان مفعول بنوده لمدة ثلاث

سنوات، إذ نص هذا الاتفاق والذي اعتبره المستشار الالماني بسمارك غاية في السرية حتى انه كتب نصوصه بخط يده على " **التزام الدول الموقعة بموقف الحياد اذا ما تورطت احداها في الحرب**"، وتضمن ايضا عدم امكانية اقتطاع اية مساحة من اراضي تركيا الأوربية الا بموافقة مشتركة من جانب الدول الموقعة، وان تستمر الدولة العثمانية في اغلاق المضائق امام السفن الحربية . وبذلك حققت روسيا هدفا مهما بضمان هيمنتها على البحر الاسود من خلال الزام الحكومة العثمانية بغلق مضيقي البسفور والدردنيل بوجه سفن الاسطول البريطاني (٣٧٦).

وابان الازمة البلغارية التي ابتدأت احداثها ليلة ١٧-١٨ ايلول ١٨٨٥ بقيام الثورة في الروميللي الشرقية واتحادها مع بلغاريا وتنصيب (الاسكندر باتنبرغ) ملكا عليها اعرب القيصر الاسكندر الثالث عن انزعاجه وغضبه من هذا الاتحاد الذي انبثق دون علمه، واشارت احدى الدراسات إلى ان القيصر لم يكن يتوقع قيام قادة الروميللي بخطوة الاتحاد هذه في ظل الظروف الدولية القائمة آنذاك كونه يعد خرقا لمعاهدة برلين، اذ اقدموا على عزل الحاكم (كروستيفتش) " **وعلى الفور قام الثوار بدعوة امير بلغاريا لتولي رئاسة الدولة الجديدة المتحدة (اتحاد بلغاريا وروميليا الشرقية)، غير ان تلك الدعوة وضعت امير بلغاريا امام قرار صعب فاولاً انه يعلم ان رعاياه البلغار يرغبون رغبة عارمة في تحقيق هذه الوحدة، لكن تحقيقها تحت قيادته قد يجعل وضعه في البلاد عرضة للخطر، واذا اختار إلا يقود الوحدة الفعلية ان يعد نفسه للتخلي عن العرش، ومن ناحية اخرى فهو قد أكد لروسيا في اب ١٨٨٥ انه لن يكون طرفا في اية حركة تجاه الوحدة وان تغير موقفه بعد شهر واحد قد تفتح من جديد باب المسألة الشرقية برمتها دون ضمان ان تكون نتيجتها النهائية في صالح بلغاريا، وهكذا عندما اخبره مستشاره بوضوح ان عليه ان يختار قيادة الوحدة أو ان يغادر بلغاريا، اختار المغادرة بلا تردد** " . ورغم ان مسالة الوحدة لم تكن ضمن الحسابات المتوقعة الا انها تسببت في

ازمة دبلوماسية لأن قيامها كان يعد خرقا لمعاهدة برلين وبالتالي توريط الدول العظمى، والحال كذلك طفت على السطح مسالة تعويض اليونان وصربيا عن الأراضي التي انتزعت منهما عند الاستقلال، ولقد جاء رد الفعل الأقوى من جانب روسيا كما هو متوقع اذ علن الاسكندر الثالث في الحادي والعشرين من ايلول ١٨٨٥ عن قراره بسحب جميع الضباط الروس الذين ارسلوا للإشراف على الجيش البلغاري وكذلك وقف المساعدات التي كانت تقدمها الحكومة الروسية، فضلاً عن اتخاذ الاجراءات الخاصة بعزل امير بلغاريا وتنحيه عن العرش . ومما يجدر ذكره ان وزارة الخارجية الروسية قد حذرت من الانعكاسات الخطيرة لهذه الازمة واحتمالية قيام النمسا – المجر بضم البوسنة والهرسك اضافة إلى اقدام صربيا واليونان على دخول الاراضي المقدونية (٣٧٧).

وبسبب المخاوف التي تولدت لدى الاسكندر الثالث من احداث تغييرات في خارطة البلقان فانه دعا إلى عقد مؤتمر اوربي على مستوى السفراء لنزع فتيل التوتر والحيلولة دون انزلاق دول المنطقة إلى الاقتتال، وقد رحبت كل من المانيا والنمسا – المجر بفكرة القيصر بينما ايدت بريطانيا قيام الوحدة خلافا للسياسة التي اتبعتها عام ١٨٧٨ في مؤتمر برلين والهادفة إلى " **توازن المصالح وتكامل الاراضي العثمانية**". ويبدو ممكنا القول انه رغم الدعوات الدولية لاحتواء الازمة الا انه لم يعد بوسع الدول الكبرى توجيه الاحداث في البلقان وفقا لرغباتها، اذ اقدم امير صربيا ميلان " **الذي رأى ان الوحدة قد تضر بالتوازن السياسي بين حكومات البلقان وتعطي لبلغاريا ميزة في الصراع الذي ينشأ حول مقدونيا فاعلن الحرب على جارته بلغاريا** ". غير ان توقعات المراقبين بانتصار الصرب في الحرب لم تكن دقيقة اذ تمكن الامير البلغاري وجيشه الذي اصبح تحت قيادة ضباط صغار حلّوا محل الضباط الروس من ايقاع الهزيمة بالجيش الصربي الامر الذي اضطر روسيا للموافقة على قيام الاتحاد، وكذلك قبلت بقية الدول بان يكون امير بلغاريا حاكما عاما على الروميللي الشرقية لمدة خمس سنوات . وهكذا وبعد مرور سبع سنوات على توقيع معاهدة برلين " **تمت وحدة منطقتين من الثلاثة مناطق التي كانت بلغاريا تطالب بها، فبدا امير**

بلغاريا الكسندر في صورة المنتصر، واخذ يتلقى مديحا لمهاراته الدبلوماسية، غير ان هذا المجد العظيم كان له ثمنه ايضا فقد شعر القيصر الاسكندر الثالث بالإهانة الشديدة واصبح اكثر اقتناعا بان الامير البلغاري هو العقبة الوحيدة امام تطبيع العلاقات الروسية – البلغارية ومن ثم قرر الاطاحة به ". وعلى هذا الأساس خطط ممثلو القيصر في صوفيا للتآمر على الأمير الاسكندر باتنبرغ خاصة وان هؤلاء وجدوا مساندة من بعض كبار الساسة البلغار الموالين لروسيا، اضافة إلى عدد من ضباط الجيش البلغاري الساخطين الذين ساورهم الاعتقاد بانهم " **لم يحصلوا على المكافأة المناسبة لدورهم في هزيمة الصرب** "، ففي آب ١٨٨٦ نجح مخطط الانقلاب الروسي الذي تم بالتنسيق مع اطراف محلية في ارغام الامير باتنبرغ على التنازل عن العرش والرحيل خارج البلاد. واثر نجاح الانقلاب قام السياسي البلغاري (كليمنت) وهو من الموالين للروس بتشكيل حكومة جديدة، ولكن سرعان ما اتضحت شعبية الامير المخلوع حيث قامت ثورة مضادة بقيادة (استيفان ستامبولوف) احد الوزراء السابقين وارغمت حكومة كليمنت على الاستقالة بعد ايام من تشكيلها، وعاد الامير المخلوع إلى بلغاريا بعد عشرة ايام وكان من بين مستقبليه نائب القيصر " **مما جعل الامير يعتقد ان قيصر روسيا قد سامحه وعفا عنه** "، ومن هنا بادر إلى ارسال برقية دون استشارة ستامبولوف عبّر فيها عن اخلاصه لـ الاسكندر الثالث بقوله: " **حيث ان روسيا اعطتني تاج العرش فانا على استعداد تام لإعادته إلى اصحابه** " فما كان من القيصر الذي لم يوافق على عودته الا الرد بخشونة " **لسوف تقدر جنابكم ما ينبغي ان تفعله** " (٣٧٨).

كان من ابرز النتائج التي تمخضت عن الأزمة البلغارية (١٨٨٥-١٨٨٦) هي تفكك عصبة الاباطرة لثلاثة وذلك بسبب ازدياد حدة التنافس الروسي – النمساوي في منطقة البلقان، لذا حرص المستشار الالماني على تعزيز العلاقات الألمانية – الروسية للحيلولة دون قيام أي تقارب أو تحالف ما بين روسيا وفرنسا تضطر بسببه المانيا إلى

القتال على جبهتين . وفي الوقت ذاته اعتقد الاسكندر الثالث ان الخلافات مع النمسا – المجر تستوجب الوصول إلى تفاهم مع المانيا فاقترح على الامبراطور الألماني وليم الاول ومستشاره بسمارك عقد " **حلف دفاعي**" لا تشترك فيه النمسا – المجر، وبعد مفاوضات استمرت من (١١–١٨ حزيران ١٨٨٧) توصلت الدولتان إلى ما يعرف بـ " **معاهدة اعادة الضمان** " وفيها "**التزمت المانيا بالوقوف على الحياد اذا ما دخلت روسيا حربا دفاعية ضد النمسا والتزام روسيا الحياد اذا ما دخلت المانيا حربا دفاعية ضد فرنسا واحكام هذه المعاهدة تلغى اذا قام أي طرف فيها وبدء بالعدوان** " كما حدد امدها بـ(٣) سنوات قابلة للتجديد وبموافقة الدولتين [٣٧٩].

توفي الامبراطور الألماني وليم الاول في التاسع من اذار ١٨٨٨ وخلفه على العرش وليم الثاني (١٨٨٨–١٩١٨) الذي اختلف مع مستشاره بسمارك بشأن الأهداف التي ينبغي أن توجه سياسات المانيا الخارجية بتبنيه لما يعرف بـ " **سياسة النهج الجديد** " التي تؤكد حق بلاده في ان تتبوأ مكانة عالمية لا بل وتتزعم العالم، ولما حان موعد انتهاء المعاهدة عام ١٨٩٠ رفض وليم الثاني تجديدها بذريعة مخالفة بنودها لمعاهدة التحالف الثنائي الالماني – النمساوي الموقعة عام ١٨٧٩، الأمر الذي دفع بسمارك – الذي وعد القيصر الروسي بتجديد المعاهدة طبقا لحسابات ستراتيجية – إلى تقديم استقالته في الثامن عشر من اذار ١٨٩٠ [٣٨٠].

وأشارت احدى الدراسات إلى ان المانيا رفضت تجديد العمل بمعاهدة اعادة الضمان لعدة اعتبارات منها خشية وليم الثاني من افتضاح امر هذه المعاهدة وتأثيرها على التحالف الثلاثي الالماني- النمساوي- الايطالي، واعتقاد الحكومة الالمانية بان احتمالية الخطر القادم سوف يأتي من روسيا وليس فرنسا، فضلاً عن تخوف الالمان من تدهور العلاقات مع بريطانيا اذا ما افتضح امر المعاهدة ذلك ان احد بنودها نص على قيام المانيا بمساندة روسيا في مسالة المضائق مما يتعارض بل ويتقاطع مع أهداف السياسة البريطانية . ومما يجدر ذكره ان الاسكندر الثالث ساورته الشكوك من توجهات وليم الثاني ومساعيه

للتقارب مع بريطانيا خاصة بعد ان توصلت الحكومتان الالمانية والبريطانية إلى اتفاق بشأن اقتسام المستعمرات في شرق افريقيا، وفي الوقت ذاته انتابت الروس والفرنسيين على حد سواء المخاوف من قيام تحالف بريطاني – الماني، وبذلك تلاقت اهداف روسيا وفرنسا في امكانية قيام تحالف روسي – فرنسي فالأخيرة كانت تسعى للتخلص من العزلة الدولية التي نسج شراكها بسمارك بهدف تامين حدودها الشرقية اولاً، ثم التفرغ لمشاريعها الاستعمارية ومواجهة بريطانيا في مصر واعالي النيل فضلاً عن مواجهة ايطاليا في شمال افريقيا، اما روسيا فلم يعد لها من خيار سوى التحالف مع فرنسا بعدما تدهورت علاقاتها مع المانيا[٣٨١].

أدرك الاسكندر الثالث ان المرحلة التي اعقبت انفراط عقد التحالف الالماني – الروسي كانت توجب التحرك الجاد لمواجهة التحديات الخطيرة المحدقة ببلاده، ذلك ان استمرار الخلافات مع النمسا – المجر بخصوص البلقان وتفاقم الصراع البريطاني – الروسي في اسيا وبروز المانيا كقوة اقتصادية وعسكرية من الدرجة الاولى جميعها بواعث كانت تدعو للقلق، لذا وجد القيصر في التقارب مع فرنسا فرصة مهمة لتشكيل تحالف راع يقف بالضد من التحالف الثلاثي الالماني – النمساوي – الإيطالي . وقد افضت المباحثات الروسية – الفرنسية التي جرت عام ١٨٩١ إلى صيغة للوفاق الودي بين الدولتين استندت إلى هدفين ستراتيجيين: (الاول) التشاور في جميع القضايا التي تهدد السلم في اوربا و(الثاني) التنسيق المشترك في حال تعرض اية من الدولتين لاعتداء من قبل دولة اخرى وفقا لما تقتضيه مصلحتيهما . وفي الرابع من كانون الثاني ١٨٩٤ توصلت الدولتان إلى "**اتفاق عسكري**" الذي اصبحت له قوة المعاهدة وشكّل ركيزة اساسية "**لمحالفة سرية جداً**" عرفت بـ "**المعاهدة الفرنسية – الروسية**" [٣٨٢]:

المادة الاولى: اذا تعرضت فرنسا لهجوم من جانب المانيا أو ايطاليا بمساندة المانيا فيتوجب على روسيا ان تسارع إلى مساعدتها، وان تعد ما تيسر لها من قوة لمحاربة المانيا . واذا تعرضت روسيا لهجوم من جانب المانيا أو النمسا – المجر بمساندة المانيا فيتوجب على فرنسا ان تسارع إلى مساعدتها ، وان تعد ما تيسر لها من قوة لمحاربة المانيا.

المادة الثانية: اذا اقدمت دول التحالف الثلاثي (المانيا –النمسا- المجر- ايطاليا) على تعبئة جيوشها – بصورة جماعية أو منفردة – فيترتب على ذلك قيام كل من روسيا وفرنسا بإعلان التعبئة العامة فوراً، ونقل جيشهما إلى اقرب نقطة في الحدود دون انتظار أو تشاور في هذا الخصوص.

المادة الثالثة: تحديد عدد القوات التي ينبغي استخدامها ضد المانيا من جانب فرنسا بـ(١,٣٠٠,٠٠٠) مقاتل، ومن جانب روسيا بـ(٧٠٠-٨٠٠) الف مقاتل، ويتوجب على هذه القوات الاسراع في الوصول إلى خطوط القتال بهدف اشغال المانيا ودفعها للقتال على جبهتين.

المادة الرابعة: تتولى هيئتا اركان الحرب في الدولتين مهام التنسيق والعمل المشترك في جميع المسائل الخاصة بخطط الحرب وتبادل المعلومات.

المادة الخامسة: تتعهد الدولتان بعدم عقد أي صلح منفرد.

المادة السادسة: بقاء سريان مفعول هذا الاتفاق طالما استمر العمل بالمحالفة الثلاثية.

المادة السابعة: اقرار الطرفان الموقعان بان تكون المواد انفة الذكر في "غاية السرية" .

وعزت احدى الدراسات الاسباب التي حفزت الاسكندر الثالث على المضي في توثيق عرى التعاون مع فرنسا إلى رغبته بتبديد شعور " **كراهية اوربا للبلاط الروسي** "، والاستعانة بالخبرة ورؤوس الاموال الفرنسية لانعاش اقتصاد روسيا، اضافة إلى هدفه الستراتيجي الرامي للوقوف بالضد من المحالفة الثلاثية [٣٨٣] . وبينما كان القيصر ماضيا وبقوة في سياسته هذه داهمته المنية في العشرين من تشرين الاول ١٨٩٤ لإصابته بالفشل الكلوي ودفن في كنيسة القديس بطرس بمدينة بطرسبورغ[٣٨٤] .

٣-١٧: القيصر نيقولا الثاني (١٨٩٤-١٩١٧)

آخر القياصرة من أسرة رومانوف اعتلى عرش روسيا عقب وفاة والده الاسكندر الثالث عام ١٨٩٤، وجرى تتويجه وفقا للقانون الكنسي الأرثذوكسي فاقسم " **ان يحافظ على مبادئ وتعاليم الايمان الأرثذوكسي وعلى السلطة الامبراطورية الاوتوقراطية ...**

وانه مسؤول امام الله عن الدولة والامة "، ثم تناول التاج الامبراطوري الذي قدم اليه على وسادة ثمينة " **فوضعه على راسه اشارة إلى انه لم يتسلم هذا التاج بواسطة الكنيسة، بل تسلمه (مباشرة) من الله** " [٣٨٥].

انتهج نيقولا الثاني سياسة اسلافه في ترسيخ مبادئ الحكم الاستبدادي المطلق، وشهد عهده ممارسة اقسى اساليب القمع وسوء استخدام السلطة الامر الذي انعكس سلبا على الاوضاع الداخلية في روسيا، اذ ازدادت الاصوات المعارضة لحكم ال رومانوف بفعل التطورات والتجارب السياسية والاقتصادية العالمية التي اخذت مسارها في التأثير على المجتمع الروسي، ويبدو ممكنا توضيح ملامح تلك السياسة بما يأتي[٣٨٦]:

اولاً– التمسك بالنظام الاوتوقراطي القديم الذي ما عاد يواكب المستجدات التي طرأت على الانظمة الاوربية في مجالات الفكر الحر الديمقراطي والحياة الدستورية وبناء الدولة المدنية الحديثة.

ثانيا– اللامساواة في اجور العاملين بأجهزة الدولة وحسب الاحصائيات الرسمية لعام ١٩٠٣ فان (٨٠) عضو في المجلس الاستشاري الإمبراطوري كانوا يتقاضون رواتب سنوية مقدارها مليون و(٣١٨) الف روبل، وان مجموع ما كان يتقاضاه كبار الموظفين في الحكومة والبالغ عددهم (٢٣١٣) موظفاً بلغ نحو (١٨) مليونا و(٣٦١) الف روبل سنوياً، فضلاً عن المكافآت المالية غير المحددة والتي كانت تمنح للقادة العسكريين والعناصر المقربة من القيصر . اما صغار الموظفين فلا تتجاوز رواتبهم الالف روبل سنويا.

ثالثاً– التفاوت الكبير في امتلاك الثروات اذ احتلت الاسرة الإمبراطورية الحاكمة التي يبلغ عدد أفرادها نحو (٦٠) أمير وأميرة المرتبة الأولى من حيث الثروة دون منازع على الإطلاق، اذ كان للقيصر وبقية أفراد الاسرة املاك لا تحصى في القوقاس والقرم وسيبريا وبقية المناطق الخاضعة للسيادة الروسية، واذا استثنينا هذه الثروات الخاصة فان الاسرة الإمبراطورية كانت تتمتع بأملاك واموال اخرى خصصها لها الاسكندر

الاول عام ١٧٩٧ لكي يضمن بقاءها "**وتتألف من (٧) مليون و(٨٥٠) الف (عشر) من الاراضي الزراعية، (١٥٠٠) طاحونة، (٨٥٠) شركة تجارية، (١٠٠) مصنع**" ، كما بلغ مجموع ما تملكه نيقولا الثاني في سيبريا فقط نحو (٤٣) مليون (عشر) من الاراضي عالية الخصوبة.

رابعاً– اعلان " **الاحكام العرفية** " في المناطق التي كانت تشهد اضطرابات أو تظاهرات مناهضة للسلطة.

خامساً– تشكيل مجاميع خاصة للاغتيالات والاستعانة بها في تصفية العناصر المعارضة.

سادساً– الموقف السلبي المتشدد من الدعوات الشعبية المطالبة بإطلاق الحريات العامة وتنظيم التظاهرات وحرية النشر في الصحافة.

سابعاً– تجاهل رغبة الشعب في تشكيل مجلس نيابي دستوري يمثل مكونات المجتمع الروسي، وحسب تعبير نيقولا الثاني انه مطلب مستحيل مؤكداً قوله: " **كلا لن اسمح بإنشاء نظام دستوري انا مقتنع بان هذا النظام مضر بالشعب الروسي الذي توليت امره بمشيئة الله** " .

ثامناً– فرض ضرائب جديدة طالت جميع النشاطات الاقتصادية الامر الذي انعكس سلبا على المستوى المعاشي للفرد الروسي وبخاصة طبقة العمال واصحاب المهن الصغيرة.

امتاز عهد نيقولا الثاني بعدم استقرار الوضع الداخلي اذ ازدادت الفتن والاضطرابات وعمت التظاهرات والاعتصامات المناهضة للسلطة القيصرية في مختلف الأقاليم الروسية، وسوف نستعرض هنا ابرز الاحداث التي شهدتها روسيا ابان المدة (١٩٠١-١٩٠٦)[٣٨٧]:

١– الاضطرابات التي حدثت في مدن قارص وباكو واليزابيتبول ونوشا في شباط ١٩٠١ بسبب عزم الحكومة الروسية على تحويل الكنيسة الارمنية إلى الأرثذوكسية، وقد واجهت السلطة تلك الاضطرابات باللجوء إلى القوة واعلان الاحكام العرفية.

٢- اضراب عمال سكك الحديد في (بوريسوغليسك) عن العمل بسبب قلة الاجور، وقد طالب منظمو الاضراب الذي بدأ في العاشر من اذار ١٩٠١ الحكومة بتحسين احوالهم المعيشية الامر الذي دفع بالسلطة الروسية إلى اعتقالهم واحالتهم إلى المحاكم، فحكم على عدد منهم بعقوبة الاعدام.

٣- الانتفاضة الفلاحية في خروكوف وبسكوف عام ١٩٠٢.

٤- قيام ما يعرف بـ " **الثورة الروسية عام ١٩٠٥** " التي تعزى اسبابها إلى عوامل عديدة اهمها حالة التذمر التي انتابت الشعب الروسي نتيجة الهزائم التي منيت بها روسيا في حربها ضد اليابان، وازدياد كراهية الروس للسياسات الاستبدادية التي انتهجها القيصر وبخاصة مصادرة حقوق الشعب ورغبته في اقامة الحكم الدستوري، فضلاً عن تفاقم المشاكل الاقتصادية وفي مقدمتها المشكلة الزراعية ذات الصلة بالعلاقة ما بين الفلاحين والنبلاء . وكان للمنظمات والاحزاب الثورية الدور الأساس في التحريض على الثورة، اذ استغلت احزاب (المناشفة والحرس الاحمر والعمال الاشتراكي الديمقراطي) اضراب العاملين في مصنع (بوتيلوف) بمدينة بتروغراد في الثالث من كانون الثاني ١٩٠٥ وقامت بتحريض العمال في بقية المدن الروسية ومنها بطرسبورغ حيث اضرب نحو (٤٤٠) الف عامل، وفي الوقت ذاته تم تنظيم تظاهرة سلمية كبرى شارك فيها عشرات الالاف اتجهت في مسارها نحو القصر الامبراطوري، الا ان الاوامر التي تلقاها قادة الحرس القيصري من نيقولا الثاني تضمنت قمع التظاهرة باستخدام الرصاص الحي " **دون رحمة** " فحدثت مجزرة رهيبة عرفت بـ " **مجزرة الاحد الدامي** " التي راح ضحيتها نحو (٤) الاف متظاهر.

٥- تجدد الاضرابات والاعتصامات بتحريض من المنظمات البلشفية المسلحة في مدن (فوز نيسيستك، ريغا، باكو، وارشو، اوديسا)، فحدثت اشتباكات دامية اسفرت عن سقوط مئات القتلى وذلك في المدة الواقعة بين ايار- تموز ١٩٠٥.

٦- اضراب العاملين في سكك حديد موسكو –كازان مطلع تشرين الاول ١٩٠٥ والذي امتد إلى بطرسبورغ ثم تحول إلى اضراب سياسي عام في جميع انحاء روسيا وما وراء القفقاس واوكرانيا وبيلاروسيا والبلطيق، وقد رافق ذلك اعمال عنف دامية واشتباكات مسلحة مع اجهزة السلطة القيصرية.

٧- الاضراب العام الذي شهدته موسكو في السابع من كانون الاول ١٩٠٥ حيث اسفر عن مواجهات دامية مع قوات القيصر لاسيما في حي (بريسنيا).

٨- الانتفاضة الفلاحية ضد أصحاب الأملاك العقارية في نيسان ١٩٠٦.

٩- انتفاضة الحاميات العسكرية في مدن (تركستان، سفيابورغ، كرونشتادت)التي حدثت في المدة (حزيران –تموز ١٩٠٦).

ورغم الاساليب القمعية التي لجأت اليها السلطات الروسية في التصدي لمطالب الجمعيات والمنظمات والاحزاب الثورية التي مثلت مختلف شرائح المجتمع الروسي من فلاحين وعمال وبرجوازيين صغار، الا ان الاضرابات والاعتصامات أخذت تتوالى واصبحت تشكل خطرا حقيقيا يهدد النظام القيصري مما دفع بـ نيقولا الثاني إلى الاستعانة بأحد الجنرالات المقربين منه ويدعى (ديمتري تريبوف) فاسند اليه منصب وزير الداخلية ومنحه صلاحيات واسعة كانت تهدف إلى ملاحقة الجماعات المعارضة والتصدي للاعتصامات والتظاهرات . غير ان الاجراءات والتحوطات التي اتبعها الاخير لم تحُل دون استمرار اعمال العنف في البلاد اذ اقدم العمال المعتصمون في باكو على حرق مخازن الزيوت واضرموا النار في أملاك النبلاء الواقعة على ضفاف نهر الفولغا، واعلن الجنود والبحارة في سيبستابول وكرولستاد وكيرش تمردهم ضد السلطة، فيما شكل العاملون في المراكز الصناعية مجالس استشارية اطلقوا عليها تسمية " سوفيات " بزعامة الاشتراكي الثوري (نوزار) الذي عرف فيما بعد باسم (خروستاليف) . وذكرت بعض الدراسات ان تشكيل السوفيات اعتبر نقطة تحول في تاريخ روسيا الحديث حيث دعت إلى الاضراب العام في الثامن من تشرين الاول ١٩٠٥، فاستجاب نحو مليون شخص من مختلف فئات

المجتمع الروسي لهذه الدعوة وتوقف العمل بقطاع السكك الحديد ودوائر البريد والبرق وشُلت الحركة التجارية في الموانئ والمدن بما فيها بطرسبورغ[٣٨٨].

وازاء هذه التطورات الخطيرة التي عصفت بالبلاد اقترح تريبوف على القيصر خطة ضمّنها خيارين (الاول) اعلان الأحكام العرفية في جميع الاقاليم الروسية وهو ما سيترتب عليه نتائج كارثية وحتمية سفك الدماء، و(الثاني) الشروع الفوري بالإصلاح السياسي واطلاق الحريات العامة وفي مقدمتها الصحافة والمعتقد والعفو العام عن المتهمين السياسيين وتأسيس مجلس نيابي (دوما) ينتخب اعضاؤه من قبل الشعب ليتولى سن التشريعات والقوانين . وبعد تردد ابدا نيقولا الثاني موافقته على الخيار الثاني مرغما خشية رد فعل عنيف بسبب الهزيمة العسكرية امام اليابان، اذ اعلن في بيان وجهه للشعب الروسي بتاريخ الثلاثين من تشرين ١٩٠٥ " **انشاء مجلس الدوما يمثل الخطوة الاولى في سبيل اعلان الدستور الكامل، وتمتع روسيا بالحياة النيابية والحريات السياسية** " . وقد انبثق هذا المجلس وعقد اجتماعه الاول في السابع والعشرين من نيسان ١٩٠٦ ولكنه لم يستمر طويلا اذ تم حله بعد (٧٢) يوما من تولي (ستولبين) رئاسة الوزراء خلفا للسياسي المخضرم (لوجينوفتش) وذلك بعدما رفض اعضاء المجلس الانصياع لارادة رئيس الوزراء الجديد في حصر صلاحيات السلطة التشريعية بمسائل ثانوية غير اساسية لا تتناسب وطبيعة المسؤولية الملقاة على عاتقهم . وتجدر الإشارة هنا إلى ان ستولبين عرف بميوله المحافظة وتأييده للحكم الاستبدادي المطلق اذ سلك منهجا متشدداً في تعاطيه مع الحركات الثورية والاشتراكية وتسبب في اعدام نحو (٣٥٠٠) سياسي ومعارض، كما اجرى تعديلا جوهرياً في قانون الانتخابات بما يكفل لحكومته الفوز في الانتخابات القادمة. وبالفعل نجح ستولبين في المجيء بمجلس " **صوري**" جديد كان اغلبية نوابه إلى جانب السلطة، وذلك في الانتخابات التي جرت بتاريخ الخامس عشر من تشرين الثاني ١٩٠٧ بعد ان تم استبعاد العناصر الثورية والحيلولة دون وصولها لسلطة التشريع . ويبدو ان نيقولا الثاني ورئيس وزرائه ستولبين لم يكونا على قناعة بوجود "**برلمان الدوما**" وان كان يسير في فلك النظام

القيصري ويؤيده حيث اقدما على حله مرة اخرى في غضون بضعة شهور، ولم يُعقد بعدها الا في عام ١٩١٢ – وهي الجلسة الاخيرة – نتيجة الضغوط التي مارستها الحركات الثورية والعمالية التي تزعمها لينين [٣٨٩].

أما على صعيد العلاقات الخارجية فقد شهد عهد القيصر نيقولا الثاني في العقد الاول من القرن العشرين احداثا غاية في الأهمية مهدت اخيراً لزج روسيا في اتون حرب شاملة ضد أعدائها عام ١٩١٤ وتمثلت بـ:

اولاً- الحرب الروسية – اليابانية (١٩٠٤-١٩٠٥):

اندلعت هذه الحرب في السابع عشر من كانون الثاني ١٩٠٤ بسبب التنافس الروسي – الياباني الذي كان يهدف إلى فرض السيطرة على كوريا ومنشوريا، وقد انتهت بانتصار اليابان بعد ان تمكن الاسطول الياباني من الحاق الهزيمة القاسية بالأسطول الروسي في خليج بورت آرثر مطلع آذار ١٩٠٥، وبفعل جهود الوساطة التي قام بها الرئيس الامريكي روزفلت تم عقد الصلح والتوقيع على معاهدة بورتسموث في الخامس من ايلول ١٩٠٥ وفقا للبنود الآتية [٣٩٠]:

١- اعتراف روسيا بخسارتها أمام اليابان.

٢- تنازل روسيا عن خليج بورت آرثر إلى اليابان.

٣- اعادة اقليم منشوريا إلى الصين.

٤- حصول اليابان على النصف الجنوبي من جزيرة سخالين.

٥- تخلي روسيا عن جزيرة لياوتونغ لصالح اليابان.

٦- حصول اليابان على امتياز مد سكة حديد جنوب منشوريا.

وقد ترتب على هزيمة روسيا امام اليابان نتائج خطيرة القت بضلالها السلبية على الداخل الروسي اذ ازدادت الاصوات المعارضة للنظام القيصري الاوتوقراطي، فيما حمّلت الأحزاب والقوى الثورية القيصر نيقولا الثاني وحكومته مسؤولية الكارثة العسكرية التي حلت

بالجيش " وسمعة **روسيا الدولية** "، الأمر الذي أدى إلى تأزم الأوضاع الداخلية وقيام ثورة عام ١٩٠٥ كما ذكرنا آنفاً [٣٩١].

ثانياً- الوفاق الروسي – البريطاني ١٩٠٧:

كان نيقولا الثاني يدرك تماما ان بريطانيا والنمسا – المجر والمانيا هي القوى التي تحول دون تحقيق مشاريع بلاده التوسعية " **خاصة وان ميادين التوسع كانت محددة في اراضي الدولة العثمانية أو البلقان أو ايران، ومن جهة التوسع في العراق والاناضول كانت بريطانيا تعارض هذا التوسع خوفا من وصول روسيا إلى المياه الدافئة فضلاً عما يسببه وقوع المضائق في يدها، وكان الانكليز يتهمون الروس بالتخطيط للوصول إلى الخليج العربي مفتاح الطريق إلى الهند . اما فيما يتعلق بالبلقان فقد كانت النمسا – المجر تعارض كل تحرك هناك بتحرك مضاد، ونظرا لعدم قدرة أي من روسيا والنمسا على التحكم في نتائج البلقان اتفقتا على ابقاء الوضع الراهن هناك، ثم ان أي نشاط روسي في البلقان كان يثير الازمات الدولية التي كانت تنتهي ضد مصلحة روسيا** " . أما بالنسبة لألمانيا فان ازدياد نفوذها في الدولة العثمانية ادى إ[illegible] إمكانية قيام روسيا بالاستيلاء على ممتلكات العثمانيين، لذا لم يعد امام الر[illegible] للتوسع الا ايران . وكان يتوجب على روسيا اذا ما وجهت انظارها إلى ايران ا[illegible] صيغة للتفاهم اما مع دول التحالف الثلاثي أو بريطانيا، وبما ان التفاهم مـ[illegible] ـان يتقاطع تماما مع اهداف الوفاق الروسي – الفرنسي الذي تعزز بالتوقيع على الاتفاقية العسكرية عام ١٨٩٤ فان امكانية قيام وفاق " **روسي – بريطاني** " إصبح اكثر واقعية . والواقع انه بعد الهزيمة الي منيت بها روسيا امام اليابان عام ١٩٠٥ لم يعد باستطاعة الروس القيام باي عمل عسكري ضد اية دول كبرى، وبدا واضحاً ان المانيا اصبحت تمثل عدوا مشتركا لكل من روسيا وبريطانيا ، وان الفرصة اضحت سانحة لأن تلجأ روسيا إلى تفاهمات لحل مشاكلها الاستعمارية مع بريطانيا بعكس خلافاتها مع كل من المانيا

والنمسا- المجر. ومما يجدر ذكره ان جهود الوساطة التي قامت بها فرنسا ساهمت في تقريب وجهات النظر الروسية – البريطانية وتكللت تلك الجهود بالتوقيع على ما يعرف بـ " **الوفاق الانكليزي – الروسي** " في الثلاثين من آب ١٩٠٧ الذي تضمن تقسيم ايران إلى ثلاثة اقسام " **وضع القسم الشمالي تحت تصرف روسيا، ووضع القسم الجنوبي تحت تصرف بريطانيا، وترك القسم الاوسط للشاه القاجاري مع التأكيد على دعم استقلال البلاد ودعم حكم الشاه** " ، فضلاً عن تفاهمات اخرى تتعلق بالتبت وافغانستان ومنطقة المضائق والخليج [٣٩٢].

ثالثاً- الأزمة البوسنية ١٩٠٨:

اثر قيام الثورة في روسيا عام ١٩٠٥ شرعت القوى الليبرالية المناهضة لحكم ال هبسبورغ بالدعوة إلى التظاهر والمطالبة بإدخال اصلاحات دستورية تتضمن اعادة النظر في قانون الانتخابات، وازاء ذلك اضطرت الحكومة النمساوية عام ١٩٠٦ إلى تشريع قانون الانتخاب العام والمباشر للذكور في عموم الإمبراطورية، لكن ورغم اجراء الانتخابات في مايس ١٩٠٧ الا ان مطالب تلك القوى ازدادت لتطال مجالات اخرى كانت بحاجة للإصلاح، الامر الذي دفع بالحكومة لانتهاج سياسة تهدف إلى صرف انظار النمساويين من مشاكلهم الداخلية إلى قضايا خارجية، فضلاً عن تعزيز موقع النمسا – المجر في القسم الغربي من البلقان والذي سيقود إلى تعزيز مكانتها الدولية . والواقع ان النمسا – المجر قررت انتهاج سياسة متشددة تجاه صربيا التي كانت قد كثفت من نشاطاتها ودعايتها في البوسنة والهرسك، وتجلى هدف السياسة النمساوية في القضاء على صربيا باقتسامها مع بلغاريا، وتكون الخطوة الاولى بضم ولايتي البوسنة والهرسك التي لا زالت تحتلهما منذ عام ١٨٧٨ [٣٩٣] . ولما كانت عملية الضم تتعارض مع الفقرة (٢٥) من معاهدة برلين لعام ١٨٧٨ ومن أجل احداث تغيير في تقرير مصير هاتين الولايتين كان على النمسا – المجر الحصول على موافقة الدول الموقعة على المعاهدة، لذا اقترحت على روسيا التنازل عن سنجق (نوفي بازار) مقابل اعتراف الاخيرة بضم الولايتين إلى السيادة النمساوية . وفي

بادئ الامر رفضت روسيا هذا الاقتراح لأنها كانت تسعى لإدخال تغيير في احكام المضائق، ثم شرعت الدولتان في مفاوضات سرية حيث توصل وزير الخارجية النمساوي (ايهرنثال) ووزير الخارجية الروسي (ازفولسكي) في ايلول ١٩٠٨ إلى اتفاق " **بوشلاو** " المتضمن موافقة روسيا ليس فقط على ضم النمسا – المجر للولايتين المذكورتين وانما سنجق نوفي بازار ايضاً، مقابل موافقة الاخيرة على تأييد مساعي الروس في تغيير القواعد التي تتحكم في وضع المضائق العثمانية وفقا لما تقتضيه مصلحة روسيا " **بمنح السفن الحربية الروسية حرية المرور عبر مضيقي البسفور والدردنيل** "، وفي السادس من تشرين الاول ١٩٠٨ اعلنت النمسا – المجر رسمياً ضمها للبوسنة والهرسك منتهكة بذلك بنود معاهدة برلين [٣٩٤].

رابعاً- التحالف البلقاني ١٩١٢:

عقب قيام النمسا – المجر بضم البوسنة والهرسك أدرك القيصر نيقولا الثاني ورئيس وزرائه بيتر ستولبين بان افضل طريقة للدفاع عن المصالح السلافية ضد المطامع النمساوية هي تكوين عصبة بلقانية تضم الدول البلقانية اضافة إلى الدولة العثمانية تحت اشراف روسيا، ولكن لم يكتب النجاح لهذا المشروع بسبب الخلافات القائمة بين دول البلقان ذاتها والناجمة عن التقاطع في المصالح والطموحات المتضاربة، وان ما كان يشغل هذه الدول هو تقسيم الممتلكات العثمانية في اوربا بدلاً من التحالف مع الدولة العثمانية [٣٩٥]. والواقع ان تسوية مشكلة البوسنة والهرسك وضعت روسيا امام خيارين بخصوص مستقبل سياستها في البلقان: (الاول) اما التوصل إلى اتفاق مع النمسا – المجر من اجل الحفاظ على الوضع القائم والتكيف مع المتغيرات التي افرزتها تلك المشكلة، و(الثاني) أو السعي لإثارة الشعوب البلقانية ضد عدوتها القديمة النمسا – المجر، ويبدو ان الحكومة الروسية رجحت العمل بالخيار الثاني لإعادة التوازن في المنطقة وتعزيز مكانة روسيا عن طريق تحريض سلاف البلقان ضد النمسا – المجر وكذلك توثيق العلاقات مع الدولة العثمانية والعمل على ايجاد تحالف بلقاني [٣٩٦].

اتخذ نيقولا الثاني الخطوة الاولى في هذا الاتجاه بتعيينه لـ (نيقولا هارتويك) سفيراً لروسيا في بلغراد " **وكان هذا من المتحمسين لفكرة الجامعة السلافية حيث بذل جهوداً كبيرة بهدف تحقيق اعلى حالة من التضامن الممكن بين روسيا وصربيا وصولاً للاتفاق على اجراء فعال في الصراع الذي يراه لا مفر منه مع النمسا – المجر** " وحسب قول سفير بلجيكا في بلغراد بتاريخ الرابع عشر من ايلول ١٩٠٩ بان هارتويك " **أصبح المستشار الدائم للحكومة الصربية التي أضحت لا تتخذ أي اجراء أو قرار مهما كانت اهميته من دون الاخذ برأي ممثل القيصر في بلغراد** " [٣٩٧] . كما قام نيقولا الثاني بتعيين (نيكليدوف) وهو من الساسة المؤيدين لفكرة التحالف البلقاني سفيراً في العاصمة البلغارية صوفيا والذي سعى جاهداً إلى تعزيز علاقة بلاده مع بلغاريا حيث اثمرت جهوده في اواخر نيسان ١٩١٢ بالتوصل إلى مسودة اتفاق أكدت مادته الخامسة " **ان تحقيق الاهداف السامية التي تسعى اليها الشعوب في شبه الجزيرة البلقانية ... لا يمكن ان يتم الا بالانتصار في حرب تندلع بين روسيا وبين المانيا والنمسا– المجر ، وان بلغاريا تتعهد رسميا في هذه الحالة أو في حالة انضمام رومانيا أو الدولة العثمانية إلى الحلف [الالماني – النمساوي] ببذل قصارى الجهود لمنع كل ما يمكن ان يوسع دائرة الانقسام**"[٣٩٨].

قدمت روسيا المشورة لصربيا بضرورة التوصل إلى تفاهم مع بلغاريا وتوسيع هذا التفاهم ليشمل جميع دول البلقان، وبالفعل بدأت صربيا في نيسان ١٩٠٩ اتصالاتها مع بلغاريا بهدف التوصل إلى وفاق بين الدولتين، ولكن هذه الاتصالات لم تثمر عنها نتيجة ايجابية بسبب" **المسألة المقدونية** " ولم تتمكن الدولتان من ايجاد تسوية لهذه المشكلة .

كما باءت محاولة صربيا طلب مساعدة بريطانيا في اقناع بلغاريا بضرورة التوصل إلى " **معاهدة حلف صربية – بلغارية** " بالفشل لأن وزير الخارجية البريطانية السير (ادوارد كري) رفض التورط بمثل هذا العمل وحذر من مغبة التوصل إلى أي تحالف عدائي موجه

ضد النمسا – المجر [٣٩٩] . يضاف إلى ذلك فان الصراع الأُسري القديم بين صربيا والجبل الاسود قد استعر من جديد بعدما حاول متآمرون صرب اغتيال ملك الجبل الاسود (بتروفتش) في ربيع عام ١٩١٠، فضلاً عن انتهاء المفاوضات بين بلغاريا واليونان بالفشل بسبب مقدونيا ايضاً. وفي الوقت ذاته لم تجد روسيا من لدن بريطانيا وفرنسا ذلك الدعم لسياستها الرامية إلى ايجاد عصبة بلقانية كما هو الحال بعد انتهاء مشكلة البوسنة والهرسك، لأسباب كانت تهدف إلى الحفاظ على الوضع القائم وعدم التدخل في شؤون البلقان[٤٠٠].

ساد الاعتقاد لدى دول البلقان ان انهيار الدولة العثمانية في حربها ضد ايطاليا قد أصبح وشكيا، لذا تغاضت عن خلافاتها " مؤقتاً " فانضمت الجبل الاسود إلى صربيا وبلغاريا واليونان ثم شرعت هذه الدول بعقد معاهدات ثنائية من دون علم روسيا . ومما يجدر ذكره ان الحكومة الروسية كانت على علم بالمعاهدة التي عقدت بين بلغاريا وصربيا في الثالث عشر من اذار ١٩١٢، اذ اعتقد انصار الجامعة السلافية " **بان روسيا بدأت تقترب من الوصول إلى اهدافها التاريخية في تحقيق امال الشعوب السلافية من جهة، وتثبيت اقدامها على شواطئ البسفور مدخل البحرية الروسية من جهة اخرى** " . غير ان الروس سرعان ما شعروا بالإحباط حينما شرعت حكومات الدول البلقانية بالاتصالات فيما بينها دون الاخذ بالمشورة الروسية، " **واتضح لهم بان صورة العصبة التي تسعى اليها هذه الحكومات تقوم على اسس واهداف ذاتية وليس طبقا لمصالح روسيا** ". وقد ادركت الحكومة الروسية هذه الحقيقة في التاسع عشر من تموز ١٩١٢ حينما استفسرت صوفيا "**فيما اذا كانت بطرسبورغ ستبدي اعتراضها على قيام بلغاريا بمهاجمة الدولة العثمانية في هذا الوقت** " وكان الرد الروسي على صيغة نصيحة ودية " **بالتخلي عن هذه الفكرة**" [٤٠١] . وهكذا فان صيغة العصبة التي كانت تنشدها بطرسبورغ يراد بها استخدام الدول البلقانية وكذلك الدولة العثمانية كعائق امام التوسع

النمساوي – الالماني في منطقة البلقان، وان يفتح لها الطريق للوصول إلى منطقة المضائق .

وحينما تم التوصل إلى معاهدة الحلف البلغاري – الصربي كان ذلك بإشراف روسيا الا ان المعاهدات والاحلاف والاتفاقيات الأخرى التي وقعتها الدول البلقانية فيما بينها تمت دون علمها وكانت جميعها موجهة بالدرجة الاولى ضد الدولة العثمانية وليس ضد النمسا – المجر بخلاف ما كانت تخطط له . وهكذا ادرك الروس قصر النظر في سياستهم تلك فعادوا إلى مراجعة حساباتهم من جديد، بل حاولوا اقناع المسؤولين الصرب والبلغار بتحفظات الحكومة الروسية ومخاوفها من اندحار دول البلقان في حال الاشتباك بحرب ضد الدولة العثمانية، الأمر الذي سيفضي إلى دخول روسيا في حرب لم تكن مستعدة لها آنذاك(٤٠٢).

ورغم المساعي الحثيثة التي بذلتها الدول الاوربية للحيلولة دون اندلاع الحرب الا ان قادة الدول البلقانية كانوا عقدوا العزم على خوضها، فتجاهلوا تحذيرات ساسة اوربا الامر الذي اضطر السلطان العثماني محمد رشاد إلى اعلان الحرب رسمياً في الثامن عشر من تشرين الثاني ١٩١٢ (٤٠٣). ولسنا هنا في صدد تناول الحرب وتفاصيلها ولكن ينبغي الاشارة إلى ان انصار الجامعة السلافية اعربوا عن ابتهاجهم بالنتائج التي حققتها جيوش التحالف البلقاني في الاسابيع الاولى من بدء العمليات العسكرية، وما ان وصلت تلك الجيوش وفي مقدمتها القوات البلغارية إلى (كيرك كيلسيا) و(لولي بورغاز) ثم اندفعت باتجاه العاصمة العثمانية حتى راود الساسة الروس شعور بالقلق العميق، فقيام بلغاريا باحتلال اسطنبول يعني القضاء على خطط روسيا وآمالها التاريخية هناك، لذا أعلنت الحكومة الروسية عن جاهزيتها للقيام بإجراء عسكري في مدة لا تتجاوز (٢٤) ساعة للحيلولة دون حدوث ذلك . وفي الوقت ذاته حث اولئك الساسة حكومات البلقان على وقف القتال مقابل وعد روسي بمساندة مطالب هذه الحكومات حال بدء التفاوض مع الحكومة العثمانية(٤٠٤).

اتخذت وزارة الحرب الروسية بعض الاجراءات التي تظهر استعدادات روسيا لأية مواجهة عسكرية منها تعبئة القوات في الاراضي البولندية العائدة لروسيا وتأجيل تسريح نحو

(٤٠٠) الف مجند ممن اوشكوا على انهاء الخدمة العسكرية، وفي الثاني والعشرين من تشرين الثاني ١٩١٢ قرر وزير الحرب (سوخو ميلينوف) تعبئة القوات الروسية المتواجدة في وارسو وكييف واوديسا الامر الذي يعني ان وزارة الحرب كانت ماضية في اعلان " **التعبئة الجزئية** "، الا ان القيصر نيقولا الثاني لم يوافقه الرأي ودعا في اليوم التالي إلى اجتماع حضره رئيس الاركان العامة الجنرال (زيلنسكي) ووزير المالية (كوكوفتزوف) ووزير الموصلات (روخوف) ووزير الخارجية (سازانوف) اضافة إلى وزير الحرب (ميلينوف)، فأوضح لهم عدم قناعته بالخطة التي اعدها ميلنيوف وانه اوقف الاخير وحال دول ارسال الاوامر بالتعبئة الجزئية كونها موجهة ضد النمسا – المجر فقط. وكان وزير المالية من اشد المعارضين لإعلان التعبئة الجزئية " **لأنها تعني الحرب وستجلب الكارثة في حال اعلانها** " . أما سازانوف فقد حذر من "**كارثة محتملة** " مؤكداً ان ليس من حق روسيا اعلان التعبئة الجزئية الاّ بعد استشارة فرنسا(٤٠٥).

خامساً- الحرب العالمية الاولى ١٩١٤:

بعد ان وضعت الحروب البلقانية اوزارها بتوصل الاطراف المتحاربة إلى معاهدة بوخارست في السابع من آب ١٩١٣ اعتقد ساسة اوربا بان هذه المعاهدة "**جاءت لتمثل خيبة امل قاتلة لجميع الذين توقعوا مستقبلاً سعيداً في منطقة البلقان**"، ذلك ان الدول الاوربية كانت تنظر إلى المعاهدة على انها كسب للوقت، فمنذ اليوم الاول لتوقيعها شرعت هذه الدول باستعداداتها " **لحرب قادمة لا مفر منها بسبب انهيار المحفل الاوربي وتعزيز فكرة التكتلات الدولية** " ، كما تطابقت التوقعات باستحالة ثبات السلم في اوربا طالما بقيت هذه المعاهدة قائمة(٤٠٦) . وقدر تعلق الامر بمواقف السياسيين الروس فان وزير الخارجية سازانوف قد شخّص في تقرير مسهب قدمه للقيصر نيقولا الثاني بتاريخ الثاني من كانون الاول ١٩١٣ خطورة التحديات التي ستواجهها روسيا في مرحلة ما بعد حرب البلقان، وان عليها ان تقرر الموقف الذي ينبغي ان تتخذه في ظل التوقعات الخاصة " **بالانهيار الوشيك للدولة العثمانية وتقسيم ممتلكاتها بين الدول الاوربية**

العظمى "، وجاء في التقرير : " **ليس في مصلحتنا المباشرة ان نسعى لتوسيع ممتلكاتنا بحال من الاحوال، فان مقتضيات تطورنا الداخلي من شانها ان تجعل الاحتفاظ بالسلام اكبر شان في نظرنا . على اننا وان كنا لا نستطيع التخلي عن هذه المهمة الرئيسية الا انه ليس يسعنا ان نتجاهل ما في الموقف الدولي من الاخطار التي لا يتعين درؤها علينا وحدنا . وهذا ما يحملنا ويحمل الدول الاخرى على السواء على الا نغفل عن الاحتفاظ بحقوقنا ومصالحنا فيما لو اقتضت الظروف ان ندافع عنها بقوة السلاح ... فعدم التأكد من استقرار تركيا وبقاءها يفتح أمامنا باب المسألة التاريخية الخاصة بالبواغيز [المضائق] وقدر اهميتها بالنسبة لنا من الوجهتين السياسية والاقتصادية، فاذا طرأ تغيير على الحالة الراهنة فلن يسع روسيا ان تسمح بحل المسألة في غير مصلحتها، أو بعبارة اخرى لن يسعها مطلقا ان تقف في ظروف بعينها موقف المتفرج** " . وتساءل سازانوف "**هل يسعنا السماح بوقوع [المضائق] في ايدي دولة اخرى ؟ ان الجواب على ذلك هو النفي لأن وضع المضائق في ايدي دولة اخرى قوية معناه خضوع جنوب روسيا [اقتصاديا] لتلك الدولة ... ينبغي علينا ان ندرس ما يمكن ان نتخذه من الوسائل لمضاعفة قوتنا العسكرية والبحرية في البحر الاسود، وما ينبغي على وزارتي الحربية والبحرية عمله لتعجيل التعبئة بمد سكك حديدية جديدة وتطور وسائل النقل . وهل يمكن أو لا يمكن تقرير مهمة جيشنا واسطولنا في اقتحام [المضائق] والاستيلاء على الاستانة فيما لو اقتضت الظروف ذلك** " ، وقدم سازانوف مشورته للقيصر باتخاذ اجراءات عاجلة تصب في مسار تعبئة إمكانيات روسيا وجاهزيتها لمواجهة أي طارئ وحددها بما يأتي (٤٠٧):

أولاً– القيام " بتعبئة تجريبية " كممارسة لتشخيص ومعالجة مواضع الخلل.

ثانياً– تهيئة خطوط المواصلات التي تتطلبها مستلزمات التعبئة.

ثالثاً– تقوية الاسطول الحربي الروسي في البحر الاسود بما يضمن تفوقه على الاسطول العثماني ويعزز قدرته على التحرك السريع نحو منطقة المضائق واحتلالها مؤقتا أو بصفة دائمة اذا اقتضت الضرورة ذلك.

رابعاً– المباشرة بإنشاء سكك حديدية في القوقاز.

خامساً– زيادة عدد البوارج البحرية.

ونظراً لأهمية التقرير ترأس نيقولا الثاني اجتماعا لمجلس الوزراء في الثالث عشر من كانون الثاني ١٩١٤ ناقش فيه الآراء التي بادر إلى طرحها سازانوف، وقد اثنى الجميع على ما ورد في ذلك التقرير معتقدين " **ان هذه الطريقة وحدها هي الكفيلة بجعل صوت روسيا مسموعاً ما بين الدول الاوربية** ". وخلال ترأسه لاجتماع خاص حضره كبار قادة الجيش والبحرية في الحادي والعشرين من شباط ١٩١٤ اكد سازانوف مرة اخرى ان الموقف السياسي من وجهة نظره " **يساعد على احتلال المضائق بالقوة حتى ولو ادى الامر إلى الاصطدام بدول التحالف الثلاثي**"، لكن رئيس الاركان العامة الروسية الجنرال زيلنسكي ابدا رأيا بان محاولة الاستيلاء على إسطنبول هو اجراء " **يكاد ان لا يكون ممكنا دون حرب اوربية عامة** ". وفي هذه الحالة " **يحتاج الامر ان يُبعث إلى الجهة الغربية ضد المانيا بالجيوش التي يُراد ارسالها للاستيلاء على المضائق** ". كما اقترح سفير روسيا لدى الدولة العثمانية (دي جيرز) الذي حضر الاجتماع ايضاً بان يكون الجيش المراد ارساله إلى المضائق من القوقاز، ولكن وزير الحرب ورئيس الاركان عارضا هذا الاقتراح "**كونه غير عملي لأن الجنود يصلون من ذلك الميدان في حالة دخول تركيا الحرب ولأنه لا يمكن لأسباب فنية تعبئة هؤلاء الجنود بسرعة**"، واتفقا بالرأي " **على انه مع قيام أو توقع نشوب معركة في الجهة الغربية لا يمكن الاستغناء عن عدد كبير من الجنود لإرسالهم إلى المضائق، لأن الحرب في تلك الجهة تقتضي استخدام كافة قوى الدولة، ولذا لا يمكن التخلي عن فيلق واحد أو تركه للقيام بأعمال خاصة بل**

ينبغي توجيه كل القوة إلى الميدان الرئيسي " [٤٠٨]. ومما تقدم يتضح ان سازانوف كان يفكر بطريقة تستند إلى استخدام القوة للاستيلاء على المضائق، الا ان قادة الجيش وخبراء الحرب عدّوا ذلك " **اجراء غير عملي** "، وحسب رايهم ينبغي عدم تشتيت القوات العسكرية في جبهات اخرى والتركيز على استخدامها ضد المانيا والنمسا — المجر [٤٠٩].

وأوضحت احدى الدراسات ان العلاقات الروسية — النمساوية انتابها التوتر في نيسان ١٩١٤ وذلك بسبب مساعي روسيا الرامية إلى تكوين كتلة بلقانية جديدة تضم صربيا ورومانيا واليونان تحسبا لاندلاع حرب اوربية شاملة اصبحت ملامحها تلوح في الافق، الامر الذي دفع بالنمسا — المجر إلى التحرك لإيجاد كتلة مضادة تضم بلغاريا والدولة العثمانية بعدما اتضح لها ان روسيا ماضية في تعبئة الشعوب البلقانية ضمن اطار الدعاية للمشروع السلافي. كما اشارت الدراسة أيضاً إلى " **ان من بين ابرز الاسباب التي دفعت روسيا لخوض غمار الحرب العظمى عام ١٩١٤ هو رغبة الجناح السلافي المتشدد في احياء مشروع الجامعة السلافية وترسيخ الهيمنة الروسية في البلقان** " [٤١٠]، وخلاصة القول ان التعقيدات الناشئة عن هزيمة روسيا امام اليابان وازدياد النفوذ الالماني في الدولة العثمانية، فضلاً عن تقاطع وتباين المصالح الروسية — النمساوية في شبه الجزيرة البلقانية كانت في مقدمة الاسباب التي حفزت الروس على دخول الحرب العالمية الأولى [٤١١].

التقى نيقولا الثاني في الثاني من آب ١٩١٤ بالوزراء واعضاء مجلس الاعيان والدوما وكبار رجال الدولة من مدنيين وعسكريين والقى خطابا جاء فيه: "**ان المانيا شهرت الحرب ضد روسيا ... علينا ان نساعد شعبا كبيراً منحدراً من سلالتنا وقد افتروا عليه ظلما وعدوانا، كما علينا ان ندافع عن شرف روسيا وكرامتها كدولة عظمى، ويجدر بنا ... ان نتناسى نزاعاتنا الداخلية وان ينضوي الجميع تحت لواء الوطن المقدس ويلتفوا حوله، ويحكموا روابط الاتحاد بين القيصر وشعبه** " ثم

خاطب القادة العسكريين بقوله: " **احيي من خلالكم جيوشي كلها واقسم يمينا صادقا انني لا اغمد السيف ما دام في البلاد الروسية عدو واحد**" . وفي الليلة ذاتها اعلنت الاحكام العرفية في جميع انحاء روسيا، واصدر القيصر مرسوماً بتعيين عمه (الغرندوق نيقولا) قائداً عاماً للجيوش الروسية ثم ابتدأت المعارك في الجبهتين الالمانية والنمساوية[٤١٢].

تأثرت الاوضاع الداخلية في روسيا تأثراً كبيراً جرّاء الحرب، وفي المدة الواقعة بين (اب ١٩١٤- شباط ١٩١٧) ساءت الاحوال العامة فيها بصورة غير مسبوقة لأسباب منها:

أولاً- الهزائم المتكررة التي منيت بها القوات الروسية في جبهات القتال ضد المانيا اذ خسر الروس مناطق مهمة في البلطيق وروسيا البيضاء، كما اصبحت مدينة بتروغراد على مرمى نيران الجيش الالماني، فيما قدرت الخسائر البشرية بنحو (٥) مليون قتيل وجريح.

ثانياً- الأزمة الاقتصادية الخانقة التي عمت البلاد وصعوبة تامين متطلبات الحياة اليومية نتيجة انخفاض المستوى المعاشي وارتفاع الاسعار.

ثالثاً- ازدياد مظاهر الفساد في البلاط وأجهزة الادارة.

وفي ظل تلك الظروف العصيبة نشط في الساحة السياسية الروسية عدد من الاحزاب التي تبنت برامج ورؤى غايتها انقاذ البلاد من الازمات القائمة آنذاك، فـ(الاكتوبريون) دعوا إلى " **حكومة برلمانية** " قوية على النمط الروسي، بينما أكد الديمقراطيون الدستوريون (الكادت) على اهمية قيام " **حكومة ديمقراطية** " ولكن على النمط الانكليزي . اما الحزبان " **الديمقراطي الاشتراكي** " و " **الثوريين الاشتراكيين** " فدعا إلى مفاهيم جديدة لم يألفها المجتمع الروسي وقتذاك، وذلك بالترويج لأفكار مناهضة للحكم الأوتوقراطي والرأسمالي ورفض تسلط الطبقة الأرستقراطية على رقاب المواطنين والتحكم بمقدرات روسيا[٤١٣].

ونتيجة لما آلت اليه الاوضاع في البلاد من كوارث عسكرية واقتصادية وإنسانية شهدت بطرسبورغ في الثالث والعشرين من شباط ١٩١٧ تظاهرة نسوية كبرى نظمتها ناشطات بمناسبة اليوم العالمي للمرأة العاملة، رفعت فيها شعارات طالبت الحكومة بسن تشريعات جديدة عاجلة تكفل حقوق ابناء الطبقة العاملة، وقد انضم إلى هذه التظاهرة نحو (١٢٠) الف عامل ممن قرروا الاضراب عن العمل في ذلك اليوم مما أثار قلق القيصر الذي اوعز لأجهزته الأمنية بالتصدي للمتظاهرين وخول قادة هذه الاجهزة صلاحية استخدام القوة، وفي الخامس والعشرين منه اعلن اصحاب الشركات والمحال التجارية فضلاً عن المعلمين والطلبة والاطباء اضرابا عاما مفتوحا وانظموا إلى جموع المتظاهرين . وازاء استمرار التظاهرات طالب عدد من أعضاء مجلس الدوما الحكومة باتخاذ إجراءات عاجلة لاحتواء خطورة الموقف، فيما وجد آخرون ان الحل صار يكمن في تنازل القيصر عن العرش لتفادي سفك المزيد من الدماء [٤١٤].

وبسبب الخشية من فقدان السيطرة على زمام الأمور وللحيلولة دون امتداد الفوضى إلى خارج العاصمة والقضاء على اعمال العنف ارتأى نيقولا الثاني اعلان " **الحكم العرفي العسكري المؤقت** "، الاّ ان قادة المؤسسة العسكرية رفضوا وبشدة هكذا اجراء كونه سيؤدي إلى مزيد من ردود الافعال المضادة خاصة وان الجيش الروسي كان قد مُني حينها بهزيمة قاسية امام الالمان في جبهة (تانينبرغ) [٤١٥] . ومع استمرار التظاهرات التي امتدت إلى بقية المدن الروسية لم يجد القادة العسكريون وكبار الساسة من سبيل لإنقاذ البلاد سوى اللجوء إلى ممارسة الضغوط على القيصر لإقناعه بالتنازل عن العرش، ففي الحادي عشر من آذار ١٩١٧ تحولت التظاهرات في بطرسبورغ عن مسارها السلمي حيث اقدم المتظاهرون الغاضبون على اقتحام مباني المؤسسات الحكومية وسيطروا على جميع محطات سكك الحديد، حينها أدرك نيقولا الثاني " **ان الوضع العام اصبح بحكم خارج السيطرة** " لذا قرر في اليوم التالي مناقشة هذا التطور الخطير في مسار الاحداث مع كبار القادة وهم "**الغرندوق نيقولا يوفتش قائد جبهة القفقاس، الجنرال**

سكاروف قائد الجبهة الرومانية، الجنرال بروسيلوف قائد الجبهة الجنوبية الغربية، الجنرال ايفرت قائد الجبهة الغربية، الأدميرال نيبينين قائد اسطول البلطيق، الجنرالان روسكي واليكسييف من رئاسة الاركان العامة " [٤١٦] . وقد تحدث هؤلاء القادة مع القيصر بصراحة تامة عن الاسباب الحقيقية الكامنة وراء تأزم الوضع في البلاد فأكدوا له **"ان حالة التذمر لدى الرأي العام الروسي بمختلف فئاته قد بلغت ذروتها جّراء الهزائم العسكرية المتتالية في ميادين الحرب، كما ان تغاضي الحكومة عن اجراء الإصلاحات عمق الفجوة بينها وبين الشعب الامر الذي لا يمكن تداركه الا بتقبل القيصر لهذه الحقيقة المرة وان يبادر طواعية إلى ترك السلطة "** [٤١٧]. اخيراً وإزاء الضغوط التي مارسها اولئك القادة اضطر نيقولا الثاني في الثالث عشر من آذار ١٩١٧ إلى التنازل عن العرش لصالح اخيه (ميخائيل) وذلك نظراً لعدم اهلية ابنه (اليكسي) الذي كان يعاني من مرض عضال حيث جاء في البيان الذي وجهه إلى الشعب الروسي : **" بنعمة الله، نحن نيقولا الثاني امبراطور روسيا ... نعلن إلى كل رعايانا المخلصين ما يأتي: بينما كنا نحارب العدو الخارجي الذي جهد نفسه ثلاث سنوات ليغزو وطننا ويضمه إلى سيطرته، اذ شاء الله ان يرسل إلى روسيا تجربة جديدة هائلة تمثلت في الاضطرابات والفتن الداخلية التي لا شك في انها تؤثر تأثيراً سيئاً في مجرى الحرب . ان مصير الأمة الروسية وشرف جيشنا الشجاع وسعادة شعبنا ومستقبل وطننا الحبيب تقتضي ان تنتهي الحرب بالظفر، ان عدونا القاسي الشرس يبذل آخر مجهوداته ، وهاهي الساعة التي سينتصر فيها جيشنا بالاشتراك مع حلفائنا وان النصر النهائي مضمون لنا . وفي هذه الأيام الحرجة التي تجتازها روسيا نعتقد ان الواجب يدعونا ان نسهل لشعبنا اتحادا متينا يستطيع معه ان يجهز كل قواه للوصول إلى النصر العاجل الذي ننشده . وبناء عليه وبالاتفاق مع مجلس الدوما الامبراطوري عزمنا عزما نهائيا على التنازل عن العرش والتخلي عن السلطة العليا . ولما كنا لا نريد**

سكاروف قائد الجبهة الرومانية، الجنرال بروسيلوف قائد الجبهة الجنوبية الغربية، الجنرال ايفرت قائد الجبهة الغربية، الأدميرال نيبينين قائد اسطول البلطيق، الجنرالان روسكي واليكسييف من رئاسة الاركان العامة " (٤١٦). وقد تحدث هؤلاء القادة مع القيصر بصراحة تامة عن الاسباب الحقيقية الكامنة وراء تأزم الوضع في البلاد فأكدوا له "ان حالة التذمر لدى الرأي العام الروسي بمختلف فئاته قد بلغت ذروتها جرّاء الهزائم العسكرية المتتالية في ميادين الحرب، كما ان تغاضي الحكومة عن اجراء الإصلاحات عمق الفجوة بينها وبين الشعب الامر الذي لا يمكن تداركه الا بتقبل القيصر لهذه الحقيقة المرة وان يبادر طواعية إلى ترك السلطة " (٤١٧). اخيراً وإزاء الضغوط التي مارسها اولئك القادة اضطر نيقولا الثاني في الثالث عشر من آذار ١٩١٧ إلى التنازل عن العرش لصالح اخيه (ميخائيل) وذلك نظراً لعدم اهلية ابنه (اليكسي) الذي كان يعاني من مرض عضال حيث جاء في البيان الذي وجهه إلى الشعب الروسي : " بنعمة الله، نحن نيقولا الثاني امبراطور روسيا ... نعلن إلى كل رعايانا المخلصين ما يأتي: بينما كنا نحارب العدو الخارجي الذي جهد نفسه ثلاث سنوات ليغزو وطننا ويضمه إلى سيطرته، اذ شاء الله ان يرسل إلى روسيا تجربة جديدة هائلة تمثلت في الاضطرابات والفتن الداخلية التي لا شك في انها تؤثر تأثيراً سيئاً في مجرى الحرب . ان مصير الأمة الروسية وشرف جيشنا الشجاع وسعادة شعبنا ومستقبل وطننا الحبيب تقتضي ان تنتهي الحرب بالظفر، ان عدونا القاسي الشرس يبذل آخر مجهوداته ، وهاهي الساعة التي سينتصر فيها جيشنا بالاشتراك مع حلفائنا وان النصر النهائي مضمون لنا . وفي هذه الأيام الحرجة التي تجتازها روسيا نعتقد ان الواجب يدعونا ان نسهل لشعبنا اتحادا متينا يستطيع معه ان يجهز كل قواه للوصول إلى النصر العاجل الذي ننشده . وبناء عليه وبالاتفاق مع مجلس الدوما الامبراطوري عزمنا عزما نهائيا على التنازل عن العرش والتخلي عن السلطة العليا . ولما كنا لا نريد

ان ننفصل عن ابننا المحبوب، فقد حولنا التاج إلى شقيقنا الغرندوق (ميخائيل) الكسندروفتش الذي نباركه وندعو له خير الدعاء، كما اننا نساله ان يحكم بالاشتراك مع ممثلي الأمة في المجلس التشريعي، وان يقسم لهم باسم الوطن يمينا صادقاً لا يحنث به، واننا نناشد كل أبناء الوطن الاوفياء ونحثهم متضرعين على القيام بواجبهم الوطني المقدس فيطيعوا القيصر في هذه الأيام الصعبة، ويساعدوه في السير بالحكومة الروسية في سبيل التقدم والمجد، والله يصون روسيا " (٤١٨).

ورغم انتقال السلطة إلى ميخائيل الا ان الاخير فضل الانزواء عن الحياة السياسية معتقداً " **ان افرازات الحرب على الصعيدين الداخلي والخارجي ما عادت تمكنه من حكم روسيا على طريقة اسلافه من قياصرة ال رومانوف** " ، لذا قرر التخلي عن ادارة شؤون البلاد إلى حكومة منتخبة . واثر ذلك تولى مجلس الدوما مهمة تشكيل حكومة مؤقتة برئاسة (كيرنسكي) كمرحلة انتقالية إلى حين اجراء انتخابات ديمقراطية لمجلس تأسيسي جديد . اما نيقولا الثاني وافراد اسرته فوضعوا تحت الاقامة الجبرية في قصر (تسارسكوي سيلو) ثم سُفروا إلى مدينة (توبولسك)(٤١٩).

أعلن كيرنسكي امام مجلس الدوما ان اولى المهام الملقاة على عاتق حكومته هي " **وضع حد للاضطرابات والقضاء على مظاهر الفوضى والحفاظ على وحدة الاراضي الروسية، اضافة إلى مواصلة الحرب مهما كلف الثمن** " ، ولكن الوقائع اثبتت ان التحكم في مسار الأحداث لم يعد مسيطر عليه وفقا للرؤى التي اعتقدها كيرنسكي ، اذ استمرت التظاهرات والاضرابات العمالية مما اضطر الحكومة المؤقتة إلى انتهاج سياسة البطش واستخدام القوة (٤٢٠).

وإزاء تردي الاوضاع السياسية في البلاد واصرار حكومة كيرنسكي على مواصلة الحرب ومماطلتها في تسريع الاجراءات الخاصة بالانتخابات قام العمال والفلاحون والجنود بتأسيس مجالس شعبية "سوفيت" وجعلوا منها " **مرجعية للحكم** "، الأمر الذي اوجد

واقعا سياسيا جديداً اتسم بازدواجية السلطة . وعشية انعقاد الاجتماع الثاني لمجلس النواب الروسي (السوفيت) في السابع عشر من تشرين الثاني ١٩١٧ اندلعت "**الثورة الاشتراكية**" وتمكنت "**اللجان الثورية**" من السيطرة على القصر الامبراطوري الشتوي وعدد من المراكز الحكومية المهمة فانهارت الحكومة دون مقاومة تذكر [٤٢١].

واثر استلام البلاشفة للسلطة في اكتوبر ١٩١٧ تم نقل نيقولا الثاني واسرته إلى منطقة (ييكاتيرنبورغ) — سفردولوفسك حالياً- في جبال الاورال القريبة من الحدود التشيكية، واوكلت مهام الحراسة المشددة إلى مجموعة مختصة في "**ادارة الأمن السري**" بقيادة (ياركوف يورفسكي) . وقد طال النقاش حول مصير القيصر وتباينت الرؤى في اتجاهين: (الاول) ويمثله (تروتسكي) الذي رأى ضرورة تقديمه للمحاكمة، و(الثاني) كان يمثله (لينين) الذي رفض هذه الفكرة بسبب الخشية من تأييد وتعاطف اتباع النظام القيصري مع نيقولا الثاني وعائلته . وأخيراً قرر الشيوعيون تصفية الاسرة المحتجزة حيث أصدر لينين امراً بإعدامهم جميعاً، وتم تنفيذ الحكم ليلة (١٧-١٨ تموز ١٩١٨) في مجزرة بشعة اشرف عليها يورفسكي راح ضحيتها (١١) شخصاً وهم "**القيصر وزوجته الكسندرا وخمسة من اولاده وطبيبه الخاص وثلاثة من الخدم**" [٤٢٢] . وبذلك انتهى حكم اسرة رومانوف واسدل الستار على حكمهم الذي استمر نحو ثلاثمائة سنة وابتدأ عهد الاتحاد السوفيتي.

٤ـ الخاتمة والاستنتاجات

بعد ان تناولنا التطورات السياسية التي مرت بها روسيا منذ بدايات تكوينها عام ٨٦٢م وحتى عام ١٩١٧ على الصعيدين الداخلي والخارجي يبدو ممكنا توضيح أهم الاستنتاجات التي خلصت اليها هذه الدراسة بما يأتي:

- ان قرار زعماء القبائل السلافية بمنح الثقة للأمير روريك وتفويضه حكم الاراضي الروسية عام ٨٦٢م كان قراراً صائباً ساهم في الحد من مظاهر الفوضى وتدهور الاحوال العامة، إذ تمكن من ملئ الفراغ السياسي وتأسيس امارة قوية وبذلك نجح في ارساء حجر الاساس لقيام الدولة الروسية.
- شهدت امارة كييف في عهد الأمير فلاديمير المبُجل (٩٨٠-١٠١٥) حدثا مهماً وذلك حينما ارتأى الامير التحول من الوثنية إلى الديانة المسيحية على المذهب الأرثذوكسي، وقد برزت اهمية هذا التحول فيما بعد على صعيد السياسة الخارجية اذ تبنى الروس " حماية **الأرثذوكس** " والدفاع عن مصالحهم خارج الاراضي الروسية ولاسيما في منطقة البلقان.
- اعتقد الأمير ياروسلاف الحكيم (١٠١٩-١٠٥٤) بأن تعزيز قوة امارته كانت تتطلب توثيق أواصر الصداقة مع الاسر الحاكمة في فرنسا وانكلترا والسويد وبولندا والنرويج، لذا لجأ إلى " **سياسة المصاهرة** " مع ملوك هذه الدول.
- أظهرت معركة " **نيڤا** " التي حدثت في عهد الامير الكسندر نيفسكي (١٢٤٩-١٢٦٣) قدرة الروس على الدفاع عن اراضيهم وحماية حدود بلادهم من هجمات القوى المجاورة متمثلة بالسويد وليتوانيا واستونيا .
- أدرك الامير ڤاسيلي الثاني (١٤٢٥-١٤٦٢) ان مشروعه الهادف إلى تكوين دولة روسية ذات سيادة كان يتطلب اعلان استقلالية " **مطرانية موسكو** " عن الكنيسة في كل من روما والقسطنطينية، لذا اقدم على تحقيق هذه الخطوة للحيلولة

دون التدخلات البابوية في شؤون بلاده (اولاً)، وللحصول على الشرعية الدينية التي تتيح له فرصة تزعم الكنيسة الأرثذوكسية (ثانيا).

- اثبتت سياسة " **اضعاف العدو من الداخل** " التي انتهجها القيصر ايفان الثالث (١٤٦٢-١٥٠٥) فاعليتها في التحرر من السيطرة المغولية، فضلاً عن اخضاع جميع الاقاليم الروسية لزعامة موسكو.
- ترتب على الغزو المغولي للأراضي الروسية (١٢٣٠-١٤٨٠) نتائج غاية في الأهمية على الصعد السياسية والاقتصادية والاجتماعية، اذ لجأ المغول إلى سياسة " فرق تسد " فعمدوا على اثارة الفتن الداخلية لإشغال الروس عن مقاومة الاحتلال وكذلك استنزاف مواردهم، كما برزت ابان تلك الفترة ظاهرة " التمايز الطبقي " حيث تم استثناء الطبقات المتنفذة اضافة إلى رجال الدين من الضرائب، فضلاً عن شراء الذمم بالمال والهدايا لضمان الخضوع لأوامر سلطات الاحتلال.
- ان ما وصلت اليه روسيا من مجد عسكري وبناء سياسي ورخاء اقتصادي في عهد القيصر ايڤان الثالث جعلت من الأخير " **رمزاً وطنياً** " في نظر الروس، إذ نجح في اعادة هيبة الدولة بعد انحسار الخطر المغولي عن الاراضي الروسية حيث تصدى وبقوة لأطماع القوى المجاورة، فاقدم على مهاجمة ليتوانيا ووأد مشروعها الخطير الرامي إلى كثلكة الاقسام الشمالية الغربية من البلاد، كما هاجم الاراضي البولندية رداً على تدخل ملوك بولندا في الشأن الداخلي الروسي .
- أحدثت سياسة " **الانفتاح الخارجي** " في عهد القيصر ڤاسيلي الثالث (١٥٠٥-١٥٣٣) انتقالة مهمة ساهمت في توطيد عرى الصداقة سياسياً واقتصادياً مع دول اوربا وذلك بتبادل الزيارات الرسمية وارسال البعثات التجارية.
- اثبتت سياسة الاصلاح التي تبناها القيصر ايفان الرابع (١٥٥٣-١٥٨٤) نجاحها في بناء نظام مركزي ساهم في تعزيز قوة الدولة، الامر الذي مكن الروس من مواجهة مطامع قوى الجوار ولاسيما دول التحالف الليڤوني.

- جاء الدعم الذي تلقاه (ديمتري الكذاب) من قبل الحكومة البولندية في اطار مخطط بولندي كان يستهدف وحدة الاراضي الروسية وتقسيمها إلى اقاليم صغيرة ما بين الاسر الموالية لها، وذلك اثر فشل الانتفاضة الفلاحية في حزيران ١٦٠٧ مما اضطر القيصر ڤاسيلي شويسكي (١٦٠٦-١٦١٠) إلى طلب التحالف مع السويد.
- أسفرت المؤامرة التي قادها زعماء البويار والدوڤريان وكبار أصحاب المصالح الخاصة بدعم ومساندة من قبل الحكومة البولندية عن اقصاء ڤاسيلي شويسكي عن العرش القيصري والمجيء بحكومة موالية لبولندا باسم "**مجلس النبلاء السبعة**" (١٦١٠-١٦١٣) ، وقد اثارت هذه المؤامرة استياء مختلف فئات الشعب الروسي التي رفضت التدخل البولندي السافر في شؤون روسيا الداخلية ووصفت المتآمرين بالخونة.
- اثر التطور الخطير الذي شهدته مؤسسة الحكم الروسي عام ١٦١٠ شرعت القوى الوطنية كوزمانيسكي حاكم مدينة (نينجي — نوفغورود) والامير بوجارسكي ابن اخ القيصر المخلوع ڤاسيلي شويسكي بتشكيل قوة قتالية من المتطوعين الروس بلغ عددهم نحو (١٠) آلاف مقاتل لتحرير المدن الروسية من الاحتلال البولندي، وقد نجحت فصائل المقاومة المسلحة في الحاق الهزيمة بالقوات البولندية مما اضطر "**النبلاء السبعة**" إلى مغادرة موسكو والهروب مع الجيش البولندي المهزوم، وبذلك تمكن الروس من تجاوز اخطر مرحلة في تاريخ روسيا آنذاك، ثم قرروا اختيار ميخائيل فيدوفتش رومانوف (١٦١٣-١٦٤٥) — وهو من الشخصيات التي كانت تحظى بتأييد ودعم قادة الكنيسة والبويار — لاعتلاء العرش الروسي.
- اثمرت سياسة "**الاصلاح الشامل**" التي انتهجها القيصر بطرس الاكبر (١٦٨٩-١٧٢٥) عن تحولات اساسية في المجالات السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والدينية فضلاً عن تحديث المؤسسة العسكرية، وبذلك

نجح القيصر في تخطي الاثار السلبية التي افرزتها مرحلة الصراع على السلطة وما رافقها من مؤامرات ودسائس في المدة (١٦٧٦-١٦٨٩)، الامر الذي انعكس ايجاباً على سياسة روسيا الخارجية حيث تمكن بطرس من حشد امكانيات البلاد لمواجهة مطامع دول الجوار وبخاصة السويد، وفي الوقت ذاته تهيأت الفرصة المناسبة لروسيا ان تلتحق بركب الدول الاوربية في مجال التوسع والبعثات الاستكشافية.

- حققت الدبلوماسية الروسية في عهد القيصرة كاترين الثانية (١٧٦٢-١٧٩٦) انجازاً مهماً على صعيد العلاقات مع الدولة العثمانية، اذ حصلت روسيا بموجب معاهدة " **كجك كينارجي** " الموقعة بين الدولتين في الخامس عشر من تموز ١٧٧٤ على مكاسب ارضية وامتيازات سياسية وتجارية ودينية.
- انطلق الساسة الروس في تعاطيهم مع مسألة الغزو الفرنسي لمصر عام ١٧٩٨ من هدف ستراتيجي يستند إلى التصدي للاحتمالات الناشئة عن ذلك الغزو وتهديد مصالح روسيا في البحر المتوسط، اذ نجحت مساعي الدبلوماسية الروسية في اقناع الباب العالي بعقد معاهدة في كانون الثاني ١٧٩٩ نصت على قيام روسيا بتقديم الدعم العسكري للدولة العثمانية ضد أي هجوم فرنسي يستهدف منطقة المضائق.
- استندت الخطة العسكرية التي اعتمدها الروس في مواجهة غزو نابليون بونابرت لبلادهم إلى عدد من الإجراءات التعبوية في الدفاع، كان ابرزها الانسحاب المنّظم باتجاه الشرق واستدراج العدو إلى عمق الاراضي الروسية بهدف استنزافه وانهاك قواه، كما لجأوا إلى اسلوب " **الارض المحروقة** " وذلك بتدمير كل ما يمكن ان يستفيد منه العدو في ادامة زخم هجومه، فضلاً عن تجنيد الاف المتطوعين.
- ساهمت روسيا ممثلة بالقيصر الاسكندر الاول (١٨٠١-١٨٢٥) وبصورة فاعلة في صياغة مقررات مؤتمر ڤينا عام ١٨١٥ وترتيب اوضاع أوربا في مرحلة ما بعد نابليون، وكانت فكرة " **التحالف المقدس** " التي اقترحها القيصر بمثابة الركيزة

الاساس التي استندت اليها السياسة الخارجية الروسية في التعاطي مع الاحداث التي شهدتها عدد من دول اوربا ابان انعقاد مؤتمرات المحفل الاوربي في السنوات (١٨١٨-١٨٢٢).

- تمخضت الدعوات الرافضة لفكرة الاستبداد القيصري في الربع الاول من القرن التاسع عشر عن قيام ما يعرف بـ " **الثورة الديسمبرية** " أو " **ثورة الضباط الديسمبريين** " في كانون الاول ١٨٢٥، وهي اول ثورة دستورية ديمقراطية في تاريخ روسيا الحديث كانت تهدف إلى اقامة نظام ملكي دستوري يلغي مظاهر العبودية ويحقق المساواة بين افراد فئات الشعب الروسي امام القانون.
- اضطرت روسيا للرضوخ إلى الانذار النمساوي ووقف الاعمال الحربية في شبه جزيرة القرم وذلك لسببين (الاول): ان استمرار الحرب للمدة (١٨٥٣-١٨٥٦) قد استنزفها عسكريا واقتصاديا، و(الثاني): ادراك القادة الروس لخطورة الموقف في حال فتح جبهة اخرى للقتال ضد النمسا.
- تجسدت مساعي روسيا في المرحلة التي اعقبت التوقيع على معاهدة باريس عام ١٨٥٦ بالعمل على استعادة نفوذها في منطقة البلقان، اضافة إلى توجيه الانظار نحو اسيا الوسطى لأجل ان تثبت مرة اخرى انها مازالت عظمى ولها مركزها الدولي.
- اثار تدخل روسيا على خط الازمة في البوسنة والهرسك عام ١٨٧٥ ومن ثم اعلانها الحرب ضد الدولة العثمانية عام ١٨٧٦ مخاوف الدول الاوربية من احتمالية اقدام الروس على احتلال منطقة المضائق، وقد ازدادت هذه المخاوف حينما اضطرت الحكومة العثمانية إلى توقيع معاهدة سان ستيفانو في الحادي والثلاثين من كانون الثاني ١٨٧٧، اذ خشيت تلك الدول على تأثر مصالحها في البلقان جرّاء مساعي الروس الهادفة إلى ايجاد " دولة بلغاريا الكبرى " تسير في فلك روسيا وتقاتل بالنيابة عنها.

- القت مقررات مؤتمر برلين عام ١٨٧٧ بظلالها السلبية على الداخل الروسي، اذ حمّلت جماعات المعارضة القيصر الاسكندر الثاني (١٨٥٥-١٨٨١) مسؤولية ما انتزعه المؤتمر من ثمار النصر في الحرب ضد العثمانيين، الامر الذي دفع بهذه الجماعات إلى تبني موقف مناهض للسلطة نتج عنه اغتيال القيصر نفسه.
- افرزت الازمة البلغارية (١٨٨٥-١٨٨٦) نتائج خطيرة على الصعيد الاوربي حيث تفككت عصبة الأباطرة الثلاثة التي كان قد خطط لها المستشار بسمارك منذ قيام الوحدة الالمانية، وذلك بسبب ازدياد حدة التنافس الروسي – النمساوي في منطقة البلقان.
- وجدت روسيا في التقارب مع فرنسا فرصة تاريخية لتشكيل تحالف رادع يقف بالضد من التحالف الثلاثي الالماني – النمساوي- الإيطالي، وذلك بعد ان رفضت المانيا في عام ١٨٩٠ تجديد العمل بمعاهدة الضمان الالمانية – الروسية الموقعة عام ١٨٨٧.
- أحدثت النزعة الاستعمارية والخلاف على مناطق النفوذ شرخا كبيراً في العلاقات الروسية – الاوربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، اذ تفاقم الصراع الروسي – البريطاني في آسيا، كما خشيت روسيا على مصالحها التجارية جراء بروز المانيا كقوة اقتصادية مؤثرة في العالم، ناهيك عن تأزم العلاقات مع النمسا – المجر بسبب قضايا البلقان.
- قادت اطماع روسيا في السيطرة على كوريا ومنشوريا إلى الصدام العسكري مع اليابان، الا انها اضطرت إلى وقف الحرب نتيجة الهزيمة الكبرى التي لحقت بالقوات الروسية في خليج بورت ارثر مطلع اذار ١٩٠٥.
- تظافرت عدد من الاسباب قادت إلى تفجر الاوضاع الداخلية وقيام ثورة عام ١٩٠٥، وكان في مقدمة تلك الاسباب سياسة الاستبداد التي مارسها القيصر نيقولا الثاني (١٨٩٤-١٩١٧) وتفاقم المشاكل الاقتصادية في ظل تراجع المستوى

المعاشي وازدياد نسبة الفقر، فضلاً عن ردود الافعال الغاضبة جّراء الكارثة العسكرية التي حلت بـ روسيا نتيجة هزيمتها امام اليابان.

- املت المصالح الاستعمارية على روسيا التوصل إلى تفاهم مشترك مع بريطانيا بخصوص ايران، فوقعت الدولتان على ما يعرف بـ " **الوفاق الودي**" في الثلاثين من آب ١٩٠٧ الذي تضمن كذلك تفاهمات اخرى تتعلق بالمضائق وافغانستان والتبت والخليج العربي.

- سعت روسيا في بدايات القرن العشرين إلى التخلص من القيود التي فرضتها عليها معاهدة باريس عام ١٨٥٦ الخاصة بالقواعد التي كانت تتحكم في وضع المضائق العثمانية بما يضمن حرية مرور اسطولها الحربي في مضيقي البسفور والدردنيل، اذ لجأت إلى التفاهم مع النمسا – المجر فوافقت على قيام الاخيرة بضم البوسنة والهرسك وسنجق نوفي بازار مقابل تأييد مساعي الروس الهادفة إلى تغيير تلك القواعد وذلك استنادا لما نص عليه "**اتفاق بوشلاو** " الموقع بين الدولتين في ايلول ١٩٠٨.

- قصدت روسيا في دعمها لفكرة " **التحالف البلقاني** " استخدام دول البلقان كعائق امام التوسع النمساوي – الألماني في شبه الجزيرة البلقانية، وحينما تجسدت هذه الفكرة على ارض الواقع في خريف عام ١٩١٢ ادرك القادة الروس ان حكومات تلك الدول كانت تسعى إلى تحقيق اهداف ذاتية ترنو إلى التحرر من التبعية العثمانية وليس طبقا لمصالح روسيا.

- نجحت المساعي الدولية في احتواء اخطر الازمات التي كادت تعصف بالسلم الاوربي ابان الحروب البلقانية ١٩١٢– ١٩١٣ ، اذ لجأت الدبلوماسية الاوربية وبخاصة البريطانية إلى ممارسة الضغوط على روسيا والنمسا – المجر بهدف احتواء الخلافات الناشئة عن المتغيرات التي احدثتها تلك الحروب في المنطقة والحيلولة دون وقوع الصدام العسكري بين الدولتين.

- وأخيراً ساد الاعتقاد لدى السياسيين الروس وفي مقدمتهم وزير الخارجية سازانوف بان جميع المؤشرات والمعطيات التي افرزتها حروب البلقان كانت تؤكد ان حربا اوربية شاملة اخذت تلوح في الأفق وذلك في ظل التوقعات الخاصة بالانهيار الوشيك للدولة العثمانية.

---

[1] Vernadsky, Gorge ; A History Of Russia (Oxford University Press , 1951), pp 23-40 ; Gibbon , Edward ; The Diecline and Fall Of Roman Empire, (New York, N.D), p. 331.

[2] Daniels , R.V. ; The Old History Of Russia (New jersey , 1964),pp.37-9 ; Gibbon ; op. cit, pp. 331-2.

[3] Edward , M.F ; History Of The Russian Empire, (New York, 1962), pp. 26-30

[4] Daniels ; op. cit, p. 332.

حاطوم، نور الدين: تاريخ اوربا في العصر الوسيط، (دمشق، ١٩٨٢)، ص٣٨٢- ٣٨٣.

[5] Edward, op. cit, p.30.

[٦] نجيب ، سعد الله احمد: محاضرات في التاريخ الروسي، (دمشق، ١٩٣٨)، ص٨.

[7] Paul , K. Stone ; A General History Of Russia, (New York, 1961), p. 28.

[8] Hales , R.A ; The Modern Russian State , A Historical Study, (London, 1951), pp. 34- 5.

[9] Beik , E.F ; A Short History Of Russia, (London , N.D), P. 14 ; Edward, op. cit, p.32.

[١٠] نجيب: المصدر السابق، ص١١ ؛ Edward, op. cit, p.34.

[11] Hales, op. cit, pp. 39- 40.

[12] Paul, op. cit, pp. 27-8.

[13] David, Frank ; A History Of Russia, 980- 1613. (New York , 1947), p. 58.

[١٤] يبيفانوف، فيدوسوف : تاريخ الاتحاد السوفيتي ، ترجمة: خيري الضامن ونيقولا الطويل، (موسكو ، د.ت)، ص٣٧- ٣٨ ؛ Edward, op. cit, p.38.

[15] Beik, op. cit, pp. 40-2.

[١٦] نجيب: المصدر السابق، ص١٩ ؛ Paul ; op. cit, p.31.

[17] www. world press. com ; Hales , op. cit, p. 46.

[18] ar. Wikipedia. Org.

[19] Ibid.

[20] www. soliol. net ; ar. wikipedia. Org.

[21] David, op. cit, p. 67.

[٢٢] يبيفانوف: المصدر السابق، ص٣٨- ٣٩ ؛ نجيب: المصدر السابق،ص ٢٥.

[23] Todorov, F.N ; Russia In The Middle Age (London, 1955), p. 37.

[24] Paul, op. cit, pp. 39-40.

[٢٥] حمدي، مصطفى شعبان: تاريخ روسيا الحديث، (بنغازي، ٢٠٠٤)، ص٤٢.

[26] William, D. A ; The Russian Empire 1113-1613, Vol. 1, (London, 1910), ح. 24.

[27] Ibid, pp. 27.

[28] David, op. cit, pp. 75 ; Todorov, op, cit, p. 39.

[29] Edward, op. cit, p. 46.

[٣٠] يبيفانوف: المصدر السابق، ص٤٠ ، نجيب: المصدر السابق، ص٢٧ ، William, op. cit, pp. 37-8

[31] Daniels ; op. cit, 28-9. ; Hales, p. 61.

[32] Kuskov, Vladimir ; A History Of Old Russian Litertature, Translated from the Russian by Ronald Vroon, (Moscow, 1997), pp. 72- 3.

[٣٣] حمدي: المصدر السابق، ص٦٣ ؛ Todrov, op. cit, p.44.

[٣٤] عمران، محمود سعيد: تاريخ أوربا في العصور الوسطى، (القاهرة، د.ت)، ص٢٧٣.

hittp// ar- arfacebook. com.

(٣٥) بيرخين، شميدت، تارنوفسكي: موجز تاريخ الاتحاد السوفيتي (موسكو، ١٩٨٦)، ص١٨ ؛ بيبيفافوف: المصدر السابق، ص٣٢.

(36) Vernadsky, p. 34 ; Daniels, op. cit, p. 28.

(٣٧) نجيب: المصدر السابق، ص٣١ ؛ David, op. cit, pp. 89- 91

(٣٨) حمدي: المصدر السابق، ص٧٤.

(39) Hales, op. cit, p. 57.

(٤٠) الشامي، شفيق عصام: صفحات مجهولة من تاريخ القياصرة الروس، (دمشق، ١٩٢٥)، ص٣١.

(41) Beik, op. cit, p.64.

(42) Todorov, op. cit, p.58.

(43) Clarkson, Henry ; A General History Of Russia Until 1917 , (London, 1929), pp. 71-2.

(44) David, op. cit, pp. 116- 7 ; Hales, op. cit, p. 68.

(45) Clarkson, op. cit, pp. 76-7.

(٤٦) الشامي: المصدر السابق، ص٤٩.

(٤٧) المصدر نفسه، ص٥٢.

(٤٨) حمدي: المصدر السابق، ص٩٤ ؛ ar: wikipedia. org

(49) David, op. cit, p. 81.

(50) ar : wikpedia, org ; Hales, Op. cit, p. 69.

(٥١) نجيب: المصدر السابق، ص٥١.

(٥٢) الشامي: المصدر السابق، ص٦٢.

(53) William , op. cit, p. 49.

(54) Florinsky, Michael ; Russia, A History and An InterPretation, (New York, 1955), حج. 149- 50 ; Daniels, op. cit, p. 30.

(55) ar : wikipedia- org ; Paul, op. cit, p. 48.

(56) Harbuth, Ernest ; A Brief History Of Russia, (London, 1936), pp. 42-3 ; www. Cyemen . com.

(٥٧) عبد الغني، احمد جمال: البلاط القيصري الروسي (دسائس ومؤامرات) (دمشق، ١٩٣١)، ص٥٢- ٥٣.

(58) Riasanovsky, Nicholas ; AHistory Of Russia (New York, 1963), p. 78 ; Spuler , Bertold ; History Of the Mongols Based on Eastern and Western Accounts Of the Thirteenth and Fourteenth centuries, (London, 1968), pp. 6-10;
طارق، مبارك عبدالله: المغول وعلاقاتهم مع القوى المجاورة (بنغازي، ١٩٨٢)، ص١٠٥.

(٥٩) عبد الغني: المصدر السابق، ص٦٦.

(60) ar: wikipedia. org ; Todorov, op. cit, p. 70.

(٦١) بروي، ادوارد: موسوعة تاريخ الحضارات العام، ترجمة يوسف اسعد داغر وفريد داغر، ج٣ (بيروت، ط٢، ١٩٨٦)، ص٥٩٤ ؛ www. solial . net

(٦٢) عبد الرحمن، محمود: تاريخ القوقاز، (بيروت، ١٩٩٩)، ص٤٣ ، William , op. cit, pp. 65-6

(63) Clarkson ; op. cit, p. 88.

(64) www. Solial. Net.

(65) Harbuth ; op. cit, pp. 79- 80.

(66) Edward ; oP, Cit, pp. 93-4.

(67) Hales ; op. cit, p. 76.

(68) David ; op. cit ; pp. 142-3.

(69) GeOffrey ; john ; The Modern History Of Russia, (London, 1921), p. 107.

(70) www. solial . net.

(71) Ibid.

(٧٢) نجيب: المصدر السابق، ص٧٨.

(73) Edward, op. cit, p. 105.

(74) ar: wikipedia. org.

(٧٥) الشامي: المصدر السابق، ص٨٤.

(76) Shelestov, V.N ; The Russian civilization History, (London, 1925), p. 114.

(77) Todorov, op. cit, p. 79.

(٧٨) فاروق، وليد سليمان أغا: روسيا العظمى، (د.م، ١٩١٩)، ص٥٧- ٥٨.

(79) GeOffrey ; op. cit ; p. 135 ;

لانجر، وليم: موسوعة تاريخ العالم، ترجمة عبد المنعم أبو بكر، ج٤، (القاهرة، ١٩٧٠)، ص٨٤٨.

(80) Paul ; op. cit, pp. 76-7.

(٨١) فاروق: المصدر السابق، ص٨٤.

(٨٢) الصياد، سامي صالح محمد: الأمير ايفان الثالث (١٤٦٢-١٥٠٥) ودوره في توحيد روسيا، مجلة دراسات تاريخية (بيت الحكمة)، العدد ٣٣ لسنة(٢٠١٢)، ص١٦٢- ١٦٣.

(٨٣) بيمانوف، بيار سولا: تاريخ الاتحاد السوفيتي، (موسكو، د.ت)، ص١٠٣ ، ديورانت، وول: قصة الحضارة ترجمة فؤاد اندراوس، محمد علي أبو درة، مج ١٧، ج٢٣ (القاهرة، ٢٠٠١)، ص٨٩.

(٨٤) حمدي: المصدر السابق، ص١٢٥، وللتفاصيل ينظر:

Saunder , J ; A History Of the Mongol Conques and Russia, (London, 1970).

(٨٥) الدرزي، وليد نور الدين : روسيا دراسة في الأحوال السياسية، (د.م، ١٩٦٩)، ص٨١- ٨٢.

(86) Clarkson, op. cit, pp. 124- 5.

وللتفاصيل ينظر:

Geary, B. G ; The Byzantine State , Historical study, (New York, 1976), pp. 138-41.

(٨٧) الدرزي: المصدر السابق، ص٩١.

(88) ar:wikipedia. org.

(89) Hales, op. cit, p. 118.

(90) Lorga, Stefan ; The Political History Of Europe 1500-1848, (New York, 1953), P. 15 ; Todorov, op. cit, p. 98.

(٩١) الشامي: المصدر السابق، س١٠٣.

(92) Beik ; op. cit, pp. 131- 2. ; Lorga, op. cit, 24.

(٩٣) الدرزي: المصدر السابق، ص١٢٣- ١٢٤.

(٩٤) للتفاصيل ينظر: فرج، نعيم: تاريخ اوربا في العصور الوسطى (دمشق، ١٩٧٨)، ص١٩٨- ٢٠٠؛ الأمين، حسن: المغول بين الوثنية والنصرانية، (بيروت، ١٩٩٣)، ص٩٢-١١٨.

فشر، هربرت: تاريخ اوربا في العصور الوسطى، ترجمة محمد مصطفى زياد والسيد الباز العريني، (القاهرة، ١٩٩٦)، ص٢٥٠.

(٩٥) طقوش، سهيل: تاريخ القبيلة الذهبية والهند، (بيروت، ٢٠٠٧)، ص٢٢-٢٣ ؛ عمران: المصدر السابق، ص٣٨٧-٣٨٩.

(96) David, op. cit, p. 136 ; Todorov, op. cit, p. 108.

(٩٧) بولجر، ديمتريوس: المغول وبلاط قوبلاي، ترجمة ادارة الثقافة بوزارة التعليم العالي المصرية، (القاهرة، د.ت)، ص٢٤٩- ٢٥٠ ؛ عمران: المصدر السابق، ص٣٨٩.

(98) https:// marefa- org.

(٩٩) فرنادسكي، جورج: تاريخ روسيا، ترجمة عبدالله سالم الزليتي، (طرابلس، ٢٠٠٧)، ص١٠١ ؛ فاروق: المصدر السابق، ص١٠٦.

(100) Brett, H.M ; Russia And West Europe , Historical Study, (New York, 1972), p.94.

(101) Shelestov ; op. cit, P. 152 ; Lorga; op. cit, p. 35.

(١٠٢) فرنادسكي: المصدر السابق، ص٩٨ ؛ Hales, op. cit, p. 126.

(١٠٣) للتفاصيل ينظر:

Sedillot , Rene ; History Of the world, (New York, 1953), p. 147 ; Inalcik , Halil, The Ottoman Empire , The classical Age 1300– 1600, (London, 1973), pp. 7–8.

(104) Brett ; op. cit, p. 108.

(105) Todoroc, op. cit, p. 117.

(106) Clarkson ; op. cit, p. 155.

(107) Geary ; op. cit, p. 161 ; Brett ; op. cit, p. 125 ; Ostrogovsky, George ; History Of Byzantine State , (Oxford, 1968), p. 569.

(١٠٨) حمدي: المصدر السابق، ص١٦٧.

(109) Brett ; op. cit, p. 131 ; Lorga ; op. cit, p. 79.

(110) Shelestov ; op. cit, p. 176.

(١١١) فرنادسكي: المصدر السابق، ص٩٦ ؛ الدرزي: المصدر السابق، ص١٤٧.

(١١٢) للتفاصيل ينظر: الشامي: المصدر السابق، ص١٦٦–١٦٨؛

Paul, op. cit, p. 92 ; Todorov, op. cit, p. 129.

(113) https://marefa. org ; Harbuth, op. cit, p.184.

(114) ar .Wikipedia.org.

(115) Beik, op. cit, pp. 159-60.

(116) Edward, op. cit, p. 168 ; Todorov ; op. cit, p. 144.

(١١٧) للتفاصيل ينظر: موسنييه، رولان: تاريخ الحضارات العام ، ترجمة يوسف السعد، المجلد الرابع، (بيروت، ١٩٦٦)، ص١٧٤ ؛ زيباري، ايفان: التاريخ والمؤرخون وحقيقة ايفان الرهيب نقلاً عن www.alfiker.com مراد ، مصطفى: ايفان الرابع نقلاً عن www.maghress.com ؛ نافع، ضياء: لماذا سمي بالرهيب؟ نقلاً عن www.almadapaper.net ؛ فرنادسكي: المصدر السابق، ص١٠٦-١٠٧.

(118) Eloy ; Maueen ; The Colonial Empires , (Paris, 1953), p. 81.

(١١٩) فؤاد، محمد: ايفان الرهيب قيصر روسيا، مجلة المعرفة، المجلد الثالث، (بيروت، ١٩٧٩)، ص٣٨٤؛

Breet,op.cit,P.147,Harbuth,op.cit,p.122.

(١٢٠) البياتي، ميسون: دراسات وأبحاث في التاريخ والتراث واللغات نقلاً عن www.alhewar.org

(١٢١) المصدر نفسه.

(١٢٢) ماداريَاغا، ايزابيل: شخصيات لها تاريخ (ايفان الرهيب) نقلاً عن www. kenana.fromegypt.net ؛ فاروق: المصدر السابق، ص١٣٨.

(١٢٣) للتفاصيل ينظر: عبد الغني: المصدر السابق، ص١٠٥- ١٠٩ ؛

Eloy, op. cit, pp. 99-101 ; www. kabbas. Com.

(١٢٤) الحميد، سعد عبدالله : معركة موسكو، نقلاً عن www.alukah.net

(125) Todorov, op. cit, pp. 186- 7.

(126) Hales, op. cit, p. 208.

(127) GeOffrey ; op. cit, pp. 194- 5.

(128) Watson , L. S ; A short History Of Old Russian Literature, (London, N.D), p. 161-3.

(١٢٩) فاروق: المصدر السابق، ص١٧٣ ؛ David, op. cit, p. 217

(١٣٠) يبيفانوف: المصدر السابق، ص١١٥ ؛ حمدي: المصدر السابق، ص١٩١ ؛ شاكر، محمود: موسوعة الحضارات وتاريخ الأمم القديمة، ج٢، (الاردن، ٢٠٠٣)، ص٥٦٤؛

Breet ; op. cit, p. 169 ; William, op. cit, p. 125.

(131)Wesley, R. F ; Russia in The Sixteenth century, (New York, 1934),pp. 182- 4.; Clarkson, op. cit, p. 194 ; Paul, op. cit, p. 158.

(١٣٢) للتفاصيل ينظر: شعار، محمد: روسيا في عهد القيصر ايفان الرابع (الرهيب)، نقلاً عن www.shamyat.com

(١٣٣) الزيدي، مفيد: تاريخ اوربا الحديث والمعاصر، (عمان، ٢٠٠٤)، ص٦٨ ؛ كارتسوف: المصدر السابق، ص٤٥- ٤٦.

(١٣٤) شعار: المصدر السابق، المالكي، علي جودة صبيح: روسيا القيصرية في عهد كاترين الثانية، رسالة ماجستير - غير منشورة- كلية الدراسات التاريخية، جامعة البصرة، (٢٠١٠)، ص٧.

(135) Watson, op. cit, pp. 189- 90.

(١٣٦) البكاء، هند طاهر خلف: العلاقات الايرانية - السوفيتية ١٩٤١- ١٩٥١ ، رسالة ماجستير - غير منشورة- كلية التربية - الجامعة المستنصرية، (٢٠٠٤)، ص١٩ ؛ شعار: المصدر السابق.

(137) Stone, D.; Amilitary History Of Russia from Ivan the Terrible to the war Chechnya (New York, 1968), pp. 12-3 ; Edward, p. 216.

(138) Kirchner, Wather ; A General History Of Russia, (New York, 1948), pp. 47-8.

بيبفانوف: المصدر السابق، ص١٢٦- ١٢٨ ؛ نجيب: المصدر السابق، ص١٣١.

(١٣٩) غراهام، ستيفن: ايفان الرهيب اول القياصرة، ترجمة يوسف شلب الشام، (دمشق، ١٩٩٦)، ص١١٩- ١٣٨ ؛ بيبفانوف: المصدر السابق، ص١٢٤- ١٢٦ ؛ حسون، علي: الروس والعثمانيون، (بيروت، ١٩٨٢)، ص٥٨.

(١٤٠) موسنييه: المصدر السابق، ص١٧٧- ١٧٨ ؛ فاروق، المصدر السابق، ص١٨٤؛ Todorov, op. cit, p.219.

(141) Kurbsky, A.M ; History Of Ivan IV, Translated by J. L. I ; (combridge university Press, 1965), pp. 9-13.

(142) Ibid, op. cit, p. 16 ; Harbuth , op. cit, p. 128;

فشر، هربرت: اصول التاريخ الاوربي من عصر النهضة حتى الثورة الفرنسية، (القاهرة، د.ت)، ص٣١٥.

(١٤٣) نصري، طارق اسماعيل: التوسع الروسي في البلطيق نقلاً عن : www.modernhistory.com

(١٤٤) المقريحي، ميلاد: تاريخ اوربا الحديث ١٤٥٣-١٨٤٨، (بنغازي، ١٩٩٦)، ص٢٢٥ ؛

Wesley, op. cit, p. 256 . ; Clarkson, op. cit, p. 260.

(145) Robert, H. S ; A History Of Russia in The Medieval ages, (London, 1908), p. 144.

(١٤٦) نقلاً عن البياتي: المصدر السابق.

(147) Eloy ; op. cit, p. 144 ; Todorov, op. cit, p. 236 ;

مراد، مصطفى: ايفان الرهيب قيصر (تفنن) في التنكيل بمعارضيه www.maghress.com

(148) Todorov, op. cit, p. 271 ; Watson, op. cit, p. 241.

(149) William , op. cit, pp. 188-9.

(١٥٠) هامرتن، السير جون: تاريخ العالم، مجلد ٧ (القاهرة، د.ت)، ص١٢ ؛ عوني، مراد برهوم: الوجيز في تاريخ روسيا، (لبنان، ١٩٢٦)، ص٨٧.

(١٥١) صالح ، محمد محمد: اوربا من عصر النهضة حتى الثورة الفرنسية ١٥٠٠-١٧٨٩، (بغداد، ١٩٨١)، ص٤٠٤ ؛ الشمري، مشعل مفرح ظاهر: روسيا القيصرية في عهد بطرس الاكبر (١٦٨٩-١٧٢٥)، اطروحة دكتوراه –

غير منشورة – كلية الآداب– جامعة البصرة (٢٠٠٦)، ص١٠ ؛ Wesly, op. cit, p. 305

(١٥٢) نسيم، ماريا: قصر الكرملين، قصص مثيرة من ماضي الروس نقلاً عن WWW.almadar.com

(153)Hales, op. cit, p. 291.,

(154)Taylor, B.S ; A political History Of Russia in The Sixteenth century, (New York, 1958), p. 174, بيبفانوف: المصدر السابق، ص١٢٦

(١٥٥) الشامي: المصدر السابق، ص٢٠٧.

(156)Todorov, op. cit, p. 279.

(157)Ibid, p. 281.

(158) Toylor ; op. cit, pp. 185-6.

(١٥٩) متي، سمير: الكنيسة الشرقية (بيروت، ١٩٠٧)، ص٦٤؛ الشمري، المصدر السابق، ص١٠-١١ ؛

Robert, op. cit, p. 170

(160) William, op. cit, p. 180.

(161)Toylor ; op. cit, p.180.

(162)Clarkson ; op. cit, pp. 267-8 ; عوني: المصدر السابق، ص١٢٢

(163)David ; op. cit, p. 305 . Taylor, op. cit, p. 215; الشمري: المصدر السابق، ص١٢

(١٦٤) للتفاصيل ينظر:

Geoffrey ; op. cit, p. 223 ; Edward, op. cit, p. 277 ; Todorov ; p. 316.

بيبفانوف: المصدر السابق، ص١٤١-١٤٢.

(165) Beik, op. cit, p.191.

(166) Terence, Emerrson ; A History Of Russia Since 1613, (London, 1895), pp. 19-23 .

(167) Shelestov ; op. cit, p. 217.

(168) Toylor ; op. cit, p. 194 ; Paul, op. cit, p. 241.

(169) Michael, Cyril ; A Diplomatic History Of Russia 1533-1613, (London, 1911), p. 85.

(١٧٠) نجيب: المصدر السابق، ص١٢٠.

(171) Chester, N.E ; Russia , The Great Empire, (New York, 1974), Vol.1, pp. 231- 3.

(172) Michael ; op. cit, pp. 116-7.

(١٧٣) حداد، يوحنا: فاسيلي الرابع نقلاً عن www.almadarnews.com

(174) Watson ; p. 307.

(175) Ibid, p. 311.

(176) Breet, op. cit, p.221.

(177) Todorov, op. cit, p. 347.

(١٧٨) الشامي: المصدر السابق، ص٢٠٦.

(١٧٩) حداد: المصدر السابق ؛ Hales, Op. cit, p.326.

(180) Chester, op. cit, p.296.

(181) Beik, op. cit, p. 294.

(١٨٢) عبد الغني: المصدر السابق، ص١٥٩ ؛ فرنادسكي: المصدر السابق، ص١٢٦.

(١٨٣) السبكي، ريتا: مجلس البويار الروسي نقلاً عن www.politicalevents.com

(184) Jean, M. L ; The Russain's Nation, Historical Study, (London, 1919), pp. 82-3.

(185) Walter, G. M ; A History Of Russia , Vol.1, (New York, 2005), pp. 154-6.

(186) Jean, op. cit, p. 102.

(187) Richard, M.A ; A History Of the Russian Orthodox Church, (London, 1913), p. 116.

(188) Jean, op. cit, p.107.

(189) Michael, op. cit, p. 146.

(190) Walter, op. cit, pp. 169-70.

(191) Taylor ; op. cit, p. 238 ; Paul, op. cit, p. 285.

(192) Lawrence, N. L ; Historical Dictionary Of Medieval Russia, (New York, 2004), p. 43 ; Richard, op. cit, p. 129.

(193) Jean, op. cit, pp. 142-3 ; Watson, op. cit, p. 433.

[194] Clarkson, op. cit, pp.306-7.

[195] Eloy, op. cit, pp. 187-8 ; Michael, op. cit, p. 179.

[196] Richard, op. cit, p. 152 ; Jean ; op. cit, p. 170.

[197] Edward, op. cit, p. 297 ; Ha;es, op. cit, p. 348.

[198] Jean, op. cit, pp. 160-1.

[199] Lewis, G.A ; A Short History Of The Salve Nation, (London, 1923), P. 122 , Richard, op. cit, p. 159.

[٢٠٠] قبعين: سليم: تاريخ ال رومانوف، (القاهرة، ٢٠١٢)، ص٦٤-٦٥.

[٢٠١] زيتون، نظير: روسيه في موكب التاريخ ج١،(سان باولو، ١٩٤٥)،ص٢٢٨؛ Walter; op. cit, p.181

[202] Michael ; op. cit, p. 152; زيتون: المصدر السابق، ٢٢٨/١.

[203] Paul, op. cit, p. 153;

اكاديمية العلوم في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية: تاريخ الجمهوريات السوفيتية من العصور القديمة حتى اليوم، ترجمة مصطفى فقير (موسكو، د.ت)، ص٦٦.

[٢٠٤] فرنادسكي: المصدر السابق، ص١٢٩ ؛ الشمري، المصدر السابق، ص٢٥-٢٦ ؛ Michael ; op. cit, pp. 195-6

[٢٠٥] الشمري: المصدر السابق، ص٢٨. Eloy; op. cit, p. 207;

Walter ; op. cit, pp. 215-6.

العكيلي، صالح حسن: الوجه الآخر للنهضة الاوربية، محاضرات في تاريخ اوربا عصر النهضة ١٤٥٣-١٧٨٩، (بغداد، ٢٠٠٦)، ص٢١.

(206) Breet, op. cit, pp. 249- 50 ; Kirchner, op. cit, pp. 76-7.

(207) GeOffrey ; op. cit, p. 240. فرنادسكي: المصدر السابق، ص١٣٠-١٣١

(٢٠٨) الشامي: المصدر السابق، ص١٤٢.

(٢٠٩) فرنادسكي: المصدر السابق، ص١٣٢ ؛ chester ; op. cit, p. 245

(210) Lewis ; op. cit, pp. 139-40 ; Harbuth ; op. cit, p. 150 فرنادسكي: المصدر السابق، ص١٣٢.

(211) GeOffery ; op. cit, pp. 254-5.

(٢١٢) زيتون: المصدر السابق، ١/ص٢٣٢.

(٢١٣) المصدر نفسه ١/٢٣٣ ؛ حمدي: المصدر السابق، ص١٦٦.

(214) Hales, op. cit, pp. 337-8 ; Chester ; op. cit, p. 259.

(215) Clarkson, op. cit, pp. 325-6.

(٢١٦) نوار، عبد العزيز سليمان ومحمود محمد جمال: التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى الحرب العالمية الأولى، (القاهرة، ١٩٩٩)، ص٢١٨؛ Geffery ,op.cit, p.258

(٢١٧) نوار: المصدر نفسه، ص٢١٩ ؛ Paul ; op. cit, p. 180-1

---

(٢١٨) هامرتن: المصدر السابق، ص١٧ ؛ Breet, op. cit, p. 270

(٢١٩) يبيفانوف: المصدر السابق، ص١٧٧ ؛ Poul ; op. cit, p. 198

(220) Lewis, op. cit, p. 158.

(٢٢١) يبيفانوف: المصدر السابق، ص١٧٩-١٨٠ ، Lewis; op. cit, p. 160

(٢٢٢) فشر، هربرت: تاريخ اوربا في العصور الوسطى، ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني، (القاهرة، ط٤، ١٩٦٦)، ص٣٢٩ ؛ الشامي: المصدر السابق، ص١٦٣.

(٢٢٣) ترويتسكي، الكسييف، كارتسوف: موجز تاريخ الاتحاد السوفيتي، ترجمة محمد الجندي، (موسكو، ١٩٧١)، ص١٩٠ ؛ عوني: المصدر السابق، ص٢٠٥.

(٢٢٤) الشامي: المصدر السابق، ص١٦٨-١٦٩ ؛ نجيب: المصدر السابق، ص١٣٤.

(225) Lewis ; op. cit, p. 169 ; Michael, op. cit, p. 227.

(226) Richard ; op. cit, pp. 171-2.

(٢٢٧) شعيب، علي: احداث ومشاهير بطرس الاكبر " قيصر روسيا " ، (لبنان، ١٩٩٢)، ص٧ ؛ GeOffrey ; op. cit, p. 265.

(228) Edward ; op. cit, p. 322.

(٢٢٩) عوني: المصدر السابق، ص٢١٨ ; Ibid, op. cit, p. 324-5

(230) Beik ; op. cit, pp. 198-200 .

(٢٣١) العسلي، بسام: بطرس الاكبر (١٦٧٢-١٧٢٥)، (بيروت، ١٩٨٠)، ص٣٠ ؛ فاروق: المصدر السابق، ص١٣٦-١٣٧.

(232) Lewis ; op. cit, pp. 176-7.

(٢٣٣) الناصر، عمر شكري: حكم الاستبداد في روسيا حتى عام ١٩١٧، (د.ت، دمشق)، ص٣٣ ؛ صالح: المصدر السابق، ص٤١١.

(234) Breet; op. cit, p. 291.

(235) Paul ; op. cit,p 216.

(236) Chester ; pp. 268-70 ; العكيلي : المصدر السابق، ص٢١٤

(237) Lorga I, op. cit, pp. 89-90.

(238) Ibid ; op. cit, pp. 94-5.

(239) Beik, op. cit, pp. 212-3.

(٢٤٠) كلوفسكي، فاسيلي: بيتر الكبير، ترجمة ليليان ارشيبالد، (نيويورك، ١٩٦١)، ص١-٢ ؛

Lewis ; op. cit, p. 354.

(٢٤١) عوني: المصدر السابق، ص٢٤١.

(242) Hales, op. cit, p. 354.

(243) Costantin, D. G ; Peter' The Great (London, 1961), pp. 60-1 ; Breet ; op. cit, p. 305.

(٢٤٤) اندرسون، ماتيو: تاريخ القرن الثامن عشر في اوربا، ترجمة نور الدين حاطوم، (دمشق، ١٩٨١)، ص١٣٦ ؛ حاطوم، نور الدين: تاريخ القرن السابع عشر في اوربا، (دمشق، ١٩٨٦)، ص٣٣٢ ؛ فاروق: المصدر السابق، ص١٤٩.

(٢٤٥) يحيى، جلال: التاريخ الاوربي الحديث والمعاصر حتى الحرب العالمية الاولى، (الاسكندرية، د.ت)، ص١١٣ ؛ نعنعي، عبد المجيد: اوربا في بعض

الازمنــة الحديثــة والمعاصــرة ١٤٥٣-١٨٤٨، (بيـروت، ١٩٨١)، ص١٦٧-١٦٩ ؛ ستروكوف، أ: تاريخ فن الحرب، ترجمة صلاح الدين الأتاسي، ج١، (دمشـق، ١٩٦٨)، ص١٣٩-١٤٠ ؛ العسـلي: المصـدر السـابق، ص١١٠ ؛ ترويتسكي: المصدر السابق، ص٣٠-٣١.

(٢٤٦) مصـطفى، أمـين واحمـد عـزت عبـد الكـريم: تـاريخ اوربـا الاقتصـادي، (القاهرة، ١٩٥٤)، ص٢٥٤ ؛ هامرتن: المصدر السابق، ص٢٠ ؛ Clarkson ; op. cit, pp. 344-5 ; Lorga ; op. cit, p. 106. Hales, op. cit, p. 364.

(٢٤٧) البطريـق، عبـد الحميـد وعبـد العزيـز نـوار: التـاريخ الاوربـي الحـديث مـن عصـر النهضـة إلـى مؤتمـر فينـا، (بيـروت، ١٩٧٤)، ص٢٥٣ ؛ بـالمر، روبـرت: تـاريخ العـالم الحـديث، اوربـا : مـن القـرون الاولـى حتـى سـنة ١٧٤٠، ترجمـة محمـود حسـين الامـين، ج١، (الموصـل، ١٩٦٣)، ص٢٣٨-٢٣٩ ؛ شـعيب: المصدر السابق، ص٨٣-٨٤ ؛ الشامي: المصدر السابق، ص١٨٠-١٨١.

(٢٤٨) نعنعـي: المصـدر السـابق، ص١٧٣-١٧٤ ، الناصـر: المصـدر السـابق، ص٤٣-٤٤.

Paul ; op. cit, p. 238 ; Clarkson, op. cit, p. 359.

(٢٤٩) هامرتن: المصدر السابق، ص٢٢ ؛ Edward ; op. cit, p. 344

(٢٥٠) سـنيوبوس، شـارل: تـاريخ التمـدن الحـديث ، ترجمـة الكاتـب محجـوب، (القـاهرة، ١٩٠٩)، ص١٢ ؛ بـالمر: المصـدر السـابق، ص٣٦٥ ؛ العسـلي: المصدر السابق، ص٣٨ ؛ الشمري: المصدر السابق ، ص٥٦- ٥٩.

(٢٥١) الكسييف، سيرجي: قصص من التاريخ الروسي، ترجمة ماهر عسل، (موسكو، ١٩٧٥)، ص٥٩ ؛ عوني: المصدر السابق، ص٣٦٥.

(٢٥٢) الناصر: المصدر السابق، ص٥٧ ؛ الشامي: المصدر السابق، ص٩٥-٩٦.

(٢٥٣) يبيفانوف: المصدر السابق، ص٣٠١ ؛ Lewis, op. cit, p. 208

(٢٥٤) التكريتي، هاشم: المسألة الشرقية المرحلة الاولى (١٧٧٤-١٨٥٦)، (بغداد، ١٩٩٠)، ص٣٠ ؛ فاروق: المصدر السابق، ص١٦٧؛ Creasy, E.S ; History Of The Ottaman Turks, (London, 1878), p. 321.

(255) Sumner, B. H ; Peter The Great And The Ottoman Empire, (Oxford university Press, 1940), pp. 18-12 ; Hales ; op. cit, p. 382.

(256) Emmons ; H.A ; A History Of The Modern Europe Since 1500, (New York, 1961), p. 166 ; Lewis ; op. cit, p. 225.

(257) Oakley , S ; A short History Of Sweden , (New York, 1966), pp. 113-116.

(258) Ibid, pp. 120-22 ; Paul ; op. cit, p. 238; العسلي: المصدر السابق، ص٥٩

(٢٥٩) يبيفانوف: المصدر السابق، ص٢٠٣-٢٠٤ ؛ Lewis, op. cit, p. 229

(260)Marriott, J.A.R ; The Eastern Question An Historical Study in European Diplomacy , (London, 1947), pp. 133-4 ; ببيفانوف : المصدر السابق، ص٢٠٤

(261)Lieven, D ; Imperial Russia 1689-1917, Vol. 1, (Cambridge University Press , 2006), p. 498-500.

(262) GeOffrey, op. cit, p. 288.

(263) Sykes, Lieut ; A History Of Prsia, (London, 1915), pp. 317-19;

الدنبلي، عبد الرزاق بك: المآثر السلطانية، تاريخ ايران وحروبها مع روسيا منذ القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، (القاهرة، ٢٠٠٥)، ص١٣٥-١٣٧.

(٢٦٤) العاني، عبد المجيد عبد الحميد: ملامح السياسة الخارجية لروسيا القيصرية تجاه ايران (١٧٩٤-١٩٠٧)، مجلة كلية التربية – جامعة بغداد، العدد الخامس لسنة(١٩٩٧)، ص٩١-٩٢ ؛ الناصر: المصدر السابق، ص٧٨-٧٩ .

(265) Bushkovitch , Paul ; Peter The Great , The Struggle For Power 1671-1725 , (combridge University Press, 2004), pp. 426-7 ;

Parry , V . j ; A History Of The Ottoman Empire To 1730 , (combridge University Press , 1976), pp. 216-17.

(٢٦٦) جمعة، بديع محمد واحمد خولي: تاريخ الصفويين وحضارتهم ، ج١ (القاهرة، ١٩٧٦)، ص٤٢٣-٤٢٥ ؛ نوار: التاريخ الاوربي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الاولى، ص٢٣٧.

(٢٦٧) دوفيز، ميشيل: اوربا والعالم في نهاية القرن الثامن عشر، ترجمة الياس مرقص، ج٣ (بيروت، ١٩٨٠)، ص٩٠-٩١؛

Oslen, J.E and Peter, L ; The Discover Of Bering Starait, (New York, 2012), pp. 7-19.

(٢٦٨) حليم، ابراهيم بك: تاريخ الدولة العثمانية العلية ، (القاهرة، ٢٠٠٤)، ص٣٥١-٣٥٤.

(٢٦٩) ديورانت، وول: قصة الحضارة، ترجمة فؤاد انور ومحمد علي ابودرة، مجلد (١٧)، الجزء (٢٣)، (د.م، ٢٠٠١)، ص٤٦ ؛ www.pliticalevents.com

(٢٧٠) الناصر: المصدر السابق، ص٩٨-٩٩ ؛ Geaffrey ; op. cit, p. 307

(٢٧١) فاروق: المصدر السابق، ص١٧٧-١٧٨.

(٢٧٢) المصدر نفسه، ص١٨٤.

(273) Hales ; op. cit, p. 380 ; Lewis, op. cit, p. 231 . التكريتي: المصدر السابق، ص٧٩

(٢٧٤) قلفاط، نخلة: تاريخ روسيا الحديث، ج٣، (بيروت، ١٨٨٧)، ص١٧؛ فرنادسكي: المصدر السابق، ص١٦١.

(٢٧٥) الناصـر: المصـدر السـابق، ص١١٢ ؛ زيتـون: المصـدر السـابق، ٣٢٦/١-٣٢٧.

(٢٧٦) قلفاط: المصدر السابق، ص٢٤ ؛ فاروق: المصدر السابق، ص١٩١.

(277) David; op. cit, pp. 385-6.

(278) Clarkson ; op. cit, p. 401.

(279) Lewis, op. cit, p. 424.

(280) Edward ; op. cit, pp. 379-80.

(281) Author, Pares ; Russia And The Peace , (New York, 1944), p. 337 ; Elliot, H.W ; The Seal Islands Of Alaska , (New York, 2012), pp. 1-3.

(٢٨٢) زيتون: المصدر السابق، ٣٢٩/١ ؛ فاروق: المصدر السابق، ص١٩١.

(283) Caryl .Ferdinand ; The Slave Civilization, (New York, 1949), p. 117.

(٢٨٤) الشـامي: المصـدر السـابق، ص١٨٨ ؛ زيتـون: المصـدر السـابق، ١/ص٣٣٩-٣٤٠.

(٢٨٥) عـوني: المصـدر السـابق، ص٢٧٣ ؛ زيتـون: المصـدر السـابق، ١/ص٣٤٢-٣٤٣.

(٢٨٦) الناصر: المصدر السابق، ص١٣٥ ؛ Lewis; op. cit, p. 228

(287) Caryl ; op. cit, pp. 139- 40.

(288) GeOffrey ; op. cit, p. 335 ; Lewis, op. cit, p. 261.

(289) Simon ; H.W ; Russia in The Eighteenth And Nineteenth centuries, (London , 1960), pp. 75-7.

(290) Ibid, p. 81.

(٢٩١) زيتون: المصدر السابق، ٢/ص١٠-١١ ؛ وللتفاصيل عن كاترين ينظر: المالكي، علي جودة صبيح: روسيا القيصرية في عهد الامبراطورة كاترين الثانية ١٧٦٢-١٧٩٦، رسالة ماجستير - غير منشورة- كلية الدراسات التاريخية - جامعة البصرة (٢٠١٠).

(292) Emerson , C ; The Cambridge Introduction To Russian Literature, (New York, 2008), pp. 99-100 ;

المالكي: المصدر السابق، ص٩٠-٩٢ ؛ قلفاط: المصدر السابق، ٣/١٢٤ . الناصر: المصدر السابق، ص١٤٧.

(293) Dukes, Paul ; Catherine The Great And The Russian – Nobility ; (Cambridge University Press, 1967), p. 56 ;

التكريتي: المصدر السابق، ص٣٦ .

(294) Caryl ; op. cit, pp. 155-6.

(295) Clement, A. H ; A History Of Europe From 1789-1870,(London, 1961), p. 259;

التكريتي: المصدر السابق، ص٣٧ ؛ Lewis, op. cit, p. 272

(٢٩٦) المالكي: المصدر السابق، ص١٠٣-١٠٥ ؛ عوني: المصدر السابق، ص٢٨٦.

[297] Fisher, Alan . W ; The Russian Annexation Of The Crime 1772- 1783 , (Cambridge University Press, 1972), p. 135;

حجر، جمال الدين محمود: من قضايا التاريخ الاوربي في القرنين التاسع عشر والعشرين، (الاسكندرية، د.ت)، ص١٤٠ ؛ كيرنوس، جون باتريك: القرون العثمانية قيام وسقوط الامبراطورية التركية، ترجمة ناهد ابراهيم الدسوقي، (الاسكندرية، ٢٠٠٣)، ص٤٥٦-٤٥٧ ؛ القوزي، محمد علي: العلاقات الدولية في التاريخ الحديث والمعاصر، (بيروت، ٢٠٠٢)، ص٦٩.

[٢٩٨] الشامي: المصدر السابق، ص٢٠٦؛ Edward , op. cit, p. 391;

[٢٩٩] كينروس: المصدر السابق، ص٤٦٢ ؛ قلفاط: المصدر السابق، ٣/ص١٤٣-١٤٤.

[٣٠٠] الصلابي، محمد علي: الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط، (بيروت، ٢٠٠٥)، ص٣٥٣ ؛ الشامي: المصدر السابق، ص٢١٤.

[301] Hales ; op. cit, pp. 407-8.

[302] Lentin, A ; Russia In The Eigtheenth Century From Peter The Great to Cathrine The Great 1696-1916,(London ,1973), pp. 96-99 ; عوني: المصدر السابق: ص٢٨٧-٢٨٨

[٣٠٣] زيتون: المصدر السابق، ٢/ص٧٠ ؛ Caryl, op. cit, p. 169

[٣٠٤] يبيفانوف: المصدر السابق، ص٢٦١ ؛ زيتون: المصدر السابق، ٢/ص٧٥-٧٦.

(305) Simon ; op. cit, pp. 103- 4.

(306) David ; op. cit, p. 398.

(٣٠٧) الناصر: المصدر السابق، ص١٦١- ١٦٢ Hales ; op. cit, p. 419 ;

(٣٠٨) عوني: المصدر السابق، ص٢٩٦.

(٣٠٩) فاروق: المصدر السابق، ص٢٢٩ ؛ زيتون: المصدر السابق، ص٨٣-٨٤.

(310) ar.wikipedia. org ; www.marefa.org ;

برايس، فيليب: موجز تاريخ الاتحاد السوفيتي، ترجمة جليل قطو، (بيروت، ١٩٦١)، ص٦٥-٦٧ ؛ يبيفانوف: المصدر السابق، ص٢٧٦-٢٧٧.

(٣١١) عوني: المصدر السابق، ص٢٩٨ Simon ; op. cit, p. 119- 20 ;

(٣١٢) القوزي: المصدر السابق، ص٨١.

(313) Balkhov, I. N ; The Beginning Of Russian – American Relations 1775-1815, (Harvard University Press , 1975), pp. 25-6.

نوار، عبد العزيز سليمان وعبد المجيد نعنعي: التاريخ المعاصر، اوربا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية، (بيروت، ١٩٧٣)، ص١٠٧.

(٣١٤) حسون، علي: العثمانيون والروس، (بيروت، ١٩٨٢)، ص٩٨، القوزي: المصدر السابق، ص٨٤.

(315) Simon ; op. cit, pp. 129-30.

[316] Schultz, H. j ; History Of England , (London, N.D), pp. 189-92.

[317] www. moqatel.com ; David ; op. cit, p. 407.

[318] Clarkson ; op. cit, pp. 425-6.

[319] www. maqatel .com ; Caryl , op. cit, p. 178.

[٣٢٠] خضر، خضر: العلاقات الدولية من الثورة الفرنسية وحتى بداية الحرب العالمية الاولى (١٧٩٨-١٩١٤)، (بيروت، ١٩٩٨)، ص٧٥.

[321] Alxandar, C. Niven ; Napoleon And Alxander I,)New York, 1978), pp. 75-79 ; www. Moqatel.com.

[322] www. maqatel . com.

[323] Ibid; Edward ; op. cit, p. 419.

[٣٢٤] نوار: التاريخ المعاصر اوربا من الصورة الفرنسية ..، ص١٢٤-١٢٥ ؛ القوزي: المصدر السابق، ص٨٩-٩٠.

[٣٢٥] نوار: التاريخ المعاصر اوربا من الثورة الفرنسية..، ص١٢٨-١٣٠.

[٣٢٦] حسين، فاضل وكاظم هاشم نعمة: التاريخ الاوربي الحديث ١٨١٥-١٩٣٩، (الموصل، ١٩٨٢)، ص١٧-٢٢ ؛ القوزي: المصدر السابق، ص٩٤.

[٣٢٧] نوار: التاريخ المعاصر اوربا من الثورة الفرنسية، ص١٤٦ ؛ Clarkson, op. cit, p. 435

[328] Hildt, Johns .C ; Early Diplomatic Negtiations Of The United States with Russia, (London, 1906), p. 119.

(329) Simon, op. cit, pp. 142-3.

(330) Hales ; op. cit, p. 427.

(331) Rene , Carrie ; A Diplomatic History Of Europe Since the Congress Of Vienna, (New York, N.D), pp. 25-27.

(332) Caryl ; op. cit, p. 190.

(٣٣٣) القوزي: المصدر السابق، ص٩٦.

(334) David ; op. cit, pp. 431-2.

(335) Simon ; op. cit, p. 155 ; زيتون: المصدر السابق، ٢/ص١١٥-١١٦.

(336) www.albayan.ae

(337) Wren , F.N ; Russia Between 1815-1914, (London, 1937), pp. 88-9.

(338) Breet, op. cit, p. 375.

(339) Vernadsky , op. cit, p. 108 ; Riasanovsky, op. cit, pp. 261-2.

(٣٤٠) زيتون: المصدر السابق، ٢/ص١٢١.

(٣٤١) المصدر نفسه، ٢/ص١٢٢-١٢٣ ; Breet, op. cit, p. 379

(٣٤٢) حجر: المصدر السابق، ص٢١٠ ; Clarkson; op. cit, p. 446

(٣٤٣) زيتون: المصدر السابق، ٢/١٢٥-١٢٨ ؛ عوني: المصدر السابق، ص٣٢٧.

(٣٤٤) احمد، كمال مظهر: دراسات في تاريخ ايران الحديث والمعاصر ، (بغداد، ١٩٨٥)، ص٧٢-٧٣ ؛ النمر، ضياء الدين سعود: العلاقات الايرانية – الروسية قبل الحرب العالمية الاولى ، (الرياض، د.ت)، ص٣٢-٣٣.

(٣٤٥) حسون: المصدر السابق، ص٩٩-١٠٠.

(346) Wren, op. cit, p. 109.

(٣٤٧) النعيمي، احمد نوري: النزاع التركي اليوناني على بحر ايجه، (بغداد، ١٩٨٢)، ص٣٩-٤٠ ؛ التكريتي: المصدر السابق، ص١١٤-١١٥ ؛ Edward, op. cit,p. 441.

(٣٤٨) مانتران، روبير: تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة بشير السباعي، (القاهرة، ١٩٩٣)، ص٤٢-٤٤ ؛ زكي، عبد الرحمن: التاريخ الحربي لعصر محمد علي الكبير، (القاهرة، ١٩٥٠)، ص٢١٨-٢٢٣.

(٣٤٩) حسون: المصدر السابق، ص١٠٣-١٠٤.

(350) Lewis, op. cit, p. 288.

(351) Plump, J. A ; A Short History Of Europe 1815-1848, (New York, 1970), pp. 173-6.

(٣٥٢) الناصر: المصدر السابق، ص١٩٢-١٩٣.

(٣٥٣) فاروق: المصدر السابق، ص٢٦٧.

(٣٥٤) نوار: التاريخ المعاصر، اوربا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية، ص٢٣٤ ؛ الناصر: المصدر السابق، ص١٩٧.

(355) Wren ; op. cit, pp.120-22.

(356) Geaffrey, op. cit, p. 358.

(٣٥٧) نوار: التاريخ المعاصر، اوربا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية، ص٢٣٤.

(358) Caryl ; op. cit, pp. 181-2.

(٣٥٩) تايلر، اي .جي . بي: الصراع على السيادة في اوربا ١٨٤٨-١٩١٨، ترجمة كاظم هاشم نعمة ويؤئيل يوسف عزيز، (الموصل، ١٩٨٠)، ص١٠١-١٠٣ ؛ حسون: المصدر السابق، ص١١٣.

(360) Simon , pp. 167-8.

(٣٦١) الناصر: المصدر السابق، ص٢٠٧.

(362) Marriott ; op. cit, pp. 270- 1 ;

نوار: التاريخ المعاصر، اوربا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية، ص٢٣٩.

(٣٦٣) المحامي، محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، (القاهرة، ١٩١٢)، ص٢٧٦-٢٧٧ ؛

Breet, op. cit, pp. 394-6.

(364) Mary , E.P ; Alexander II, (London, 1922), pp. 116-20 ,

رونوفن، بيير: تاريخ العلاقات الدولية ١٨١٥- ١٩١٤، ترجمة جلال يحيى، (القاهرة، ١٩٧١)، ص٤٩٥-٤٩٦ ؛ سكولوف، جورج: تاريخ روسيا بين ١٨١٥-١٩٩١، ترجمة انطوان حمصي، (دمشق، ١٩٩٩)، ص١٢٧، قبعين: المصدر السابق، ص٢٠١ ؛ الشامي: المصدر السابق، ص٢٠٧-٢٠٨.

[٣٦٥] يبيفانوف: المصدر السابق، ص٣٩٤-٣٩٨ ؛ فاروق: المصدر السابق، ص٢٧٩.

[366] Mary ; op. cit, pp. 163-4 ; Caryl ; op. cit, p. 179.

[367] Anderson , M. S ; The Eastern Question 1774-1923, A study In International Relations , (New York, 1966), pp. 187-91 ; Genov , Tsonko ; The Russian - Turkish War 1877- 1878 And the Liberation Of Bulgaria, (SOfia , N.D), pp. 51- 55.

[368] Harris , D; A Diplomatic History Of The Balkan Crises 1875- 1878 , (New York, 1962), pp. 238- 54 ; Miller , William ; The Ottoman Empire and its Successors 1801-1927, (London, 1966), pp. 373- 5.

[٣٦٩] حسون: المصدر السابق، ص١٤١-١٤٢ Miller, op. cit, PP. 376-7 ;

[٣٧٠] صفوت، محمد مصطفى: مؤتمر برلين واثره في البلاد العربية، (بغداد، ١٩٥٧)، ص٤٥- ٥٠ ؛ الدسوقي، محمد كمال: الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، (القاهرة، ١٩٧٦)، ص٢٥٥ ؛ الشامي: المصدر السابق، ص٢١٩-٢٢١.

[٣٧١] زيتون: المصدر السابق، ٢/ص١٧٤-١٧٥.

[٣٧٢] عوني: المصدر السابق، ص٣١٧-٣١٩.

[373] Ketelbey , D. M ; A Short History Of the Modern Europe From 1789 to Present Day , (London , 1934), pp. 194-6 ; WWW. arab-ency . com ; WWW. marefa.org ; Lewis, op. cit, pp. 294-5.

[374] Basil , M.R ; A History Of Russia 1853- 1917 , (London, 1928), pp. 94-5.

[375] Ibid, pp. 103- 4.

[376] Stavrianos , L.S ; The Balkans Since 1453, (New York, 1958), pp. 426-7 ;

القوزي: المصدر السابق، ص١٠١.

[377] https:// marefa. org.

(٣٧٨) نجيب: المصدر السابق، ص٢٠٠-٢٠١ ; Ibid

(٣٧٩) برادشوفي، سيدني: اسباب الحرب العالمية قبل فاجعة سراييفو، ترجمة محمود ابراهيم الدسوقي، ج٢، (القاهرة، ١٩٣٢)، ص٤٦-٤٧ ؛ القوزي: المصدر السابق، ص١٠٣.

[380] Basil , op. cit, pp. 133-4.

(٣٨١) القوزي: المصدر السابق، ص١٠٣- ١٠٤ ؛ David; op. cit, p.

(٣٨٢) ستيفه، فردريك: المقدمات المنطقية للحرب العالمية الاولى، ترجمة محمود ابراهيم الدسوقي، (القاهرة، ١٩٢٦)، ص١٨٧-١٨٨ ؛ برادشو : المصدر السابق، ٢/ص٧٦-٧٧.

(٣٨٣) القوزي: المصدر السابق، ص١٠٤- ١٠٥.

(384) https:// marefa .org ; Basil ; op. cit, p. 144.

(٣٨٥) زيتون: المصدر السابق، ج٢، ص٢١١ .

(386) Steiner , R. N ; A World History In The Nineteenth century , (London , 1962), pp. 105- 7 ; Ander, G. A ; Russia And The Word Warm (London, 1925), pp. 68-9 ;

نجيب: المصدر السابق، ص٢١٨ ؛ الناصر: المصدر السابق، ص٢٢٦- ٢٢٧.

(387) Gooch , G. P. History Of Our Time 1885- 1914, (London, 1937), pp. 75-6 ;

فاروق: المصدر السابق، ص٢٩٥ ؛ فرنادسكي: المصدر السابق، ص٢٦٢ ؛ حمدي: المصدر السابق، ص١٨٩- ١٩٠ ؛ ياسين: حسن علوان: الثورة الروسية واثرها على المشرق العربي والاسلامي ١٩١٧-١٩٢٤، (بغداد، ٢٠١٢)، ص٤٦- ٦٥.

(٣٨٨) زيتون: المصدر السابق، ٢/ص٢٣٨-٢٣٩ ؛ Basil, op. cit,pp. 226-7

(٣٨٩) سركيس، حنا: روسيا والحرب العظمى ١٩١٤- ١٩١٧، (دمشق، د.ت)، ص٨٢- ٨٩ ؛ زيتون: المصدر السابق، ٢/ص٢٤٠-٢٤١.

(390) Charques , F.D ; The Russian Revolution1905, (London, 1965), pp. 52-4.

(٣٩١) شنيرب، روبير: تاريخ الحضارات العام في القرن التاسع عشر، ترجمة يوسف داغر، (بيروت: ط٦، ١٩٨٧)، ص٦٠٣ ؛ القاضي، منجد محمود: العلاقات الروسية اليابانية ١٩١٧-١٩٤٥، (الكويت، ١٩٧٩)، ص٢٣-٢٥.

(٣٩٢) القوزي: المصدر السابق، ص١١٠-١١١ ؛ عوني: المصدر السابق، ص٣٣٨.

(393) Macarthey ; C.A ; The Habsburg Empire 1870-1918, (London, 1971), pp. 790-6 ; Watt, D.C.A ; History Of The World In The 20th Century , Part,1, 1899-1918, (London, 1967), pp. 175-81.

(394) Seton - Watson , H ; The Russian Empire 1801-1917 , (Oxford University Press , 1967), pp. 688- 91 ; Albrecht - Carrie , R ; A Diplomatic History Of Europe Since The Congress Of Vienna, (London, 1970), pp. 260-5.

(395) Lieven , D. C. B ; Russia and The Origins Of the First World war, (London, 1983), pp. 35- 40 ; Bridge , F. R ; From Sadowa To Sarajevo, The Foreign Policy Of Austria - Hungary 1866- 1914, (London , 1972), pp. 312-4.

(396) Kochan , L ; The Making Of Modern Russia , (Benguin books, 1971), p. 327.

[397] Helmerich , E. C ; The Diplomacy Of The Balkan Wars 1912- 1913, (Cambridge University Press, 1938), pp. 38-9.

[398] Quoted in Botsford , G. W; A Brief History Of World , (New York, 1970), p. 504.

[399] Jelavich, Charles ; The Balkan In Transition , (New York , 1963), pp. 387-9 ; Bridge ; from Sadowa, pp. 327-8.

[400] Lowe , C. j and M.L .Dokrill, The Mirage Of Power Vol .1. (London, 1970), pp. 94-5 ; Bridge, F.R ; Great Britian And Austria - Hungary 1906-1914, A Diplomatic History , (London , 1972), p. 125.

(٤٠١) للتفاصيل ينظر: المهداوي، علي هادي عباس : الحروب البلقانية ١٩١٢-١٩١٣ ، دراسة تحليلية في العلاقات الدولية قبل الحرب العالمية الأولى (عمان، ٢٠١٧)، ص٦٦-٧٥ ، Lieven; Op. cit, pp.44-5

[402] Mears, Eliot Grinnell ; The Modern Turky (New York , 1924), pp. 498-501 ;

المهداوي: المصدر السابق، ص٧٦.

[403] Eversly , Lord And Sir Valintine ; The Turkish Empire From 1288 to 1914, (London, 1923), pp. 344- 9.

[404] Turner , L. C. F ; Origins Of The First World War, (London, 1972), pp. 42–7.

[٤٠٥] المهداوي: المصدر السابق، ص١٢٠– ١٢١ ، وللتفاصيل بشأن المواقف الدولية ينظر: المهداوي، علي هادي عباس: دبلوماسية الحروب البلقانية ١٩١٢– ١٩١٣ في وثائق مكتب الخارجية الالمانية، (عمان، ١٩١٤).

[406] Ahmad, F ; Young Turkish , The Committee Of Union And Progress In Turkish Politics 1908– 1914, (Oxford University Press, 1969), pp. 130– 5 ; Stavrianos; op. cit, p. 540.

[٤٠٧] برادشو في: المصدر السابق، ٢/ص٣٢٨– ٣٢٩.

[٤٠٨] المصدر نفسه، ص٣٣٧– ٣٣٩.

[٤٠٩] سركيس: المصدر السابق، ص١١٨ ؛ Basil ; op. cit, p. 288

[410] Barry; S. E ; A Short History Of The Russian Impire in the Nineteeth century , (London, 1933), p. 194.

[٤١١] نوار: التاريخ المعاصر اوربا من الثورة الفرنسية، ص٤١٨.

[٤١٢] نقلاً عن زيتون: المصدر السابق، ٢/٢٥٧.

[٤١٣] نوار: التاريخ المعاصر اوربا من الثورة الفرنسية، ص٤١٨–٤١٨.

[414] Barry ; op. cit, p. 207 ; Simon ; op. cit, p. 197.

[٤١٥] الناصر: المصدر السابق، ص٢٤٣.

[٤١٦] زيتون: المصدر السابق، ٢/٢٧٥.

(417) Barry; op. cit, p. 226.

(٤١٨) نقلاً عن زيتون: المصدر السابق، ٢/ص٢٧٦-٢٧٧.

(419) Lewis ;op. cit, p. 318.

(420) Caryl ; op. cit, pp. 259- 60.

(421) David ; op. cit ,p. 508.

(٤٢٢) القـوزي: المصـدر السـابق، ص١١٩ ؛ فـاروق: المصـدر السـابق، ص٣٧٨. https:// marefa. Com

٦ـ المصادر

٦-١ العربية والمترجمة:

- احمد، كمال مظهر: دراسات في تاريخ ايران الحديث والمعاصر، (بغداد، ١٩٨٥).
- اكاديمية العلوم في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية: تاريخ الجمهوريات السوفيتية من العصور القديمة حتى اليوم، ترجمة مصطفى فقير (موسكو، د.ت).
- الكسييف، سيرجي: قصص من التاريخ الروسي، ترجمة ماهر عسل، (موسكو، ١٩٧٥).
- اندرسون، ماتيو: تاريخ القرن الثامن عشر في اوربا، ترجمة نور الدين حاطوم، (دمشق، ١٩٨٦).
- بالمر، روبرت: تاريخ العالم الحديث، اوربا من القرون الاولى حتى سنة ١٧٤٠، ترجمة محمود حسين الامين، ج١، (الموصل، ١٩٦٣).
- برادشو ڤي، سيدني: اسباب الحرب العالمية قبل فاجعة سراييفو، ترجمة محمود ابراهيم الدسوقي، ج٢، (القاهرة، ١٩٢٦).
- برايس، فيليب: موجز تاريخ الاتحاد السوفيتي، ترجمة جليل قطو، (بيروت، ١٩٦١).
- بروي، ادوارد: موسوعة تاريخ الحضارات العام، ترجمة يوسف اسعد داغر وفريد داغر، ج٣ (بيروت، ط٢، ١٩٨٦).
- البطريق، عبد الحميد وعبد العزيز نوار: التاريخ الاوربي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فينا، (بيروت، ١٩٧٤).

- البكاء، هند طاهر خلف: العلاقات الايرانية – السوفيتية ١٩٤١-١٩٥١ ، رسالة ماجستير – غير منشورة- كلية التربية – الجامعة المستنصرية، (٢٠٠٤).
- بولجر، ديمتريوس: المغول وبلاط قوبلاي، ترجمة ادارة الثقافة بوزارة التعليم العالي المصرية، (القاهرة، د.ت).
- بيرخين، شميدت، تارفوفسكي: موجز تاريخ الاتحاد السوفيتي (موسكو، ١٩٨٦).
- بيمانوف، بيار سولا: تاريخ الاتحاد السوفيتي، (موسكو، د.ت).
- تايلر، اي .جي . بي: الصراع على السيادة في اوربا ١٨٤٨-١٩١٨، ترجمة كاظم هاشم نعمة ويؤئيل يوسف عزيز، (الموصل، ١٩٨٠).
- التكريتي، هاشم: المسألة الشرقية المرحلة الاولى (١٧٧٤-١٨٥٦)، (بغداد، ١٩٩٠).
- ترويتسكي، الكسييف، كارتسوف: موجز تاريخ الاتحاد السوفيتي، ترجمة محمد الجندي، (موسكو، ١٩٧٤).
- جمعة، بديع محمد واحمد خولي: تاريخ الصفويين وحضارتهم ، ج١ (القاهرة، ١٩٧٦).
- حاطوم، نور الدين: تاريخ اوربا في العصر لوسيط، (دار الفكر، دمشق، ١٩٨٢).
- ــــــــــــــ، تاريخ القرن السابع عشر في اوربا، (دمشق، ١٩٨٦).

- حجر، جمال الدين محمود: من قضايا التاريخ الاوربي في القرنين التاسع عشر والعشرين، (الاسكندرية، د.ت).
- حسون، علي: الروس والعثمانيون، (بيروت، ١٩٨٢).
- حسين، فاضل وكاظم هاشم نعمة: التاريخ الاوربي الحديث ١٨١٥-١٩٣٩، (الموصل، ١٩٨٢).
- حليم، ابراهيم بك: تاريخ الدولة العثمانية العلية ، (القاهرة، ٢٠٠٤).
- حمدي، مصطفى شعبان: تاريخ روسيا الحديث، (طرابلس، ٢٠٠٤).
- خضر، خضر: العلاقات الدولية من الثورة الفرنسية وحتى بداية الحرب العالمية الاولى ١٧٩٨-١٩١٤، (بيروت، ١٩٩٨).
- الدرزي، وليد نور الدين : روسيا في ظل الاحتلال المغولي دراسة في الأحوال السياسية، (د.م، ١٩٦٩).
- الدسوقي، محمد كمال: الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، (القاهرة، ١٩٧٦).
- دوفيز، ميشيل: اوربا والعالم في نهاية القرن الثامن عشر، ترجمة الياس مرقص، ج٣ (بيروت، ١٩٨٠).
- الدنبلي، عبد الرزاق بك: المآثر السلطانية، تاريخ ايران وحروبها مع روسيا منذ القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، (القاهرة، ٢٠٠٥).
- ديورانت، وول: قصة الحضارة ترجمة فؤاد اندراوس، محمد علي أبو درة، مجلد (١٧)، ج٢٣، (د.م، ٢٠٠١).

- رونوفن، بيير: تاريخ العلاقات الدولية ١٨١٥- ١٩١٤، ترجمة جلال يحيى، (القاهرة، ١٩٧١).
- زكي، عبد الرحمن: التاريخ الحربي لعصر محمد علي الكبير، (القاهرة، ١٩٥٠).
- زيتون، نظير: روسية في موكب التاريخ ج١، ج٢(سان باولو، ١٩٤٥).
- الزيدي، مفيد: تاريخ اوربا الحديث والمعاصر، (عمان، ٢٠٠٤).
- ستروكوف، أ: تاريخ فن الحرب، ترجمة صلاح الدين الأتاسي، ج١، (دمشق، ١٩٦٨).
- ستيفه، فردريك: المقدمات المنطقية للحرب العالمية الاولى، ترجمة محمود ابراهيم الدسوقي، (القاهرة، ١٩٢٦).
- سركيس، حنا: روسيا والحرب العظمى ١٩١٤- ١٩١٧، (دمشق، د.ت).
- سكولوف، جورج: تاريخ روسيا بين ١٨١٥-١٩٩١، ترجمة انطوان حمصي، (دمشق، ١٩٩٩).
- سنيوبوس، شارل: تاريخ التمدن الحديث ، ترجمة الكاتب محجوب، (القاهرة، ١٩٠٩).
- شاكر، محمود: موسوعة الحضارات وتاريخ الأمم القديمة، ج٢، (الاردن، ٢٠٠٣).
- الشامي، شفيق عصام: صفحات مجهولة من تاريخ القياصرة الروس، (دمشق، ١٩٢٢).

- شعيب، علي: احداث ومشاهير بطرس الاكبر " قيصر روسيا " ، (لبنان، ١٩٩٢).
- الشمري، مشعل مفرح ظاهر: روسيا القيصرية في عهد بطرس الاكبر (١٦٨٩-١٧٢٥)، اطروحة دكتوراه - غير منشورة - كلية الآداب- جامعة البصرة، (٢٠٠٦).
- شنيرب، روبير: تاريخ الحضارات العام في القرن التاسع عشر، ترجمة يوسف داغر، (بيروت: ط٦، ١٩٨٧).
- صالح ، محمد محمد: اوربا من عصر النهضة حتى الثورة الفرنسية ١٥٠٠-١٧٨٩، (بغداد، ١٩٨١).
- صفوت، محمد مصطفى: مؤتمر برلين واثره في البلاد العربية، (بغداد، ١٩٥٧).
- الصلابي، محمد علي: الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط، (بيروت، ٢٠٠٥).
- الصياد، سامي صالح محمد: الأمير ايفان الثالث (١٤٦٢-١٥٠٥) ودوره في توحيد روسيا، مجلة دراسات تاريخية (بيت الحكمة)، العدد ٣٣ لسنة (٢٠١٢).
- طارق مبارك عبدالله: المغول وعلاقاتهم مع القوى المجاورة (بنغازي، ١٩٨٢).
- طقوش، سهيل: تاريخ القبيلة الذهبية والهند، (بيروت، ٢٠٠٧).

- العاني، عبد المجيد عبد الحميد: ملامح السياسة الخارجية لورسا القيصرية تجاه ايران (١٧٩٤-١٩٠٧)، مجلة كلية التربية – جامعة بغداد، العدد الخامس لسنة (١٩٩٧).
- عبد الرحمن، محمود: تاريخ القوقاز، (بيروت، ١٩٩٩).
- عبد الغني، احمد جمال: البلاط القيصري الروسي (دسائس ومؤامرات) (دمشق، ١٩٣١).
- العسلي، بسام: بطرس الاكبر (١٦٧٢-١٧٢٥)، (بيروت، ١٩٨٠).
- العكيلي، صالح حسن: الوجه الآخر للنهضة الاوربية، محاضرات في تاريخ اوربا عصر النهضة ١٤٥٣-١٧٨٩، (بغداد، ٢٠٠٦).
- عمران، محمود سعيد: تاريخ اوربا في العصور الوسطى، (القاهرة، د.ت).
- عوني، مراد برهوم: الوجيز في تاريخ روسيا، (لبنان، ١٩٢٦).
- غراهام، ستيفن: ايفان الرهيب اول القياصرة، ترجمة يوسف شلب الشام، (دمشق، ١٩٩٦).
- فاروق، وليد سليمان أغا: روسيا العظمى، (د.م، ١٩١٩).
- فرج، نعيم: تاريخ اوربا في العصور الوسطى (دمشق، ١٩٧٨).
- فرنادسكي، جورج: تاريخ روسيا، ترجمة عبدالله سالم الزليتي، (طرابلس، ٢٠٠٧).
- فشر، هربرت: اصول التاريخ الاوربي من عصر النهضة حتى الثورة الفرنسية، (القاهرة، د.ت).

- ــــــــــــــــ، تـاريخ اوربـا فـي العصـور الوسـطى، ترجمـة محمـد مصطفى زياد والسيد الباز العريني، (القاهرة، ١٩٩٦).
- فؤاد، محمد: ايفان الرهيب قيصر روسيا، مجلة المعرفة، المجلد الثالث، (بيروت، ١٩٧٩).
- قبعين: سليم: تاريخ ال رومانوف، (القاهرة، ٢٠١٢).
- قلفاط، نخلة: تاريخ روسيا الحديث، ج٣، (بيروت، ١٨٨٧).
- القوزي، محمد علي: العلاقات الدولية في التاريخ الحديث والمعاصر، (بيروت، ٢٠٠٢).
- كلوفسكي، فاسيلي: بيتر الكبير، ترجمة ليليان ارشيبالد، (نيويورك، ١٩٦١).
- كيرنـوس، جون باتريك: القرون العثمانيـة قيـام وسقوط الامبراطوريـة التركية، ترجمة ناهد ابراهيم الدسوقي، (الاسكندرية، ٢٠٠٣).
- لانجر، وليم: موسوعة تاريخ العالم، ترجمة عبد المنعم أبو بكر، ج٤، (القاهرة، ١٩٧٠).
- المالكي، علي جودة صبيح: روسيا القيصرية في عهد كاترين الثانية، رسالة ماجستير – غير منشورة– كلية الدراسات التاريخية، جامعة البصرة، (٢٠١٠).
- مانتران، روبير: تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة بشير السباعي، (القاهرة، ١٩٩٣).
- متي، سمير: الكنيسة الشرقية (بيروت، ١٩٠٧).

- المحامي، محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، (القاهرة، ١٩١٢).
- مصطفى، أمين واحمد عزت عبد الكريم: تاريخ اوربا الاقتصادي، (القاهرة، ١٩٥٤).
- المقريحي، ميلاد: تاريخ اوربا الحديث ١٤٥٣-١٨٤٨، (بنغازي، ١٩٩٦).
- المهداوي، علي هادي عباس : الحروب البلقانية ١٩١٢-١٩١٣ ، دراسة تحليلية في العلاقات الدولية قبل الحرب العالمية الأولى (عمان، ٢٠١٧).
- ــــــــــــ، دبلوماسية الحروب البلقانية ١٩١٢- ١٩١٣ في وثائق مكتبة الخارجية الالمانية، (عمان، ١٩١٤).
- موسنييه، رولان: تاريخ الحضارات العام ، ترجمة يوسف السعد، المجلد الرابع، (بيروت، ١٩٦٦).
- الناصر، عمر شكري: حكم الاستبداد في روسيا حتى عام ١٩١٧، (د.ت، دمشق).
- نجيب ، سعد الله احمد: محاضرات في التاريخ الروسي، (دمشق، ١٩٣٨).
- نعنعي، عبد المجيد: اوربا في بعض الازمنة الحديثة والمعاصرة ١٤٥٣-١٨٤٨، (بيروت، ١٩٨١).
- النعيمي، احمد نوري: النزاع التركي اليوناني على بحر ايجه، (بغداد، ١٩٨٢).

- النمر، ضياء الدين سعود: العلاقات الايرانية – الروسية قبل الحرب العالمية الاولى ، (الرياض، د.ت).
- نوار، عبد العزيز سليمان ومحمود محمد جمال الدين: التاريخ الاوربي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الاولى، (القاهرة، ١٩٩٩).
- نوار، عبد العزيز سليمان وعبد المجيد نعنعي: التاريخ المعاصر، اوربا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية، (بيروت، ١٩٧٣).
- هامرتن، السير جون: تاريخ العالم، ترجمة ادارة الثقافة بوزارة التعليم العالي المصرية، المجلد السابع، (القاهرة، د.ت).
- ياسين: حسن علوان: الثورة الروسية واثرها على المشرق العربي والاسلامي ١٩١٧-١٩٢٤، (بغداد، ٢٠١٢).
- يحيى، جلال: التاريخ الاوربي الحديث والمعاصر حتى الحرب العالمية الاولى، (الاسكندرية، د.ت).
- يبيفانوف، فيدوسوف : تاريخ الاتحاد السوفيتي ، ترجمة: خيري الضامن ونيقولا الطويل، (موسكو ، د.ت).

٦-٢: باللغة الانكليزية

- Albrecht – carrie , R ; A Diplomatic History Of Europe Since The Congress Of Vienna, (London, 1970).
- Alexandar, C. Niven ; Napoleon And Alexander 1, (New York, 1978).

- Ahmad, F ; Young Turkish , The Committee Of Union And Progress In Turkish Politics 1908- 1914, (Oxford University Press, 1969).
- Anderson , M. S ; The Eastern Question 1774-1923, A study In International Relations , (New York, 1966).
- Andre, G. A ; Pares ; Russia And The Peace, (New York, 1944).
- Balkhov, I. N ; The Beginning Of Russian – American Relations 1775-1815, (Harvard University Press , 1975).
- Barry; S. E ; A Short History Of The Russian Impire In The Nineteeth century , (London, 1933).
- Basil , M.R ; A History Of Russia 1853- 1917 , (London, 1928).
- Beik , E.F ; A Short History Of Russia, (London , N.D).
- Botsford , G. W; A Brief History Of World , (New York, 1970).
- Breett, H. M ; Russia And West Europe Historical Study , (New York, 1972).

- Bridge , F. R ; From Sadowa To Sarajevo, The Foreign Policy Of Austria – Hungary 1866- 1914, (London , 1972).
- ________________, Great Britian And Austria – Hungary 1906-1914, A Diplomatic History , (London , 1972).
- Bushkovitch , Paul ; Peter The Great , The Struggle For Power 1671-1725 , (Cambridge University Press, 2004).
- Caryl .Ferdinand ; The Slave Civilization, (New York, 1949).
- Charques , F.D ; The Russian Revolution,1905, (London, 1965).
- Chester, N.E ; Russia , The Great Empire, (New York, 1974).
- Clarkson, Henry ; A General History Of Russia Until 1917 , (London, 1929).
- Clement, A. H; A History Of Europe From 1789-1870,(London, 1961).
- Costantin, D. G ; Peter' The Great (London, 1961).

- Daniels , R.V. ; The Old History Of Russia (New jersey , 1964).
- David, Frank ; A History Of Russia, 980- 1613. (New York , 1947).
- Edward , M.F ; History Of The Russian Empire, (New York, 1962).
- Elliot, H.W ; The Seal Islands Of Alaska , (New York, 2012).
- Eloy ; Maueen ; The Colonial Empires , (Paris, 1953).
- Emerson , C ; The Cambridge Introduction To Russian Literature, (New York, 2008).
- Emmons ; H.A ; A History Of The Modern Europe Since 1500, (New York, 1961).
- Eversly , Lord And Sir Valintine ; The Turkish Empire From 1288 to 1914, (London, 1923).
- Fisher, Alan . W ; The Russian Annexation Of The Crime 1772- 1783 , (Cambridge University Press, 1972).
- Florinsky, Michael ; Russia, A History and An InterPretation, (New York, 1955).

- Geary, B. G ; The Byzantine State , Historical Study, (New York, 1976).
- Genov , Tsonko ; The Russian – Turkish War 1877-1878 And The Liberation Of Bulgaria, (Sofia , N.D).
- GeOffrey ; john ; The Modern History Of Russia, (London, 1921).
- Gibbon , Edward ; The Diecline And Fall Of Roman Empire, (New York, N.D).
- Gooch , G. P.: history Of Our Time 1885- 1914, (London, 1937).
- Hales , R.A ; The Modern Russian State , A Historical Study, (London, 1951).
- Harbuth, Ernest ; A Brief History Of Russia, (London, 1936).
- Harris , D; A Diplomatic History Of The Balkan Crises 1875- 1878 , (New York, 1962).
- Helmerich , E. C ; The Diplomacy Of the Balkan wars 1912- 1913, (Cambridge University Press, 1938).
- Hildt, Johns .C ; Early Diplomatic Negtiations Of The United States with Russia, (London, 1906).

- Inalcik , Halil, The Ottoman Empire , The classical Age 1300– 1600, (London, 1973).
- Jean, M. L ; The Russain's Nation, Historical Study, (London, 1919).
- Jelavich, Charles ; The Balkan In Transition , (New York , 1963).
- Ketelbey , D. M ; A Short History Of The Modern Europe From 1789 To Present Day , (London , 1934).
- Kirchner, Wather ; A General History Of Russia, (New York, 1948).
- Kochan , L ; The Making Of Modern Russia , (Benguin books, 1971).
- Kurbsky, A.M ; History Of Ivan IV, Translated By J. L. I ; (Cambridge university Press, 1965).
- Kuskov, Vladimir ; A History Of Old Russian Litertature, Translated From The Russian By Ronald Vroon, (Moscow, 1977).
- Lawrence, N. L ; Historical Dictionary Of Medieval Russia, (New York, 2004).

- Lentin, A ; Russia In The Eigtheenth Century From Peter The Great To Cathrine The Great 1696-1916,(London ,1973).
- Lewis, G.A ; A Short History Of The Salve Nation, (London, 1923).
- Lieven, D. C. B ; Imperial Russia 1689-1917, Vol. 1, (Cambridge University Press , 2006).
- ________________, Russia and The Origins Of the First World war, (London, 1983).
- Lorga, Stefan ; The Political History Of Europe 1500- 1848, (New York, 1953).
- Lowe , C. j and M.L .Dokrill, The Mirage Of Power Vol.1, (London, 1970).
- Macarthey ; C.A ; The Habsburg Empire 1870-1918, (London, 1971).
- Marriott, J.A.R ; The Eastern Question An Historical Study in European Diplomacy , (London, 1947).
- Mary , E.P ; Alexander II, (London, 1922).
- Michael, Cyril ; A Diplomatic History Of Russia 1533-1613, (London, 1913).

- Miller , William ; The Ottoman Empire and Its Successors 1801-1927, (London, 1966).
- Oakley ,S ; A short History Of The Modern Europe Since 1500 , (New York, 1961).
- Oslen, J.E and Peter, L ; The Discover Of Bering Starait, (New York, 2012).
- Ostrogovsky, George ; History Of Byzantine State , (Oxford, 1968).
- Parry , V . j ; A History Of The Ottoman Empire To 1730 , (Combridge University Press , 1976).
- Paul , K. Stone ; A General History Of Russia, (New York, 1960).
- Plump, J. A ; A Short History Of Europe 1815-1848, (New York, 1970).
- Rene , Carrie ; A Diplomatic History Of Europe Since The Congress Of Vienna, (New York, N.D).
- Riasanovsky, Nicholas ; A History Of Russia (New York, 1963).
- Richard, M.A ; A History Of The Russian Orthodox Church, (London, 1913).

- Robert, H. S ; A History Of Russia In The Medieval Ages, (London, 1935).
- Saunder , J ; A History Of The Mongol Conques and Russia, (London, 1970).
- Schultz, H. j ; History Of England , (London, N.D).
- Sedillot , Rene ; History Of The world, (New York, 1953).
- Seton – Watson , H ; The Russian Empire 1801-1917 , (Oxford University Press , 1967).
- Shelestov, V.N ; The Russian Civilization History, (London, 1925).
- Simon ; H.W ; Russia In The Eighteenth And Nineteenth centuries, (London , 1960).
- Spuler , Bertold ; History Of The Mongols Based on Eastern and Western Accounts Of The Thirteenth And Fourteenth Centuries, (London, 1968).
- Stavrianos , L.S ; The Balkans Since 1453, (New York, 1958).
- Steiner , R. N ; A world History In The Nineteenth century , (London , 1962).

- Stone, D.; Amilitary History Of Russia From Ivan The Terrible To The War Chechnya (New York, 1968).
- Sumner, B. H ; Peter The Great And The Ottoman Empire, (Oxford university Press, 1940).
- Sykes, Lieut ; A History Of Prsia, (London, 1915).
- Taylor, B.S ; A political History Of Russia In The Sixteenth century, (New York, 1958).
- Terence, Emerrson ; A History Of Russia Since 1613, (London, 1948).
- Todorov, F.N ; Russia In The Middle Age (London, 1955).
- Vernadsky, Gorge ; A History Of Russia (Oxford University Press , 1951).
- Walter, G. M ; A History Of Russia , Vol.1, (New York, 2005).
- Watson , L. S ; A short History Of Old Russian Literature, (London, N.D).
- Watt, D.C.A ; History Of The World In the 20th Century , Part, 1899-1918, (London, 1967).
- Wesley, R. F ; Russia In The Sixteenth Century, (New York, 1934).

- William, D. A ; The Russian Empire 1113-1613, Vol. 1, (London, 1911).
- Wren , F.N ; Russia Between 1815-1914, (London, 1937).

٦-٣: شبكة المعلومات (الانترنت)

- البياتي، ميسون: دراسات وأبحاث في التاريخ والتراث واللغات
www.alhewar.org
- حداد، يوحنا: فاسيلي الرابع
www.almadarnews.com
- الحميد، سعد عبدالله: معركة موسكو www.alukah. net
- زيباري، ايفان: التاريخ والمؤرخون وحقيقة ايفان الرابع
www.alfiker.com
- السبكي، ريتا: مجلس البويار الروسي www.politicaleventscom
- شعار، محمد: روسيا في عهد القيصر ايفان الرابع
www.shamyat.com
- مادار ياغا، ايزابيل: شخصيات لها تاريخ (ايفان الرهيب)
www. kenana.fromegypt.net
- مراد ، مصطفى: ايفان الرابع www. maghress. com
- نسيم، ماريا: قصر الكرملين، قصص مثيرة من ماضي الروس
www.almadarnews.com
- نصري، طارق اسماعيل: التوسع الروسي في البلطيق

www.modernhistory.com

- ar.wikipedia . org
- www. arab – ency.com
- www. Albayan.ae
- www.bu 221. com
- www. kabbas .com
- https:// marefa. org
- www. solial . net

المحتويات